اليسعُ

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدّمة 3
اليسع 29
من وحي القرآن 29
من صفات النبي اليسع 101
1 . خيِّر: 101
2 . مُفضَّل: 114
3 . مُجتبى: 127
4 . مهدي: 129
5 . مؤتى الكتاب: 146
6 . مؤتى الحُكم: 168
7 . نبي: 247
النبي اليسع من السنّة 324
اليسع نبيا رشيدا: 326
الفضل صفة اليسع من ذي الفضل: 378
الْيَسَعَ نبي معظّم: 387

المقدّمة

النبي اليسع من الأنبياء المفضّلين من ذو الفضل جلّ جلاله؛ فهوى على المكانة والرّفعة المرموقة، ذلك لأنّ فضائل الله لا تحصى ولا تعدّ ومهما تصوّرنا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كيف هي فضائل أو ماهي؟ ستظل فضائل ذو الفضل غير قابلة للقياس كونها من إعمال المعجزات التي لا تكون إلّا على أيدي الأنبياء الكرام الذي من بينهم النبي اليسع عليهم صلوات الله وسلامه.

ونحن نبحث في فضائل الله على نبيّه اليسع عليه السّلام ارتئينا البحث في صفة الفضل التي لا تستمدّ إلّا من ذو الفضل وهو الله تعالى، وهو مصدر كل فضل، وهو المعطي دون انتظار مقابل، فمن فضله كان بعباده رءوف رحيما وكان لِما خلق رزّاقا كريما.

فذو الفضل اسم من الأسماء الله الحسنى التي سمى بها نفسه جلّ جلاله مصداقا لقوله تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}1.

فقوله تعالى: (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي صاحب الفضل الواسع الذي لا يساويه فضل مهما تعدّد.

وجاء الفضل معرّفا للتخصيص والتحديد فهو لم يكن فضلا مجهولا أو نكرةً، بل هو الفضل الذي من عند الله، ولهذا لا فضل للمقارنة مثل فضل ذو الفضل العظيم.

[1] البقرة 105.

فإذن قوله تعالى: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) تدلّ هذه الآية الكريمة على ما في نفوس الكافرين والمشركين من حسد وحقّد على الذين آمنوا، فهم لا يحبون الخير الذي أفاض به ذو الفضل على الذين أسلموا وجوههم إليه واحدا أحدا. ولأنّه ذو الفضل العظيم فقد مدَّ أهل الخصوص الذين منهم النبي اليسع بالخيرات الحسان حتى وصفوا أنّهم من الأخيار الكرام، ولذا فإن ذو الفضل العظيم لا ينتظر من أحدا رأي ليؤتي من رزقه لمن يشاء أو لم يؤته. إنّه مالك الملك والأمر يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممّا يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[2] وقال تعالى: {إِنَّ ربّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[3].

إذا لو لم يكن ذو الفضل العظيم ما كان له أن يؤتي الملك والرّزق لمن يشاء بغير حساب؟

بدون شكّ إيتاء الملك والنبوّة والحكمة والرّزق والعلم والسلطان لا يكون إلا من ذو الفضل العظيم جلّ جلاله. قال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ ربّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ

[2] آل عمران 26، 27.

[3] الإسراء 30.

اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}4.

في مضمون هذه الآية الكريمة تنبيه على أنّ الإيمان بالله لا فرق فيه سواء أكان في رسالة موسى أو عيسى أو محمّد أو الذين سبقوهم من الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فمن آمن بأيّ من الأنبياء السّابقين عليه أن يؤمن برسول الكافة محمّد عليه الصّلاة والسّلام وبرسالة الإسلام الخاتمة وألا يكون من المشركين أو الضالين.

وقوله (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) أي الهداية باتباع الرّسول والرّسالة الخاتمة هو الهداية التي هي من عند الله فلا يحقّ الاعتراض أو الاحتجاج، أي لا يحقّ للمخلوق أن يحتج أو يعترض على مشيئة الله واصطفائه للأنبياء والرّسُل، ولذا فالمؤمنون لا يفرّقون بين أحدا من رسله مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}5، وقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}6.

---

[4] آل عمران 73، 74.

[5] آل عمران 84. 86.

[6] البقرة 285.

وقوله (أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) أي أنّه لا دين حقّ إلا من الحقّ تعالى، ولهذا الرّب واحد والدين واحد وإن تعدد الأنبياء والرّسُل؛ فالدعوة واحدة لواحد أحدا لا شريك له.

ولأنّ الأمر كذلك فلماذا إذا الاعتراض والاحتجاج والكفر والشرك؟ نعم إنّه لا مبرر حقّ لذلك، ولذا يفترض أن تعمّ الفرحة كل الذين سبق لهم أن آمنوا بالنبي أو الرّسول السّابق للاحقّ من بعده.

وقوله: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) تعود هذه الآية على سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام ليقول أنّ ما آتاه من الله تعالى هو من فضله تعالى، ومن ثمّ فالفضل يستوجب الحمد والشكّر، وبخاصّة لمن عمَّه الفضل العظيم، ليكون رسولا بالكتاب الحكيم للنّاس كافّة.

ولأنّ الأنبياء والرّسُل يصطفون من الله اصطفاء؛ فكيف للبعض كفرا وشركا لا يعقلون! أم على قلوب أقفالها؟ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[7].

---

[7] محمّد 23 . 29.

وجاء قوله (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) لأن الله يصطفي الرّسُل والأنبياء اصطفاء؛ فالأمر فيه اختصاص بالرّحمة والفضل لمن يشاء من عباده الصالحين كما شاء فضله على النبي اليسع عليه السّلام.

ولأنّ الأمر بيده تعالى فلماذا إذا الكفر والشّرك وعدم الطّاعة لله ذو الفضل العظيم؟

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}8، من غير شكّ من يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ويحفظه من كلّ مكروه وسوء ومكر وكيد إنّه على كلّ شيء قدير.

أوحى الله تعالى إلى لنبي اليسع عليه السّلام وأيّده بما أيّد به عبده إلياس؛ فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه وينتهون إلى أمره، وحكم الله تعالى قائم فيهم إلى أن فارقهم اليسع عليه السّلام9.

كان بنو إسرائيل في زمنه إِذْ قَاتَلُوا أَحَدًا مِنَ الْأَعْدَاءِ يَكُونُ مَعَهُمْ تَابُوتُ الْمِيثَاقِ الَّذِي كَانَ فِي قُبَّةِ الزَّمَانِ. وذلك تبرّكا به لما جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْبَقِيَّةِ ممّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ10.

[8] الأنفال 29، 30.

[9] نهاية الأرب في فنون الأدب، 14، ص 28.

[10] قصص الأنبياء، 2، ص 252.

فَلَمَّا انْقَطَعَ إِلْيَاسُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعَثَ اللَّهُ الْيَسَعَ، فَكَانَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَعِنْدَهُمُ التَّابُوتُ يَتَوَارَثُونَهُ، فِيهِ السَّكِينَةُ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَكَانُوا لَا يَلْقَاهُمْ عَدُوٌّ فَيُقَدِّمُونَ التَّابُوتَ إِلَّا هَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ، وَكَانَتِ السَّكِينَةُ شِبْهَ رَأْسِ هِرٍّ، فَإِذَا صَرَخَتْ فِي التَّابُوتِ بِصُرَاخِ هِرٍّ أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ وَجَاءَهُمُ الْفَتْحُ.

ولأنّ اليسع رشيدا منذ نعومة أظافره؛ فهو بلا شكّ هو من الأخيار قبل رشده ومن بعده حتى أصبح رسولا يدعون إلى توحيد المعبود الله جلّ جلاله.

ولأنّه رشيد؛ فهو يعرف ما يجب ويتّبعه ويدعو إليه، ويعرف ما لا يجب؛ فيتجنّبه وينهى غيره عنه. ولكن ماذا يعني أنّ اليسع رشيدا؟

أقول:

إنّه من استمدّ صفة رُشده من الرّشيد الأعظم عزّ وجلّ، والرّشيد اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدلّ على مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرّشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق، كما بيّنا ذلك في مواضع كثيرة، فلمّا ثبتت أدلة الخلق على أنّ لها خالق؛ فهو دليل على أنّ الخَلق لم يتركوا هملا، وإنّما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كلّ

حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرّشيد جلّ جلاله فقد جاء في لسان العربّ من أَسماء الله تعالى: "الرّشيد هو الذي أَرْشَد الخلق إِلى مصالحهم أَي هداهم ودلّهم عليها، وهو الذي تنساق تدابيره إِلى غاياتها على سبيل السداد من غير إِشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد"11، فهو عزّ وجلّ أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تدابيره؛ وهذا يعني أنّه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلغ الرّسُل، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرّشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

الله سبحانه وتعالى رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنى فهو رشيد بقربّه وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيره، ورشيد بكونه حيا وقيوما، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيدا فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيدا مثل قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}12 وهو الرّشيد الحيّ لنفسه لتحقّيق ما نسب إليه ممّا لا

11 لسان العرب، ج 3، ص 175.

12 المعارج 6، 7

يتصف به إلا من شرطه أن يكون حيا قيوما حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}13 لقيامه على كل حال نفس بما آتاها من رشاد، وهو الواجد لما طلب فلحقّ، فلا يفوته هاربٌ كما لا يلحقّه في الحقّيقة طالب، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إله إلا هو الصمد حيث قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}14 الذي يُلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا، والتوكل عليه هو طريق الرشاد، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالى: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}15 فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ولهذه القدرة نطلب منه الرشاد، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه، والظاهر الباطن لنفسه، ظهر فما زال ظاهرا أو عن خلقه بطن فما يزال باطنا، ولذلك يطلب منه الرّشيد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهو البر أبدا بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده لأنّه رشيد، وهو التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم ودنياهم، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرّشيد، فهذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل

---

13 البقرة 255

14 الإخلاص 1، 2

15 البقرة 148

أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لابدّ أن يدخلها القلة والكثرة فلابدّ أن يعمها العفو فإنه لابدّ من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد، وهو المقسط بما أعطى بحكم التقسيط حيث قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}16 وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق، وهو الغنيّ عن العالمين والمغني لهم، من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئا فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولابدّ من وجه به يتميز المثل عن مثله، ولا يتميز إلا بالإرشاد، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به ممّا هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة ورشاد اقتضها علمه في خلقه، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة، وهو الرّشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه آخذ

16 الحجر 21

بناصية كل دابة، وهو الصبور برشده على ما أوذي به حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}[17] فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك وإنّما أخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة على أنّه رشيد لجميع أنواع خلقه[18].

وهذا الخلق الذي ينقسم إلى هذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كلّ واحد منهم في إرشاد الرّشيد له وفق مشيئة الله تعالى وإرادته التي أرادها لخلقه بحكمته واحدا بعد الآخر، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عمن أطاع أو عصى، فالله سبحانه وتعالى أرشد وأمر بالرّشيد كونه رشيدا، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه الله لخلقه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأما من أبى فلا يلومنّ إلا نفسه، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام بيده وأسكنه الجنّة مع زوجه وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته.

وعليه فالنبي اليسع عليه السّلام من أنبياء الله المفضّلين، وقد بُعث إلى الأراميين بسوريا وكذلك إلى بني إسرائيل، وهناك من يرى بعثته قبل اليأس، وهناك من يراها من بعده.

قَالَ ابْن إِسْحقّ: حدثنَا بِشْرٍ أَبُو حُذَيْفَةَ، أَنْبَأَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ "كَانَ بَعْدَ إِلْيَاسَ الْيَسَعُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهَاجِ إِلْيَاسَ وشريعته حَتَّى قَبضه الله عزّ وجلّ إِلَيْهِ ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَالْخَطَايَا وَكَثُرَتِ الْجَبَابِرَةُ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ،

---

[17] الأحزاب 57

[18] طرق حديث الأسماء الحسنى، ج 1، ص 108.

وَكَانَ فيهم ملك عَنِيدٌ طَاغٍ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي تَكَفَّلَ لَهُ ذو الكفل إِن هُوَ تَابَ وَرجع دَخَلَ الجنّة فَسُمِّى ذَا الْكِفْلِ"19.

قَالَ محمّد بْنُ إِسْحَاقَ هُوَ الْيَسَعُ بْنُ أَخْطُوبَ.

لقد فضَّل الله تعالى اليسع صلّى الله عليه وسلّم مع أنّبيائه المفضَّلين على من سواهم من العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}20.

واليسع صلّى الله عليه وسلّم نبيا من سلالة أنبياء كرام جُعلت النبوّة فيهم ذرية بعضها من بعض، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}21، ولذلك كما كانت النبوّة في اليسع كانت من قبله في آبائه وذرّيّاتهم وإخوانهم صلّى الله عليهم وسلّم وهكذا هي من بعده، (وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي لقد كان الاجتباء والاصطفاء للأنبياء والرّسُل من ذرية آدم ومن بعده من ذرية نوح ثم من ذرية إبراهيم أبو الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وهكذا كان الاصطفاء والاختيار للأنبياء

19 قصص الأنبياء، 2 ص 252.

20 الأنعام 86 . 90.

21 آل عمران 34.

والرّسُل متداخل بين من جعل الله النبوّة فيهم من آدم إلى أن أتم الله دينه بالرّسالة الخاتمة على الرّسول الكافة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة) فالنبوّة هنا تعني أنّهم مؤتون الحكمة التي لا تكون إلّا من الحكيم المطلق، ولهذا فالنبوّة ليس علما يعلّم، ولكنّنا نبأ يتنزّل من حكيم عليم.

والحكيم هو "الذي يضع الأشياء في مواضعها، فيضع الفضل في أهل الطاعة، ويضع العذاب في أهل الكفر والمعاصي، هذا فضله سبحانه وعدله"22.

الحكيم: في أَسماء الله تعالى الحَكِيمُ وهو بمعنى الحاكِم وهو القاضي وهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها23.

الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، وهو الذي تستمد الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}24 وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ

---

[22] كتب العقيدة، ج 16، ص 31.

[23] لسان العرب، ج 12، ص 140

[24] النساء 82، 83.

سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[25]. إنه من الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره بحكمة، يفكر في وجوده ويتذكر ما مضى من حياته ويتساءل:

هل في الوجود ظلم؟ إذا كانت الإجابة بنعم. ألا ينبغي عليه أن يتساءل:

لم لا يقضى على الظلم؟ وعليه أن يتذكر أن ما يقع من ظلم على العباد شر ومفسدة ومهلكة تؤلم النّاس وتجعلهم في حاجة لمن يسندهم لإزالة الألم عنهم. ومن حقّه أن يتساءل:

لم لا يتوحد المظلومون ليزيحوا الظلم عنهم؟

وعليه أنّ لا يغفل عن التفكير في الظلم وما يتركه من مآسٍ وأن يفكر بروية في تساؤله:

ألا نتعرض يوما إلى هذا الظلم؟ وإذا تدبر هذا الأمر قد يطرح سؤالا:

ألا يكون من الأفضل أنّ نشارك من وقع عليهم الظلم في مقاومته قبل أن يصبح حالنا وأولادنا من بعدنا كحالهم. وإذا بلغ النتيجة الموجبة ألا يكون قد وصل إلى التي بعدها وهي إنه من الوجوب الحقّ إحقّاق الحقّ.

---

[25] محمّد 24 . 29.

وعليه من الحكمة أن نعرف أنّ الله واحد، وأنّ الحقّ واحد، وأنّ الظلم واحد فلا نغفل وعلينا أن نتبيّن ونسأل حتى بلوغ المعرفة التي بها يحقّ الحقّ ويزهق الباطل. وفي هذا الشأن يقول الشاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد[26]

وبناء على ذلك كن حكيما فيما تقول وتذكّر ما قلت حتى لا تضيع منك فرصة الاستغفار، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[27].

وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[28].

بناء على ما جاء في الآيات المتقدمة من سورتي الذاريات والغاشية فإنّ الحكمة مؤسسة على تدبر والتدبر مؤسّس على التذكر والتفكر، ولذا فإنّ أمر الحكمة يستوجب فطنة والفطنة تتطلب إيمانا لا مشاركة فيه، واتباع طاعة لا إكراه فيها.

الحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حقّ التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، ولذا

---

[26] تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

[27] الذاريات 55 . 60.

[28] الغاشية، 21 . 26.

فالحكيم يتصرف وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ.

الحكيم هو من يجازي المستغفرين بالتوبة والتائبين بالجنّة، وهو الذي يمهل ولا يهمل كبيرة ولا صغيرة حتى ولو كانت أقل من حبّة خردل قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[29].

والحكيم العليم هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا، له الحمد لقد ميزنا بحسن الخلق والتقويم وفضلنا على العالمين في استخلاف الأرض، وجعل لكلّ واحد منا خصوصية تميزه عن بقية بني جنسه وعلى هذه القاعدة جعل لكلّ نوع خصوصية وجعل داخل كل خصوصية خصوصية. ولذا فإنّنا نلحظ أن أجسام العالم متساوية في ماهية الجسمية، ومختلفة في الصفات، وهي الألوان والأمكنة والأحوال، ويستحيل أن يكون اختصاص كل جسم بصفته المعينة لأجل الجسمية أو لوازم الجسمية، وإلا لزم حصول الاستواء، فوجب أن يكون ذلك لتخصيص مخصص وتدبير مدبر، وذلك المخصص إن كان جسما عاد الكلام فيه، وإن لم يكن جسما فهو المطلوب، ثم ذلك الموجود إن لم يكن حيا عالما قادرا، بل كان تأثيره بالفيض والطبع عاد الإلزام في وجوب الاستواء، وإن كان حيا عالما قادرا فهو المطلوب، إذا عرفت هذا فقد ظهر أنّ كل واحد من ذرات

[29] لقمان 16 . 19.

السموات والأرض شاهد صادق، ومخبر ناطق، بوجود الإله القادر الحكيم العليم، وإن لله تعالى في كل جوهر فرد أنواع غير متناهية من الدلائل الدالة على القدرة والحكمة والرحمة، وذلك لأن كل جوهر فرد فإنّه يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل، ويمكن أيضا اتصافه بصفات غير على البدل، وكل واحد من تلك الأحوال المقدرة فإنه بتقدير الوقوع يدل على الافتقار إلى وجود الصانع الحكيم الرحيم، والعارفون المحقّقون لحظوا فيها مباحث عميقة، وأسرارا دقيقة،30 والله سبحانه وتعالى أَحْكَمُ الحاكِمينَ وهو الحَكِيمُ له الحُكْمُ سبحانه وتعالى "والحُكْمُ والحِكْمَةُ: العَدْلُ والحِلْمُ. والخليفة الحَكِيْمُ يَرُدُّ نَفْسَه عن هَواها. والحَكِيْمُ: المتَيَقِّظُ"31.

الحَكَمُ والحَكِيمُ والحاكِمُ من صفاته ومعاني هذه الأَسماء متقاربّة والله أعلم بما أَراد بها وعلينا الإِيمانُ بأَنها من أَسمائه والحَكَمُ والحَكِيمُ هما بمعنى الحاكِم وهو القاضي، وقيل: الحَكِيمُ ذو الحِكمة. وهي مصدر الحكمة، وبالتالي هي صفة من صفاته.

والحَكْمَةُ: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}32.

وعليه فانّ النبي اليسع عليه الصّلاة والسّلام هو من الأنبياء الكرام الأخيار الذين تصدروا مراتب الفضيلة العالية، وها نحن بصدد الكتاب عن صفاته الفاضلة التي بها تميَّز عن غيره كما غيره تميَّز بما

---

[30] تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

[31] المحيط في اللغة، ج 1، ص 175.

[32] البقرة 269.

هو فاضل، قال تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ}33، أي لم يكن هؤلاء هم الأخيار فقط، بل هؤلاء هم من الأخيار الأكارم، ولذلك نقول إنّ جميع الرّسُل هم أخيار ومن آمن بما جاءوا به هداية للحقّ هم أيضا من الأخيار.

والخيّر من النّاس من يفعل الخيرات ويكثر منها ويسارعون بها، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}34.

ولذا؛ فمن يجاهد بالخيرات الحِسان يكتبه الله مع المفلحين الصالحين، {لَكِنِ الرّسول وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}35.

ومن يجاهد بالخيرات في سبيل الله تُكتب له العزّة وتتحقّق له الرفعة التي لا تُستمد إلا من الرفيع جلّ جلاله الذي يمتلك القوّة الساندة والداعمة للحقّ، والقوّة مدد خير تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون أفعال خير وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

ولأنّ العزّة لله في ذاته وصفاته وملكوته وملكه، لذا يكون استمدادها خير لمن استمدها من القوي المتين، مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ العزّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}36؛

33 ص 48.

34 آل عمران 114.

35 التوبة 88.

36 المنافقون 8.

فلله العزّة يقول ابن منظور في لسان العربّ: "له القوّة والغلبة"[37]، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "نزلت هذه الآية بعد أن صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّرَ الخواطر؛ ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين وتبيَّن ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بنُ أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني: المهاجرين إلا كما قال القائل سمِّن كلبك يأكلك. وقال: لأن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ بزعمه أنه هو ومن معه من المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن تبعه هم الأذلُّون"[38].

لذا، جاءت العزّة خير مناصر لِمن هم على الحقّ وبه يهتدون، فبها يُعزَّز الحقّ ويمحقّ الباطل، وفي الآية السابقة يُضربّ المثل لذلك حيث عززت وظهرت الحقّيقة بصدق زيد بن أرقم، وكذب من حلفوا على صدقٍ وهم كاذبون، فزيد الذي كان على حقّ جاءته العزّة من الله تعالى تناصره، وعبد الله بن، أبي بنُ سلول جاءته الهزيمة نِتَاجَ كذبه ضعفا.

ف(لله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) عُرِضت مرتَّبة على ثلاثة أبعاد خير:

البعد الأوّل للخير: أنَّ العزّة لله، فهي تُستمد منه جلّ جلاله، فلو لم يكن هو العزيز ما كانت العزّة خير، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العزّة فَلِلَّهِ العزّة جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}[39]، من

---

[37] لسان العرب المحيط. ج 2، ص 764.

[38] عبد الرحمن ابن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، الرياض، دار ابن الجوزية، 1435 هجري 1027.

[39] فاطر 10.

كان يريد الشرف والمكانة العالية والخير الكثير فعليه أن يتوجه إلى مصدرها عزّ وجلّ، مثل ما قال أبو الأنبياء إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمع أنّ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ربّ هَبْ لِي حُكْمًا والحقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[40]، كل المطالبة الإبراهيمية هي لنيل العزّة والإمداد بالخير الرفيع ليكون عزيزا غير مهان في الدنيا والآخرة.

البعد الثاني للخير: العزّة للرسول صلّى الله عليه وسلّم، الذي اصطفاه الله وأعزّه بالكتاب مصدّقا لما بين يديه {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}[41]؛ فعزّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من عزة الله تعالى، ولذا فهو يمتلك القوّة من القوي عزّ وجلّ، والقوّة حُجّة خير، فكان الكتاب الرّسالة الخاتمة وهو مجمع الحُجَج الخيّرة الذي يهدي للتي هي أقوم.

والبعد الثالث للخير: العزّة للمؤمنين الذين آمنوا بالله وكتبه ورُسُله صلّى الله عليهم وسلّم. والمؤمنون هم الذين آمنوا، وبإيمانهم أعزوا الإسلام والرّسول فأعزهم الله خيرا بالإسلام وبالرّسول.

إنّما عزة الخير المتبادلة فمن ينصر الله ينصره الله بالقوّة التي هي المحقّق للخير الكثير، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[42]؛ فقوله: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) ليعزَّنَّ الله من يعزه أي لا نصر بدون عزة،

---

[40] الشعراء 78 ـ 83.

[41] آل عمران 3.

[42] الحج 40، 41.

ومن يعزّه الله تعالى ينتصر، ومن يذله يُهزم؛ فالذين يراد لهم أن يُستخلفوا في الأرض يُمكِّنهم الله فيها، ممّا يجعلهم يعزّون من الله بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليرثوا الجنّة من بعد أن ورثوا الأرض خلائف طائعين مهتدين بالأفعال الخيِّرات الحِسان.

وفي مقابل الأبعاد الثلاثة جاء الاستثناء للمنافقين حيث لا خير يأتي منهم وذلك لانعدام وجود الخيِّرين فيهم، بقوله تعالى: (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون العزّة لله وللرسول وللمؤمنين، ذلك باعتقادهم أن العزّة لهم بما يمتلكون، ولو تفكَّروا لعرفوا أن الملك لله تعالى، وهؤلاء ومن هم في حكمهم ليسوا بالمستخلفين في الأرض، حتى وإن توارثوا فيها وامتلكوا نصيبهم منها، فليس لهم في الآخرة من نصيب؛ فهم لم يرثوا الأرض ولن يرثوا الجنّة.

ومن ثمّ فالنبي اليسع عليه السّلام مهدى من قبّل ربّه تعالى الى الصراط المستقيم مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}[43]. ولأنّ الهادي لسيدنا اليسع صلّى الله عليه وسلّم هو الله عزّ وجلّ (وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكان اليسع مهديا بهدي ربّه جلّ جلاله، على الصراط الذي من هُدي عليه كان أسوة وقدوة حسنة لغيره من المؤمنين، ولأنّ هُدى الله وفقا لمشيئته كان اليسع مهديا في مشيئة الله أسوة حسنة لقومه فاهتدى منهم من اهتدى وضل من

[43] الأنعام 87، 88.

ضل، {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}44.

الهادي هو مغيّر الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، ومن يهديه الله تكون له الهداية صفة كما كانت لسيدنا اليسع الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم فكان رسول هاديا لقومه بالتي هي أحسن، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}45، ولذا فالهادي هو منزّل نصوص وحِكم وكَلِم الهداية لخلقه حتى لا يضلون {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}46 وإن ضل بعض منهم من بعد الاهتداء؛ فإن الهداية من ورائه تلاحقّه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب، وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هُدى، فهو المنزَّه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

ولأنّ الله خلق خلقا من خلقه وجبلهم على الطاعة، كما جبل سيدنا اليسع وغيره من الأنبياء والرّسُل الكرام على الهداية والطاعة؛ فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

---

44 الزخرف 40.

45 الإسراء 97.

46 الروم 53.

الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}47، فيسبح لله كلّ ما في السماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعًا وكرهًا، فهو (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولأنّ الهادي هو القدوس فهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون ويصفونه به ممّا ليس من صفاته وهو (الْعَزِيزِ) الشديد في انتقامه من أعدائه و(الْحَكِيم) في تدبيره لأمور خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

ومن هنا فالهادي هو الذي أرسل الرّسُل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}48، وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

ولذا جاء الدين الإسلامي العظيم للهداية والإصلاح حاكى عقول النّاس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدّي بمن يراها إلى عبادة الله وسلوك مسلك الحقّ وهذا النوع من الهدي موجّه للأنبياء والنّاس على السواء، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى

[47] الجمعة، 1.

[48] فصلت، 17.

وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}49 وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يوميا ولكي تكون مثل هذه الأشياء من الدلائل الهادية أنزلها الله في كتابه الحكيم (الرّسالة الخاتمة) اقتداء بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فإن الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}50 أي فأذكر يا محمّد قصة إبراهيم يوم قال لربّه: أرني بعيني كيف يكون إحياء الموتى، فقال له تعالى: أَوَلَمْ تؤمن بأني قادر على إحياء الموتى؟

قال: بلى، علمت وصدّقت، ولكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي.

ولأنّ اليسع رسول مُرسل من عند الله لهداية قومه للتي هي أحسن فقد كان مفضَّلا فيهم ومفضَّلا على العالمين، واجتباه الله برسالته الهادية بالحقّ للحقّ، ثم هداه إلى الصراط المستقيم، ثم بعد ذلك آتاه الله الكتاب رسالة تامة تبيّن الحقّوق والواجبات والمسؤوليات التي ينبغي أن يتم حملها من قبل الذين آمنوا مع اليسع صلّى الله عليه وسلّم.

والإيتاء لا يكون إيتاء إلا من عند الله تعالى، ولهذا فهو الذي يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء وأين يشاء، سبحانه إنه على كل شيء قدير.

ولأنّه لا مؤتي بالمطلق إلا الله المؤتي جلّ جلاله؛ فهو الذي آتى الكتاب ليسدنا اليسع وهو الذي آتي الكتب من عنده لمن

[49] البقرة 260.

[50] الذاريات 55.

اجتبى من الرّسُل وهو الذي يؤتي الملك لمن يشاء، وهو الذي يؤتي الحكم لمن يشاء متى ما شاء دون تقديم ولا تأخير، فكل شيء بيده يصدر بالأمر (كن).

ولأنّ مالك الملك هو الله فهو المؤتي للملك لمن يشاء كما شاء إيتائه لسيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}[51].

ولأنّ المؤتي يؤتي الملك من يشاء؛ فقد آتاه وفق مشيئته لسيدنا إبراهيم قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[52].

لقد بدأت هذه الآية الكريمة بفعل نستمد منه اسم فعل (المؤتي للحكمة) ولذلك نلاحظ أن المؤتي واحد وهو معرفة (المؤتي الله تعالى) وفي هذا المعنى جاءت الآية دالة على أن المؤتي للحكمة هو الله ومن يؤتيه الله الحكمة فقد آتاه المؤتي خيرا كثيرا، فنحن نقول (المؤتي) دليلا على أن الألف واللام من أصل الاسم ولا نقول: (مؤتي) فيكون منكّرا ونحن نعلم أن الله وأسمائه الحسنى لا تُنكر بل هي معرّفة على المطلق.

وعليه نتساءل:

آلا تكون الحكمة التي تؤتى معرّفة؟

آلا يكون المعرّف دالا على محدد بذاته أو بخاصيته أو جنسه ولا تعميم فيه؟

---

[51] البقرة 258.

[52] البقرة 269.

آلا يكون المعرَّف متخلصا من اللبس والغموض؟

لو كان الأمر كما سبق تبيانه في هذه التساؤلات، لكانت الحكمة واضحة وجلية، ونحن نقول:

الحكمة لا وضوح فيها، بل هي في حاجة للتوضيح، فأي حكمة هي؟

الحكمة تتعدد وليست واحدة وإن كان مفهومها دالا في ظاهره على معرَّف، فمن الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره وما يتعلق به، ولذا فإن التدبُّر من الحكمة، والتفكُّر من الحكمة، والصدق من الحكمة، والاستغفار من الحكمة، وحسن التصرف من الحكمة، والتزاوج من الحكمة، والطلاق من الحكمة، والتعاون من الحكمة، والعدل من الحكمة، والإيمان من الحكمة، والاعتماد على الله والنفس من الحكمة، وكذلك الأخذ بالحكمة من الحكمة. ولهذا نتساءل:

ما هي الحكمة التي تؤتى؟

هل هي الأخذ بالرأي أم عدم الأخذ به؟ أم شيئا آخر غير الأخذ وعدم الأخذ؟

من الحكمة لا يمكن لنا أن نقول:

1 . الأخذ بالرأي هو الحكمة، فمن يضمن أن الرأي كان على صواب؟

2 . وإن قلنا عدم الأخذ بالرأي هو الحكمة آلا يكون من الأفضل لنا بل ومن الحكمة أن نتعرَّف على مبررات من يقول لنا لا

تأخذوا بما سمعتم من رأي حتى نتبيَّن لكي نتمكَّن من اتخاذ قرار واع وسليم ومفيد.

3 . وقد يكون من الحكمة البحث عن مخرج ثالث لا يتعلق بالأخذ وعدم الأخذ.

ولذا فلوا كانت الحكمة عدم التعميم لكانت على تخصيص واحد، ولهذا نحن نعتقد أن الحكمة مُنكَّرة المعنى وليست معرَّفة بدلالة وخاصية معينة ولذلك فهي أحيان تكون تحت مظلة الامتناع وتارة تحت مظلة الموافقة وأخرى تحت مضلة أخرى.

الله الذي بيد الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليتصدَّق ويتزكَّى وينفق كل حسب استطاعته وما يملك من رزقٍ، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتي من عند الله فليتق الإنسان ربّه ولينفق ممّا آته من رزقه قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ ممّا آَتَاهُ اللَّهُ}[53].

وبدون شكّ أنّ المؤتي هو الله جلّ جلاله، ولهذا فالمؤتي أسم من أسمائه الحسنى لا ينبغي إهماله أو الإغفال عنه بحثا وكتابة وتدبرا وتعليلا. والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

[53] الطلاق 7.

اليسع

من وحي القرآن

اليسع صلّى الله عليه وسلّم نبي من أنبياء الله الذين أخصَّهم بالنبأ العظيم فأظهرهم على آيات من آياته العِظام وجعلهم على الاصطفاء والهداية لهداية من اجتباهم الله إليهم أنبياء كرام.

لقد فضَّل الله تعالى اليسع صلّى الله عليه وسلّم مع أنّبيائه المفضَّلين على من سواهم من العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}[54].

واليسع صلّى الله عليه وسلّم نبيا من سلالة أنبياء كرام جُعلت النبوّة فيهم ذرية بعضها من بعض، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[55]، ولذلك كما كانت النبوّة في اليسع كانت من قبله في آبائه وذرّيَّاتهم وإخوانهم صلّى الله عليهم وسلّم وهكذا هي من بعده، (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي لقد كان الاجتباء والاصطفاء للأنبياء والرّسُل

---

[54] الأنعام 86 . 90.

[55] آل عمران 34.

من ذرية آدم ومن بعده من ذرية نوح ثم من ذرية إبراهيم أبو الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم، وهكذا كان الاصطفاء والاختيار للأنبياء والرّسُل متداخل بين من جعل الله النبوّة فيهم من آدم إلى أن أتم الله دينه بالرّسالة الخاتمة على الرّسول الكافة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وعليه فقوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة) فالنبوّة هنا تعني أنّهم مؤتون الحكمة التي لا تكون إلّا من الحكيم المطلق، ولهذا فالنبوّة ليس علما يعلّم، ولكنّنا نبأ يتنزّل من حكيم عليم.

والحكيم هو "الذي يضع الأشياء في مواضعها، فيضع الفضل في أهل الطاعة، ويضع العذاب في أهل الكفر والمعاصي، هذا فضله سبحانه وعدله"56.

الحكيم: في أَسماء الله تعالى الحَكِيمُ وهو بمعنى الحاكِم وهو القاضي وهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها57.

الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته، وهو الذي تستمد الحكمة منه التي باستمدادها يصبح الإنسان خليفة، ولذلك فالخليفة الحكيم هو الخليفة المتدبر لأمره وأمر من له علاقة به، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرّسول وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

[56] كتب العقيدة، ج 16، ص 31.

[57] لسان العرب، ج 12، ص 140

قَلِيلًا}58 وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}59. إنه من الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره بحكمة، يفكر في وجوده ويتذكر ما مضى من حياته ويتساءل:

هل في الوجود ظلم؟ إذا كانت الإجابة بنعم. ألا ينبغي عليه أن يتساءل:

لم لا يقضى على الظلم؟ وعليه أن يتذكر أن ما يقع من ظلم على العباد شر ومفسدة ومهلكة تؤلم النّاس وتجعلهم في حاجة لمن يسندهم لإزالة الألم عنهم. ومن حقّه أن يتساءل:

لم لا يتوحد المظلومون ليزيحوا الظلم عنهم؟

وعليه أنّ لا يغفل عن التفكير في الظلم وما يتركه من مآسٍ وأن يفكر بروية في تساؤله:

ألا نتعرض يوما إلى هذا الظلم؟ وإذا تدبر هذا الأمر قد يطرح سؤالا:

ألا يكون من الأفضل أنّ نشارك من وقع عليهم الظلم في مقاومته قبل أن يصبح حالنا وأولادنا من بعدنا كحالهم. وإذا بلغ

---

[58] النساء 82، 83.

[59] محمّد 24 . 29.

النتيجة الموجبة ألا يكون قد وصل إلى التي بعدها وهي إنه من الوجوب الحقّ إحقّاق الحقّ.

وعليه من الحكمة أن نعرف أنّ الله واحد، وأنّ الحقّ واحد، وأنّ الظلم واحد فلا نغفل وعلينا أن نتبيَّن ونسأل حتى بلوغ المعرفة التي بها يحقّ الحقّ ويزهق الباطل. وفي هذا الشأن يقول الشاعر:

وفي كل شيء له آية ... تدلّ على أنّه واحد[60]

وبناء على ذلك كن حكيما فيما تقول وتذكر ما قلت حتى لا تضيع منك فرصة الاستغفار والذكر؛ فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[61].

وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[62].

بناء على ما جاء في الآيات المتقدمة من سورتي الذاريات والغاشية فإن الحكمة مؤسسة على تدبر والتدبر مؤسّس على التذكر والتفكر، ولذا فإنّ أمر الحكمة يستوجب فطنة والفطنة تتطلب إيمانا لا مشاركة فيه، واتباع طاعة لا إكراه فيها.

---

[60] تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

[61] الذاريات 55 . 60.

[62] الغاشية، 21 . 26

الحكيم هو من يعلم بحال الشيء ويملك حقّ التصرف وفقا لميزان العدل دون مظلمة أو ميل لأحد على حساب آخر، ولذا فالحكيم يتصرف وفقا للزمان والمكان والظرف دون مخافة أحد في سبيل قول الحقّ أو فعل الحقّ.

الحكيم هو من يجازي المستغفرين بالتوبة والتائبين بالجنّة، وهو الذي يمهل ولا يهمل كبيرة ولا صغيرة حتى ولو كانت أقل من حبّة خردل قال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[63].

والحكيم العليم هو الخبير بحالنا وأحوال غيرنا، له الحمد لقد ميزنا بحسن الخلق والتقويم وفضلنا على العالمين في استخلاف الأرض، وجعل لكلّ واحد منا خصوصية تميزه عن بقية بني جنسه وعلى هذه القاعدة جعل لكلّ نوع خصوصية وجعل داخل كل خصوصية خصوصية. ولذا فإنّنا نلاحظ أنّ أجسام العالم متساوية في ماهية الجسمية، ومختلفة في الصفات، وهي الألوان والأمكنة والأحوال، ويستحيل أن يكون اختصاص كل جسم بصفته المعينة لأجل الجسمية أو لوازم الجسمية، وإلا لزم حصول الاستواء، فوجب أن يكون ذلك لتخصيص مخصص وتدبير مدبر، وذلك المخصص إن كان جسما عاد الكلام فيه، وإن لم يكن جسما فهو المطلوب، ثم ذلك الموجود إن لم يكن حيا عالما قادرا، بل كان تأثيره بالفيض

---

[63] لقمان 16 . 19.

والطبع عاد الإلزام في وجوب الاستواء، وإن كان حيا عالما قادرا فهو المطلوب، إذا عرفت هذا فقد ظهر أّن كل واحد من ذرات السموات والأرض شاهد صادق، ومخبر ناطق، بوجود الإله القادر الحكيم العليم، وإن لله تعالى في كل جوهر فرد أنواع غير متناهية من الدلائل الدالة على القدرة والحكمة والرحمة، وذلك لأنّ كل جوهر فرد فإنّه يمكن وقوعه في أحياز غير متناهية على البدل، ويمكن أيضا اتصافه بصفات غير على البدل، وكل واحد من تلك الأحوال المقدرة فإنه بتقدير الوقوع يدل على الافتقار إلى وجود الصانع الحكيم الرحيم، والعارفون المحقّقون لحظوا فيها مباحث عميقة، وأسرارا دقيقة،64 والله سبحانه وتعالى أَحْكَمُ الحاكمِينَ وهو الحَكِيمُ له الحُكْمُ سبحانه وتعالى "والحُكْمُ والحِكْمَةُ: العَدْلُ والحِلْمُ. والخليفة الحَكِيْمُ يَرُدُّ نَفْسَه عن هَواها. والحَكِيْمُ: المتَيَقِّظُ"65.

الحَكَمُ والحَكِيمُ والحاكِمُ من صفاته ومعاني هذه الأَسماء متقاربّة والله أعلم بما أَراد بها وعلينا الإيمانُ بأَنّها من أَسمائه والحَكَمُ والحَكِيمُ هما بمعنى الحاكِم وهو القاضي، وقيل: الحَكِيمُ ذو الحِكمة. وهي مصدر الحكمة، وبالتالي هي صفة من صفاته.

والحَكْمَةُ: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمنْ يُحْسِنُ دقائق الصِّناعات ويُتقنها حَكِيمٌ، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}66.

64 تفسير الرازي، ج 1، ص 7.

65 المحيط في اللغة، ج 1، ص 175.

66 البقرة 269.

والحَكِيمُ العالِم، قال الله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقوّة وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صبيا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ ربّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ ربّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا}67. كانت حكمة يحي عليه الصّلاة والسّلام هي:

1 . أعطاه الكتاب المليء بالحكم.

2 . وهب له الحنان الذي فاض به على من له علاقة به.

3 . من الحكمة أنه كان تقيا.

4 . من الحكمة أنه كان بارا بوالديه.

5 .كان طائعا لله ولوالديه في غير معصية.

6 . لم يكن جبارا.

7 .كان مؤمنا ولم يكن عصيا.

[67] مريم 12 . 25.

8 ـ كان مرضيا عنه حتى نال سلام الله عليه ومباركته له في ثلاثة مباركات:

أ ـ مباركة وسلام عليه يوم ميلاده.

ب ـ مباركة وسلام عليه يوم موته.

ج ـ مباركة وسلام عليه يوم بعثه.

ومثل هذه المباركات تعددت المباركات في هذه السورة لمريم عليها الصّلاة والسّلام، وكذلك كانت المباركات تتعدد لجميع الأنبياء والرّسُل الذين اختتموا المهمة برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام الذي بعث للكافة.

وفي بعثة محمّد عليه الصّلاة والسّلام للناس كافة حِكم:

1 ـ التأكيد على إنّ الله واحد.

2 ـ التأكيد على أنّ الدّين من عند الواحد واحد.

3 ـ التأكيد على إنّ الرّسُل كلهم واحد ولا فرق بينهم ولا يجب التفريق، مصداقا لقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}68.

وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}69.

ولأن الحكمة تستمد من الحكيم، فهي تؤتى لمن يشاء من حكيم عليم قال تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}70. الحديث المحمول في الآيات الكريمة السابقة محمول

[68] البقرة 135 . 140.

[69] آل عمران 84 . 91.

[70] ص، 17 . 20.

في مضمون موجه للخليفة ليكون على صبر ولا يخاف، ويتقي الله ربّه فيما يقول وفيما يعمل ويفعل، فما يقال من الحاسدين والمرتدين والضالين لا يؤتي ثماره في شيء وفي قصة سيدنا داوود عليه الصّلاة والسّلام مواعظ كثيرة فقد أعطاه الحكيم الحكم بأسباب صبره على ما يقولون ولذا يجب على الخليفة أن يصبر على ما يقولون فإنّ الله معه مادام على الحقّ اليقين. قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}71.

والحِكْمَةُ: العدل، وهو ما يجب أن يكون عليه الخليفة بالشكّر والحمد لأنعم الله، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشكّرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشكّرْ فَإِنَّمَا يَشكّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}72. ما أجمل الحكمة أن تكون بأسباب الشكّر، وما أجمل الشكّر أن يقال لأهل الفضل، وما أجمل الفضل أن يكون في أهله.

وعليه الحكمة لا تستمد إلا من حكيم عليم، يعلم بالأمر وبحاله وبما يجب أن يكون عليه قبل أن يكون، ولذا فالحكيم مصدر لكل معاني الحكمة ودلائلها التي بها يتم الاتعاظ وأخذ ما يجب أخذه وترك ما ينبغي تركه في المكان والزمان المناسبين. إنه من يعلم الأمور وأحوالها ويخبر الكيفية التي يجب أن يتم التعامل بها ويهدي إليها.

الحكيم هو من وضع الموازين لما ينبغي أن يقال ويدرك ويؤخذ به ويفعل بكل تفهُّم، وبهذا تكون الحكمة تقنينا للكلمة والجملة كي لا تخرج عن السيطرة المنطقية التي بها تعقل الحقّائق وتدرك وتتهيأ

71 النحل 127، 128.

72 لقمان 12.

للامتداد من عقل لعقل وهي تاركة الأثر الطيب الذي يولد المعلومة من المعلومة ويرشد للحقّ.

والحكمة التي تستمد من الحكيم هي تضمين لما يُفيد بما يفيد به، وذلك لأخذ العبر التي تسهم في صناعة تاريخ الخليفة بالمعلومة المركزة في المحتوى الذي يحمله التعبير المنطوق لأجل تفطين العقل من الغفلة وتنويره بما يضيء دربّ الخليفة في إصلاح الأرض وإعمارها بما ينبغي أن تعمر به.

وعندما تقال الحكمة قد يظهر الاستغراب لدى البعض وقد يحدث الاستفهام ويطرح التساؤل وكأنّها تحمل المفاجأة لأول مرة وبهذا يتم اقتباس الحكمة من قائلها ويهتدى بها في صناعة المستقبل.

الحكمة تستوقف العقل لتمده بما يدرك الحقّيقة دون تغليف وهي تظهر الدلالة في المعنى وتفتح الآفاق أمام امتداد الفكرة من عقل لعقل.

والحكيم المطلق جلّ جلاله جعل في كل آية من آياته الكريمة حكمة تحتوي الإعجاز فيها حتى تستوقف العقل وتلفته لما كان غافلا عنه في الوقت الذي لم يكن يعتقد أن الأمر كان كذلك، ومن كل حكمة من حكم الحكيم المطلق تؤخذ حكم تغذي العقل وتطمئن النفس وتحفِّز الخليفة على الإقدام تجاه ما يحقّق له الأمل. إنّها المرشد للحقّ والناهي عن الظلال والموقظ من الغفلة.

والحكيم بالإضافة هو من يستمد حكمته من الحكيم المطلق، ويبقيها حية بالمعلومة في المنازل بين الأسر وفي المدارس والجامعات بين التلاميذ والطلبة ويبقيها آية بين الجيران أقاربّ وأباعد، وبين من

تربّطهم به علاقات دم وعرف ودين ومكان وزمان بين المشارق والمغاربّ وأثناء الحركة والسكون.

ولهذا فالأب الحكيم يكون طائعا لوالديه في غير معصية الله، ويكون راعيا لأبنائه وراشدا لهم حتى الهداية التي تمدهم بالتقوى وتعزهم بالطاعة لله تعالى، وتقوي لحمتهم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل. والمدرس الحكيم هو من يشد المتعلمين إلى الدرس الذي يقدمه لهم حتى يتمكنوا من الوقوف على الحقّيقة التي يود توصيلها إليهم، والطالب الحكيم هو من لا يغفل أثناء الدرس، والمربّي الحكيم هم من يوعظ بالحكمة، والمتربّي الحكيم هو من يتعظ بها.

ومن حِكم الحكيم المطلق ما هو معلوم وما هو مجهول، فالمعلوم منها هو المحمول في الآيات الكريمة في الكتاب الذي لا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه. والمجهول منها هو ما نستدل عليه استدلالا بالفعل لا بالكلمة، فنحن بنو آدم لا نعلم لماذا علم أبانا الأسماء كلها واستخلفه في الأرض ولم يعلمها للملائكة الكرام ويستخلفهم في الأرض؟ ألا يكون في ذلك حكمة لا يعلمها إلا هو جلّ جلاله؟

ونحن ننتقل من حكمة لحكمة نستدل على أن خلق الإنسان من تراب حكمة، وفي هذه الحكمة إثبات لقوّة الأمر كن فكان أبونا آدم من التراب على أحسن التقويم حكمة، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ}73، وقال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}74.

أما الحكمة من خلق الإنسان في الأرحام تُبرهن على أن من خُلق من تراب في خلقه حكمة الاستكثار للنوع الذي به يتم الاستخلاف في الأرض، وبه تترسَّخ عاطفة الأبوة والأمومة لتكون الطاعة فضيلة بين النّاس لطاعة الله وحده لا شريك له وهو الخالق من التراب وطاعة الوالدين في غير معصية الله طاعة حقّ. قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}75، وقال تعالى: وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكّرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

---

73 آل عمران 59.

74 الكهف 37.

75 الإسراء 23، 24.

فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}76.

وعليه فالحكمة تؤخذ بأحد أربّع أو ببعضها أو بها:

1 . بالقول تعطى الحُجّة فتؤخذ. قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}77، وقال تعالى: {قَالَ فَمَنْ ربّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ ربّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}78.

2 . بالفعل تترسَّخ الحكمة فتُدرك. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}79.

وقال تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ}80.

3 . بالعمل تتجسد الحكمة فتُرى. قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}81.

---

[76] لقمان 14 . 19.

[77] النساء 165، 166.

[78] طه، 49، 50.

[79] المؤمنون 1 . 4.

[80] الأنبياء 73.

[81] التوبة 105، 106.

وقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}[82].

4 . بالسلوك تمتد الحكمة فتكون القدوة. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آَبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[83].

وقال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}[84].

بناء على ما تقدم فإن الحكيم لا يعاقب إلا عن حكمة، ولا يجازي إلا عن حكمة، ولا يغفر إلا عن حكمة، ولا يتوب على أحد إلا عن حكمة، ولهذا جاءت من وراء الزكاة حكمة ومن وراء الصلاة حكمة ومن وراء الصوم حكمة ومن وراء الحج حكمة ومن وراء الجهاد حكمة. ولذا فالتسيير والتخيير حكمة. اللهم إنك تؤتي الحكمة من تشاء فأتِ لنا الحكمة فإنك من تؤتيه الحكمة فقد آتيته

---

[82] الأنعام 54، 55.

[83] الزخرف 23 . 25.

[84] الجن 26 . 28.

خيرا كثيرا، {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[85].

الحكمة في نيل العلم الذي يمنع عن ارتكاب الباطل، فالحكمة هي العلم بحقّائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها قال تعالى: {ولقد آتينا لقمان الحكمة}[86]. فالمراد به حُجّة العقل على وفق أحكام الشريعة، وقيل: الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعمل، فالحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام.

وقد تعني الحكمة الحِلم: وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وبذلك يكون في مضمون الحكمة رحمة.

وتكون بمعنى (النبوّة) والرّسالة في قوله تعالى: {ويعلمه الكتاب والحكمة}[87]. وقوله تعالى: {وآتاه الله الملك والحكمة}[88]، وقوله تعالى: {وآتيناه الحكمة}[89]. فمن هذه الآيات الكريمة عرف الخليفة أنّ الحكمة تُعلم فيعمل على تعليمها لبنيه ويبشر بها حتى الهداية، وهي أيضا تؤتى من حكيم خبير.

والحكمة أيضا تأتي بمعنى القرآن والتوراة والإنجيل، وذلك كما في قوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا}[90]؛ لتضمن كل منها الحكمة المنطوق بها وهي أسرار الحقّيقة الإلهية، فالمراد به تأويل القرآن وإصابة القول فيه.

---

[85] البقرة 269.

[86] لقمان 31.

[87] آل عمران 48.

[88] البقرة 251.

[89] ص 20.

[90] البقرة 269.

ولا يكون الوصول للحكمة إلا بأمور منها:

الأوّل: التفكر في عظمة الله تعالى، وجلاله، وجبروته، وملكوته، وآياته في سماواته وأرضه وهو أرفع أنواع التفكير وأجلها.

الثاني: التفكير بالقلب عند الأمر والنهي، فيمتثل ما أمر به، ويترك ما نهى عنه، ويقف عما أشكّل عليه وهو دأب الخلفاء في أرضه. ويجعل نصب عينيه قول الشاعر الحكيم:

عجبت من ربّي وربّي حكيم ... أن يَحرِمِ العاقل فضل النعيمْ91.

الثالث: التذكر الذي يربّط الحاضر بالماضي حتى تستمد العبر من قصص الأولين وتجاربهم في الحياة.

والحكيم المطلق هو الله جل في علاه ولذلك لما نفت الملائكة العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه، قال تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}92، وأردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين وأصل الحكمة المنع عن الاعوجاج.

فمعنى الحكيم ذو الحكمة، وقيل: المحكم لمبدعاته، وهو على الأول صفة ذات، وعلى الثاني صفة فعل، والمشهور أنه إن أريد به العليم كان من صفات الذات أو الفاعل لِمَا لا اعتراض عليه كان من صفات الفعل. وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم {فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}93 (سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَا) في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ

---

91 معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ج 1، ص 52.

92 البقرة 32.

93 البقرة 31.

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[94]؛ إذن في اصطفاء آدم حكمة، وفي تعليمه الأسماء كلها حكمة، والأسماء كلها تعني: علّمه الأسرار التي هي جزء من غيبه عزّ وجلّ، فبعد أن خصَّ آدم بها أصبحت بالنسبة لآدم لم تعد في علم الغيب، أما بالنسبة للملائكة فهي علم غيب إلى أن أعلم آدم بها، ولهذا فالقدرة على الإبداء حكمة والقدرة على الكتمان حكمة، وعلمنا بأنه يعلم ما كانوا يبدون وما كانوا يكتمون حكمة، وعلمنا بأنه علام الغيوب التي لا نعلمها حكمة، وكذلك عدم علمنا بعلم الغيب حكمة.

ويأتي اسم الحكيم مقترنا مع أسمائه الأخرى من باب التناسب كما في قوله تعالى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[95]، فإنّ قوله: (وإن تغفر لهم) إذا أمعن النظر علم أنه يجب أن تكون ما عليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحقّ العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، فهو العزيز

---

[94] البقرة 30 . 33.

[95] المائدة 118 . 120.

لأنّ العزيز في صفات الله هو الغالب من قولهم: عزّه إذا غلبه، ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا، لأن الحكيم من يضع الشيء في محله، والله تعالى كذلك إلا أنه قد يخفي وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي وإن تغفر لهم مع استحقّاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته[96]. ولأنّ الأفضال من الله تعالى نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالى يفضل لا محالة لأنّ الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة وهو كالإنعام في وجوب الشكّر عليه، وأصله الزيادة في الإحسان والتفضل التخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وله ألا يوليه، والله تعالى متفضل بكل نفع يعطيه إياه من ثواب وغيره، فإن قلت: الثواب واجب من جهة أنه جزاء على الطاعة فكيف يجوز ألا يفعله؟

فقوله: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) في هذه الآية الكريمة حِكم منها:

إيمان عيسى عليه الصّلاة والسّلام بربّ العزّة إيمانا مطلقا جعله يظهر ما هو يبطن بأمر التسليم وهو اعتراف بأنّه لم يتدخل وذلك لعدم إمكانية التدخل فيما يريده الله أن يكون أو يحدث، وفي هذا الاعتراف الإيماني تظهر حكمة التسليم بالمشيئة.

الحكمة الأخرى ألا يتم التدخل في علم الغيب فهذا الأمر يستوجب التسليم فكان عيسى عليه الصّلاة والسّلام مسلم بالمطلق وذلك اعترافا بعدم الاختصاص.

[96] الإيضاح في علوم البلاغة، ج 1، ص 112.

الحكمة الأخرى أيضا: اتقاء عيسى عليه الصّلاة والسّلام ربّه عزّ وجلّ، بإظهار مخافته واتقائه فيما يريد أن يفعل وذلك لأن أمر التقدير لله تعالى وليس لعيسى عليه الصّلاة والسّلام.

جاءت في الآية السابقة كلمة (إن) وهذه احتمالية الدلالة في تقديرين:

التقدير الأوّل: إنّ عيسى عليه الصّلاة والسّلام يؤكد يقينا بأنّ الأمر لم يكن بيده، وتظهر يقينا عدم علمه بما يجب أن يكون.

التقدير الثاني: يظهر يقينا لا ظنّا ولا شكّا فيه بأنّ أمر العلم بيد الله وأمر القرار فيما يخص العذاب المقصود في الآية السابقة هو قرار الله، وفي هذا الاتقاء حكمة الإيمان.

والحكمة التي تستوجب من الخليفة الأخذ بها هي ألا يصدر حكما مطلقا فيما لا يعلم، فإن أصدر حكما محتملا فيما لا يقين له فيه كان على يقين، وإن أصدر حكما يقينا فيما لا يعلم يقينا كان على غير اليقين.

وفي الفروق اللغوية هناك تفريق بين لفظة الحكيم والعالم: فمعنى الحكيم يأتي على ثلاثة أوجه:

أحدهما: بمعنى المحكم مثل البديع بمعنى المبدع والسميع بمعنى المسمع.

والثاني: بمعنى محكم وفي القرآن الكريم: {فيها يفرق كل أمر حكيم}97 أي محكم، وإذا وصف الله تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك من صفات فعله.

والثالث: الحكيم بمعنى العالم بأحكام الأمور فالصفة به أخص من الصفة بعالم، وإذا وصف الله به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته98.

وعلى الإنسان أن يحمل هذه الصفة ولا يستطيع حملها إلا من كان أهلا للخلافة، ولما كانت الحكمة مشتملة على الخير والبركة فلا يعطي الله الحكمة إلا لخلفائه فعليه أن يبنى أحكامه وأفعاله على أصول العدل ذاهبا على أن الصانع حكيم تعالى جل في علاه لا يكون في أفعاله عبث جلّ جلاله بل يقدس وكل فعله حكمة وصواب مفعول لغرض صحيح، لأنّ الله جلّ جلاله ما خلق الإنسان إلا لغرض الطاعة في توحيده والإيمان بما أمر ونهى والإصلاح والفلاح والإحسان في الأرض، وحين ركب فيه الشهوة الحاملة على فعل ما يجب تركه والنفرة الحاملة على ترك ما يجب فعله وأودع عقله المضادة لحكميهما حتى تنازعته أيدي الدواعي والصوارف فوقفت به حيث الحيرة لا متقدم له عنه ولا متأخر تحمله الحيرة على ما لا يورثه إلا العناء إذا اتبع العقل وقع من النفس المشتهية النافرة في عناء، وإذا اتبع النفس وقع من العقل الناهي الآمر في عناء لا مخلص هناك ممّا أوقعه في ورطة تلك الحيرة سفها ولا عبثا {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا}99؛ وإنما فعل

97 الدخان 4.

98 الفروق اللغوية، ج 1، ص 195.

99 الإسراء 43.

ذلك لغرض الإحسان وهو التكليف ليتمكن من اكتساب ما لا يحسن فعله في حقّه ابتداء من التعظيم العظيم مع الدوام في ضمن التمتيع من أنواع المشتهيات بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال أحد من نعم لا يشوبها منغص ما، فيكتسبه إن شاء لا بالقسر، ولذلك وضع زمام الاختيار في يده ممكنا إياه من فعل الطاعة والمعصية مريدا منه أن يختار ما يثمر له تلك السعادة الأبدية مزيحا في ذلك جميع علله. وهو العالم بالذات الذي لا يخفي عليه خافية يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون قائلا خلق الله الخلق لعبدوه ولعلهم يتقون، وعليه قول ربّ العزّة علام الغيوب: {يَا أَيُّهَا النّاس اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}100. إذا رأيت عاقلا قد أحسن إلى إنسان ثمّ آذاه ذلك أنّه قد أحسن إليه ليؤذيه ومن ذلك قوله علت كلمته {فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}101.

والله تعالى قادر بحكمته أن يغير سلوك الإنسان من سلوك مشين إلى طريق حسن قويم ولنأخذ من المجتمع العربيّ مثلا فقد كَانَتْ العربّ قبل الإسلام فِي جاهليتها عَلَى إرثٍ من إرث آبائهم فِي لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقَرابينهم، فلما جاءَ الله جلّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوالٌ، ونُسِخَت دِيانات، وأبطلت أمورٌ، ونُقِلت من اللغة ألفاظ من مواضعَ إِلَى مواضع أُخَر بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت. فَعفي الآخرُ الأوّلَ، وشُغِل القوم بعد التّجارات وتَطَلُّب الأربّاح والكدْح للمعاش فِي رحلة الشتاء

100 البقرة 21.

101 القصص 8. مفتاح العلوم، ج 1، ص 168.

والصَّيف، وبعد الأغرام بالصَّيْد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بَيْنَ يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وبالتَّفقُّه فِي دين الله عزّ وجلّ، وحفظ سنن رسول الله صلّى الله تعالى عَلَيْهِ وسلّم، مع اجتهادهم فِي مجاهدة أعداء الإسلام. فصار الَّذِي نشأ عَلَيْهِ آباؤهم ونشأوا عَلَيْهِ كَأَن لَمْ يكن وحتى تكلَّموا فِي دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دُوّن وحُفِظ حَتَّى الآن. فصاروا - بعدما ذكرناه - إِلَى أن يُسأل خليفة من خلفائه وإمامٌ من الأئمة وهو يخطب عَلَى منبره عن فريضة فَيُفْتي ويَحْسُبُ وعلى سرعة وبداهة حاضرة. مثلما حدث مع عليّ رضي الله عنه حين سُئل عن ابنتين وأبوين وامرأة: "صار ثُمْنُها تُسعا" فسميت: المنبريَّة102. وغيرها ممّا هو أغْمَضُ وأدقُّ. فسبحان من نقل أولئك فِي الزمن القريب بتوقيفه، عمّا ألفوه ونشأوا عَلَيْهِ وغذوا بِهِ، إلى مثل هَذَا الَّذِي ذكرناه. وكلّ ذَلِكَ دليل عَلَى حقّ الإيمان وصحة نُبوة نبيّنا محمّد صلّى الله تعالى عليه وسلّم وعمله بشروط الخلافة بصدق النية وجدية العمل. وأنَّ العربّ إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان هو التصديق. ثُمَّ زادت الشريعة شرائطَ وأوصافا بِهَا سُمِيَ المؤمن بالإطلاق مؤمنا وفي هذه حِكم تستوجب الوقوف عندها والأخذ بها. وكذلك الإسلام والمسلم، إنّما عَرَفت منه إسلامَ الشيء ثُمَّ جاء فِي الشَّرع من أوصافه مَا جاء وفي هذه حكم. وكذلك كَانَتْ لا تعرف من الكُفر إلاَّ الغِطاء والسِّتْر. فأما المنافق فاسمٌ جاء بِهِ الإسلام لقوم أَبْطنوا غير مَا أظهروه، وَكَانَ الأصل من نافقاء اليَربّوع. وَلَمْ يعرفوا فِي الفِسْق إلاَّ قولهم: "فَسَقَتِ الرُّطبة" إِذَا خرجت من

[102] الصاحبي في فقه اللغة، ج 1، ص 14.

قِشرها، وجاء الشرع بأن الفِسق الأفحاش فِي الخروج عن طاعة الله جلّ ثناؤه. ومِمّا جاء فِي الشرع الصلاة وأصله فِي لغتهم: الدُّعاء. وَقَدْ كانوا عَرفوا الركوعَ والسجودَ، وإن لَمْ يكن عَلَى هَذِهِ الهيئة، وهذا وإن كَانَ فإن العربّ لَمْ تعرِفه بمثل مَا أتَت بِهِ الشريعة من الأعداد والمواقيت والتَّحريم للصلاة، والتَّحليل منها. وكذلك الصيام أصله عندهم الإمساكُ، ثم زادت الشريعة النِّية، وحَظَرَت الأكلَ والمباشَرَة وغير ذَلِكَ من شرائع الصوم. وكذلك الحَجُّ، لَمْ يكن عندهم فِيهِ غير القصد، وسَبْر الجِراح. ثم زادت الشريعة مَا زادته من شرائط الحج وشعائره. وكذلك الزّكاة، لَمْ تكن العربّ تعرفها إلاَّ من ناحية النَّماءِ، وزاد الشرع مَا زاده فِيهَا. وَعَلَى هَذَا سائر مَا تركنا ذِكرَه من العُمْرة والجهاد وسائر أبواب الفِقه[103].

ولما كان جلّ جلاله قادرا على تغيير سلوك الإنسان فإن قدرته على توجيه سلوك الجمادات والحيوانات من باب أولى لأنه أسهل وأخف إذ العناد من طبيعة البشر فقد جعلها جلّ جلاله تسبح بحمده دونما نعلم بذلك، قال الله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[104] الحِكم التي لا نعلمها في هذه الآية الكريمة بالرغم من إعلامنا بأنها تسبح هي حكم تفوق تقديراتنا العقلية وذلك بأسباب معرفتنا التامة بأن الجماد ساكن لا يأكل ولا يشربّ ولا يسرق ولا يكذب كما يسرق البعض من الذين يتحركون ويجوعون ويأكلون من بني آدم الذين أصطفي الله الرّسُل منهم وجعلهم خلائف الأرض وجعلهم الوارثين، كل ما خلق اللهُ يسبّحُ

[103] الصاحبي في فقه اللغة، ج 1، ص 15.

[104] الإسراء 44.

بحمده، وإنَّ صَرِيرَ السَّقْف وصرير الباب من التسبيح، أقول إنه من الحكمة أن نسلم طائعين لله فيما قال ونحن واثقون بأنها تسبح مع أنّنا لا نفقه ولا نسمع ولا نشاهد ما يدل على ذلك وهذا لا يعني أنّها لا تسبح ولكنه يعني الإيمان التام بقوله تعالى: { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[105] وقال تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ربّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ربّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ربّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[106].

(ولكن لا تفقهون تسبيحهم)، هذه حكمة من حكيم خبير بحالنا وما نحن عليه فجاء التقدير التام لما نحن عليه من عدم مقدرة على معرفة الكيفية التي بها تسبح الجبال والأنهار والبرق والرعد والطير والنبات وكل شيء مخلوق هو يسبح بحمد ربّه تعالى ونحن لا نفقه التسبيح، والتفقه هو بلوغ الأسرار التي عليها حالة المسبح بحمده من غير المستخلفين فيها.

---

[105] النور 51 . 53.

[106] البقرة 285، 286.

وقوله تعالى: (وإنْ مِنْ شيء إلا يسبِّحُ بحمده)، أي ما من شيء إلا وفيه دليل أن الله عز جلّ خالقه، وأنَّ خالِقه حكيمٌ مُبَرًّأٌ من الأسواء، ولكنّكم لا تفقهون تسبيحه وذلك لعدم كمالكم وهذه حقّيقة ندركها ونؤمن بها بأنّه لا كمال إلا لله تعالى، وغيره منقوص حتى وإن خلق في أحسن تقويم وهذه حكمة والحمد لله ربّ العالمين.

وعليه أتساءل:

هل يمكن لمخلوق أن يسبح بحمد خالقه لو لم يكن يدركه؟

وبما أن التسبيح دليل اعتراف وطاعة ألا يكون المتعرف والطائع في غاية الإيمان؟

وإذا كان في غاية الإيمان ألا يكون للمؤمن أن يسبح ويجل ويعز من آمن به؟

وبما أنّنا لا نفقه تسبيح غيرنا من المخلوقات ألا يكون هذا دليل إثبات أن غيرنا لا يفقه تسبيحنا؟

وإذا كان الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال نحن بدون أي استغراب لن نفقه تسبيح من لا يفقه تسبيحنا. ولنا من باب الحكمة أن نقول اعترافا وإثباتا علميا: إن الأرض تتحرك بسرعة معلومة ونحن لا يمكن لنا الإحساس بحركتها ولو لم يثبت العلم ذلك يقينا لكانت الحالة في تشابه مع عدم معرفتنا بتسبيح ما لا نفقه تسبيحه. ولأنه جلّ جلاله خلقنا في أحسن تقوم فنحن المعنيون بالحكمة التي بها ندرك بمقارنة عقلية ما جاء إعجازا في القرآن الكريم، ولذا فنحن بأمهات عقولنا ندرك حقّيقة أنها تسبح وندرك حقّيقة أننا لا نفقه تسبيحها.

فالله تعالى {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحقّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}107، فهو عالم ما تعاينون أيها النّاس، فتشاهدونه، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه (وهو الحكيم)، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب. قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}108.

ولأنّه تعالى لم يخلق أكرم من الإنسان على وجه الأرض وجعله خليفة ليس للفساد ويعاقب كل من يفسد فيها وأنّ هذا العقاب ليس عبثا وفي ذات الوقت ليس محتاجا إلى عقابنا أو ثوابنا إلا لأنه كرمنا بأنّ فضلنا على كثير ممّن خلق تفضيلا وقد خلق الخليفة في أحسن تقويم حتى إنّ الملائكة تساءلت: هل هناك من هو أكرم منها؟ وظنت أنها تعلم كل ما يدور حولها، وأنّه مهما خلق فلن يخلق من هو أكرم أو أعلم منها، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}109، وكانت الدهشة والتسليم الفوري بأن قالت: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}110، فرد الله تعالى عليهم: {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ

---

107 الأنعام 73.

108 البقرة 28.

109 البقرة 30.

110 البقرة 31.

بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}111.

{أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}112. قال: أمّا ما أبدَوْا فقولهم: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}113، وأمَّا ما كتموا فقول بعضهم لبعض: (نحن خير منه وأعلم). وفي قوله: (إني جاعل في الأرض خليفةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)، من هذه الآية نعلم أن من لا يعلم بالشيء بالرغم من وجوده يظن أنه غير موجود أو أنّه موجود وليس على الحالة التي تقال عنه وهذا أمر جهل بالحقّيقة التي عليها حالة الشيء، وخير مثال ما كان يجهله الملائكة عن خلق الإنسان وتفضيل الحكيم له على كلّ ما خلق، وبعد أن علم الملائكة الصديقون سجدوا اعترافا بالحقّيقة بعد معرفتها وطاعة لله وأمره لهم بالسجود.

وبهذا ظهر لهم علوه المطلق بغلبته وقهره وعلمه وحكمته فهو الغالب عباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا

---

111 البقرة 33.

112 البقرة 33، 34.

113 البقرة 30.

تُشْرِكُونَ}114. أي الله الغالب عبادَه بما لا يستطيعوا بلوغه ومعرفته، وفي هذه المغالبة حكمة تظهر القدرة الكمالية لدى الخالق وتظهر القصور لدى المخلوق، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه وهو الحكيم في علِّوه على عباده، ومن لا يرى في ذلك حكمة فليظهر غير ذلك لتكون له حكمة، ولأنّ هذا الأمر خارج دائرة الممكن بالنسبة للمخلوق فإن أمر بلوغه غير ممكن، والله تعالى خبير بحالهم وبكل حال فكان القاهر فوقهم بحكمته وخبرته وعلمه وخلقه وواحديته جلّ جلاله، إنّه مالك الملك والأمر بما فيه من قوّة وهيمنة وعزة ورحمة ومغفرة وتوبة سبحانه لا إله إلا هو.

فقد خلق الإنسان وصوره في الرحم كيفما شاء دون تدخل من أحد في ربّوبيته فهو الذي يدبر خلقه بعدله كيف يشاء دونما شريك أو نديد، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}115، فهو يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد (لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي: هو الذي خلق، وهو المستحقّ للألوهية وحده لا شريك له، وله العزّة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله تعالى صوره في الرحم وخلقه، كما يشاء، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ

114 الأنعام 18، 19.

115 آل عمران 6.

الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}116 في هذا القول تنزيه من الله تعالى ذكره لنفسَه أن يكون له في ربّوبيته ندّ أو مِثل، أو أن تَجوز الألوهة لغيره، ولجميع من ادّعى مع الله معبودًا، أو أقرّ بربّوبية غيره. ثم أخبر جل ثناؤه خلقه بصفته، وعيدًا منه لمن عبد غيره، أو أشرك في عبادته أحدًا سواه، فهو العزيز الذي لا ينصر من أرادَ الانتقام منه أحدٌ، ولا ينجيه منه وَأْلٌ ولا ملَجَأٌ، وذلك لعزته التي يذلُّ لها كل مخلوق، ويخضع لها كل موجود والحكيم في تدبيره وإعذاره إلى خلقه، ومتابعة حججه عليهم، ليهلك من هلك منهم عن بيّنة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

قال تعالى: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّار وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}117. الحكمة في هذه الآيات الكريمة أن يكون المثل السوء للذين لا يؤمنون بالآخرة وهذه حكمة بينة ظاهرة، وفي مقابل ذلك كان المثل الأعلى للحكيم الأعلى عزّ وجلّ، ولولا حمد الله وحكمته وفضله لكان العقاب واقعا في وقت وقوع الذنب أو الجريمة أو الكفر أو الضلال، ولكن لحكمة وفضل من الله أجّل ذلك إلى أجلا مسمى، أي معلوم وهو يوم

116 الزمر 6.

117 النحل 60 ـ 64.

الآخرة، ليعطي الفرصة لمن خلق في أحسن تقويم لعله يستغفر ويتوب لله وحده فيجده غفورا رحيما وما ربّك بظلام للعبيد قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شكّ مِنْهُ مُرِيبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ}118.

فالله ذو العزّة التي لا يمتنع عليه معها عقوبة هؤلاء المشركين، ولا عقوبة من أراد عقوبته على معصيته إياه، ولا يتعذّر عليه شيء أراده وشاءه؛ لأنّ الخلق خلقه، والأمر أمره، الحكيم في تدبيره، فلا يدخل تدبيره خَلَل في تصريفهم فيما أراد من إحياء وإماتة، وبعث ونشر، وما شاء. {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاس مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ ربّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شكّورٍ}119، وهو العزيز الذي لا يمتنع ممّا أراده من ضلال أو هداية من أرادَ ذلك به والحكيم في توفيقه للإيمان من وفَّقه له،

---

[118] فصلت 45 . 47.

[119] إبراهيم 1 . 5.

وهدايته له من هداه إليه، وفي إضلاله من أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره بحكمته، فالحمد لله على ما أولى من منحه، وأفاض من نعمه، فلولا هدايته ما وصل أحد إلى هدى أو رشاد، فلما أراد بحكمته أن يهدي خلفاءه إلى الصراط المستقيم أنزل عليهم القرآن الذي جاء فيه: {الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}[120]، أي هذه آيات الكتاب بيانا ورحمة من الله، رحم به من اتبعه، وعمل به من خلقه، وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزل الله في هذا القرآن، فهذا الكتاب الحكيم هدى ورحمة للذين أحسنوا، فعملوا بما فيه من أمر الله ونهيه فالذين يقيمون الصَّلاةَ المفروضة بحدودها وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ من جعلها الله له المفروضة في أموالهم وَهُمْ يفعلون ذلك وهم بجزاء الله وثوابه لمن فعل ذلك في الآخرة يوقنون. {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[121] هؤلاء الخلفاء هم المهتدون بالطاعة والعمل الصالح في الأرض يقولون حقّا ويفعلون الخيرات ويكثرون ذلك رحمة من الرحمن الرحيم. ولذلك فقد وعد الله تعالى خلفاءه وعد الصدق مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حقّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[122]، أي إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالله فوحدوه، وصدّقوا رسوله واتبعوه وَعمِلُوا الصَّالحَاتِ، فأطاعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيم هؤلاء الخلفاء لهم جنات النعيم خالدين فِيها ماكثين وهذا ما وعد الرحمن ووعد الرحمن حقّ والحمد لله ربّ العالمين.

---

[120] لقمان، 1 ـ 4.

[121] البقرة 5.

[122] لقمان 9.

قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[123]، فبحكمته تعالى أنّه خَلَقَ السَّمَوَاتِ السبع بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وكلمة بغير عمد تدلّ على أنّه بالقطع لا توجد عمد ترفع السماء عن الأرض، وكلمة (ترونها) عندما تتصل تصبح الآية ذات ثلاثة دلائل في دائرة الممكن المتوقّع:

المدلول الأوّل: أنّها ذات أعمدة ولكنكم لا ترونها وهذا متوقّع.

والمدلول الثاني: أنّها بدون أعمدة ولو كانت ذات أعمدة لرأيتموها وهذا متوقع.

المدلول الثالث: إنّ المقصود من كل ذلك إدراك الحكمة في خلق السماوات والأرض وكيفية خلقها سواء كانت بأعمدة أو بدونها وفي دائرة المتوقّع قد يكون هذا المقصود وهذه حكمة بذاتها لا يعلم سرها إلا هو عزّ وجلّ.

وكلّ ذلك يحتاج إلى تدبر ونظر والذي يكون نتاجه الحكمة التي يمنحها جلّ جلاله لمن يشاء من عباده وخلفائه وقد جاء في الكتاب العزيز كيف منح الله لقمان الحكمة بعدما كان نجارا وذلك عندما أخلص العبادة لله وحده فوصل إلى معرفة ما أراد الله له من المعارف التي تستدعي الحكمة والنظر ليكون خليفة في أرضه، فقال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ

[123] لقمان 10.

وَمَنْ يَشكُرْ فَإِنَّمَا يَشكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}124
لننظر في هذه الآية لنرى كيف يوزع حكمته على عباده، فقد كان لقمان رجلا صالحا، ولم يكن نبيا، قيل: كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، قاضيا على بني إسرائيل. وقيل كان لقمان الحكيم أسود من سودان مصر. وقيل: كان لقمان عبدا أسود حبشيا نجارا فأتاه رجل، وهو في مجلس أناس يحدّثهم، فقال له: "ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني"125. وبهذا وصل لقمان عليه السلام إلى ما وصل من الحكمة وهذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة في الأرض وإلا فهو في خسران مبين، وعلى الخليفة أن يحمد الله على هذه النعم التي لا تحصى لأنها من موجبات الرضى الإلهي والفوز بالخلافة في الدنيا والتي يكون نتاجها الجنّة بإذنه فإن {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}126، فالشكّر الكامل والحمد التام كله للمعبود الذي هو مالك جميع ما في السماوات السبع وما في الأرضين السبع دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه لا مالك لشيء من ذلك غيره، وله الشكّر الكامل في الآخرة كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة؛ لأن منه النعم كلها على كل من في السماوات والأرض في الدنيا، ومنه يكون ذلك في الآخرة، لأن النعم كلها من قبله لا يشركه فيها أحد من دونه وهو الحكيم في تدبيره خلقه وصرفه إياهم

---

124 لقمان 12.

125 تفسير الطبري، ج 20، ص 135.

126 سبأ 1.

في تقديره، خبير بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا وما هم عاملون، محيط بجميع ذلك.

وعلى الخليفة الحكيم أن يكون متبصرا بما يدور حوله فيصلح ما استطاع من ذلك وليبسط حكمته على مستخلفيه بما يقدمه لهم من النصائح الرّبانية والتي لابد وأن تنتج مجتمعا حكيما متبصرا عارفا بأمور الدنيا والدين، والحكيم أن يدرس التوقعات المستقبلية والتي يستطيع بها أن يتوقى الأعداء من الطبيعة والبشر؛ لأنّ الحكيم بالإضافة يتلقى حكمته من الحكيم المطلق الذي يعلم مسبقا ما كان وما سيكون وهذه من خصائص الحكيم لأنّه لو لم يكن عليما ما كان حكيما ولذلك على الحكيم المستخلف في الأرض أن يعمل ويصلح وأن يكثر من الدعاء ليوفقه الحكيم المطلق في أعماله ودراساته الحالية والمستقبلية وأن يلهمه النظرة الصائبة لتحقّيق ذلك وكل خير في مرضات الله تعالى.

وليعلِّم الخليفة المستخلفين في الأرض موجبات الحمد وأن يعلمهم أن الخير بيده تعالى ولا أحد يمنعهم من ذلك إذا أراد لهم ذلك لأنه هو العزيز القادر وهو الحكيم في كل أمر؛ قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[127]. ولنكون خلفاء على حقّيقة بينة وصدق في العقيدة والمنهج كما كان يفعل لقمان عليه السلام فإنه تعالى مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ وخير فَلا مُمْسِكَ لَهَا ولا يستطيع أحد حبسها وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ لهذه الرحمة من بعده وَهُوَ العزيز في نِقمته ممن انتقم منه من خلقه بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتحه لهم الرحمة إذا كان فتح ذلك

[127] فاطر 2.

صلاحًا، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة128. وذلك عليه هين لأنّه تعالى الواحد الأحد في سماواته وأرضه ويدير كل ذلك بحكم وعلم ومعرفة ودراية فقد قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}129؛ لأنّه يُعبد في السماء، ويُعبد في الأرض. وهو العليم بمصالحهم. ولذلك وجب على الخليفة القول للمتكبرين لعلهم يرجعون عما هم فيه من الغواية والضلال: {ربّ السَّمَاوَاتِ وَربّ الأَرْضِ ربّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}130. فَلِلَّهِ الْحَمْدُ على نِعمه وأياديه عند خلقه، فإياه فاحمدوا أيها النّاس الذين استخلفكم في أرضه، فإن كلّ ما بكم من نعمة فمنه دون ما تعبدون من دونه من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه ربّا، وتشركون به معه ربّ السَّمَاوَاتِ وَربّ الأَرْضِ يقول: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهنّ من أصناف الخلق، وبذلك يكون له الكبرياء في السموات والأرض الْحَكِيمُ في تدبيره لخلقه وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد وَهُوَ الْعَزِيزُ القاهر كل ما دونه، ولا يقهره شيء131. فإقرار منا بحكمته وعلمه زيادة على القدرة والجبروت يجب أن نسبح له لعزته وجبروته ولعلوه وحكمته وقدرته الذي سبح له جميع من في السماوات والأرض فقد قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

128 تفسير الطبري، ج 20، ص 437.

129 الزخرف 84.

130 الجاثية 36،37.

131 تفسير الطبري، ج 22، ص 88.

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}132. يعني تعالى ذكره بقوله: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أن كلّ ما دونه من خلقه يسبحه تعظيما له، وإقرارا بربّوبيته، وإذعانا لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}. وقوله: (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي جلّ جلاله عزيز في انتقامه ممن عصاه، فخالف أمره ممّا في السماوات والأرض من خلقه والْحَكِيمُ في تدبيره أمرهم، وتصريفه إياهم فيما أحبّ. {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}133. لأنّه يتولاكم بنصره أيها المؤمنون وَهُوَ الْعَلِيمُ بمصالحكم الْحَكِيمُ في تدبيره إياكم، وصرفكم فيما هو أعلم به. وبذلك كان دعا خلفائه لمستخلفيهم {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

132 الحديد، 1 . 3.

133 التحريم 1 . 3.

يَعْمَلُونَ}134. (وَيُزَكِّيهِمْ) تعني يظهرهم على العالمين ويباركهم ويطهرهم من الضلال والكفر والشرك، فيكونوا طائعين بالعمل والعبادة. وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ تعني شيئين:

الشيء الأول: يعلمهم ما جاء في القرآن الكريم: ليكون الدين بينهم معاملة حسنة، وتعليم الكتاب لأجل إظهار الآيات العظام التي جاء بها الرّسول وحيا من الملك المتعال مبشرا ونذيرا وداعيا للخير ومحرضا عليه وسراجا منير.

الشيء الثاني: يعلمهم الحكمة: تعني يعلمهم أساليب المعاملة الرفيعة في الأخذ بالأوامر والنواهي التي جاءت في الكتاب الحكيم وإتباع الرّسول الحكيم في أقواله وأعماله وهديه للتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}135، وقال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}136.

---

134 البقرة 129 . 34.

135 النحل 125 . 128.

136 فصلت 33 . 36.

وهذه التزكية وهذا التعليم للكتاب والحكمة يأتي ليوضح لهم الحلال والحرام على يدي مستخلفيه في أرضه كما في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا}، وقوله تعالى: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا} يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم، أي: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما، وهو الحكيم العليم السميع لما يدور من حوار ونقاش وجدال الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقّائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة برضيعها؛ ولهذا قال: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}[137] أي من بلغه نهي الله عن الرّبا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: {عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ}[138] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية، بل عفا عما سلف لحكمة يراها ويعلمها الحكيم جلّ جلاله.

وعليه فإن الحكمة تأتي على نوعين:

1- حكمة موهوبة من الله جلّ جلاله.

2- حكمة تعليمية والتي تكون نتاج المحكّات والتجارب، كمعرفة العدو من الصديق من الحيوان والإنسان، ومعرفة ما يجب والإقدام عليه ومعرفة ما لا يجب الإقدام عليه فيحجم عنه.

وأساليب الحكماء على نوعين:

---

[137] البقرة 275.

[138] المائدة 95.

1- حكمة يعطى جوابها مباشرة.

2- وحكمة غير مباشرة وخاصة في الردود فيوضح الحكيم الإجابة عن الأسئلة بما يعرف في علم البلاغة بأسلوب الحكيم فيعطي الحكمة من وجود الشيء أو علته وسببه، دون الحاجة إلى الدخول في تفاصيل عن الشيء ليعلم خلفاءه كيف يكون الرد، وكذلك إظهار الإعجاز القرآني بما يتناسب وعقول من أرسل إليهم وخاصة العربّ وما تميزوا به من الفصاحة والبلاغة وليكون معجزا لهم، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: {يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأهلة}، فالأهلة جمع هلال، وسمي به القمر في ليلتين من أول الشهر، أو في ثلاث، والسؤال يحتمل:

1- أن يكون عن الغاية والحكمة.

2- أو أن يكون عن السبب والعلة.

فعلى الأول: يكون الجواب بقوله تعالى: {قُلْ هي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج} مطابقا مبينا للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام المذكرة لنعمة الله تعالى ومزيد رأفته سبحانه وهي أن يكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدنيوية ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ومعالم للعبادات الموقتة يعرف بها أوقاتها كالصلاة والصيام والإفطار والزكاة والحج، فإن الوقت مراعى فيه أداءا وقضاءا ولو كان الهلال مدورا كالشمس أو ملازما حالة واحدة لم يكد يتيسر التوقيت به، ولم يذكر صلّى الله عليه وسلّم الحكمة الباطنة لذلك مثل كون اختلاف تشكّلاته سببا عاديا أو جعليا، لأنّه ممّا لم يطلع عليه كل أحد.

وعلى الثاني: يكون من الأسلوب الحكيم، ويسمى القول بالموجب وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله فيكون في هذا الجواب إشارة إلى أن الأولى على تقدير وقوع السؤال أن يسألوا عن الحكمة لا عن السبب لأنه لا يتعلق به صلاح معاشهم ومعادهم، والنبي إنما بعث لبيان ذلك للنّاس كافة فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فما ربّك بظلام للعبيد.

ومن المعلوم أن الحكمة لا تقتضي أن يؤمر بالفعل من لا يقدر على الامتثال وممّا يقتضي أن أفعال الله تعالى وأحكامه لابدّ فيها من حكمة ومصلحة وهو مسلم لكن لا نسلم أنّه لابدّ أن تظهر هذه المصلحة لنا إذ الحكيم لا يلزمه اطلاع من دونه على وجه الحقّيقة وحينئذٍ فما المانع من أن يقال هناك مصلحة لم نطلع عليها، ويجاب بأنا لم ندع سوى أن الله تعالى قد راعى الحكمة فيما أمر وخلق تفضلا ورحمة لا وجوبا وهذا ثابت بقوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[139]، الجبال التي لا نفقه تسبيحها لا نرى حركتها مع أنّها في حالة حركة، ولهذا لا يعني أن ما لا نراه على كيفية نعرفها هو ليس على الكيفية التي قيلت لنا من عالم السر والعلل والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، ولكن الخليفة الذي يؤمن بالمطلق بالحكيم المطلق يسلم بذلك إيمانا تاما لا شكّ فيه وهو

[139] النمل 86 . 88.

بذلك سميع عليم بما جاء في الكتاب الحكيم وهو أمر مطاع من خالق عظيم.

وقوله سبحانه: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}140. ولأن الله أحسن كل شيء خلقه، فإن من حُسن الخالق أن يكون الرقي في كل ما خلق حتى وإن تفاوتت الفروق بين المخلوقات العظيمة، التي في جميع خلقها إعجاز وتخصيص من حكيم خبير.

والحكمة قد تظهر في حينها وقد لا تظهر ومن أمثله ذلك:

1- قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}141. وزمام ذلك بيد الحكيم العليم فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والعزيز هو الغالب الذي لا يغالب فيما قضى به، وقيل: القادر على انتقامه من الكفار بأيدي المؤمنين وفي إجراء هذا الوصف هنا عليه تعالى إيذان بعلة اختصاص النصر به سبحانه.

الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ويفعل على ما تقتضيه الحكمة في سائر أفعاله ومن ذلك نصره للمؤمنين بواسطة إنزال الملائكة، وفي الآتيان بهذا الوصف رد على من أنكر ما نطقت به الظواهر فسبحانه من عليم حكيم وعزيز حليم لا يعجزه الظهور بما

---

140 السجدة 6 . 11.

141 آل عمران 126.

شاء وكيف شاء، والحكيم الذي ستر نصره بصور الملائكة لحكمة وهو أن يَقْطَعَ ويهلك طَرَفا مّنَ الذين كَفَرُواْ وهم أعداء الله تعالى، أَوْ يَكْبِتَهُمْ ويخزيهم ويذلهم فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ، فيرجعوا غير ظافرين بما أملوا142.

قال تعالى: {وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم}143، أي فإن تغفر لهم فإنك مالك العزّة وأنت لم تكن في حاجة لهم، ولذا فإن غفرانك لهم حكمة أنت تعلمها ظاهرة وباطنه ونحن لا نعلمها إلا ظاهرة سبحانك أنّك العزيز الحكيم الذي يتكبر عن النقيصة والولد والحاجة والصاحبة إنك القوي الذي لم يكن في حاجة لمساندة سبحانك فأنت المساند لكل خلقك على مغالبة الصعاب. فلو علموا بذلك أو عرفوا لعرفوا لا غالب إلا أنت ولا قاهر إلا أنت ولا سميع ومجيب إلا أنت ولا قادر على كل أمر إلا أنت.

2- في قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}144. فربّما يخطر للإنسان أنّ القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه كانت أنفع وأصلح كما تعارفه أهل الجاهلية حيث كانوا يورثون الرجال الأقوياء ولا يورثون الصبيان والنسوان

142 تفسير الألوسي، ج 3، ص 210.

143 المائدة 118.

144 النساء 11.

الضعفاء فأنكر الله تعالى عليهم ما عسى أن يخطر ببالهم من هذا القبيل، وأشار إلى قصور أذهانهم فكأنه قال: إنّ عقولكم لا تحيط بمصالحكم فلا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم فاتركوا تقدير المواريث بالمقادير التي تستحسنونها بعقولكم ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه، وكونوا مطيعين لأمر الله تعالى في هذه التقديرات التي قدرها سبحانه فإنه العالم بمغيبات الأمور وعواقبها، ووجه الحكمة فيما قدره ودبره وهو العليم الحكيم، والنفع على هذا أعم من الدنيوي والأخروي وانتفاع بعضهم ببعض في الدنيا يكون بالإنفاق عليه والتربيّة له والذب عنه مثلا، وانتفاعهم في الآخرة يكون بالشفاعة.

ويوصيكم الله تستوجب الأخذ بما أوصى به عدلا بين الأخوة والوارثين ممّا لهم نصيب فيه، وفي هذا الأمر إكرام لبني آدم من ذكر وأنثى لا فرق بينهم في الحقّوق والواجبات وحمْل المسؤوليات كلهم لآدم وآدم من تراب.

فَهُوَ ذو الحكمة البالغة والعليم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، والمبالغ في الأحكام وإتقان التدبير وإحسان التقدير والخبير العالم بما دق من أحوال العباد وخفي من أمورهم. فالنّاس كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ النّاس إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ ربّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}[145]، أي على الفطرة التي فطر الله النّاس عليها متوجهين إلى التوحيد متنورين بنور الهداية الأصلية فاختلفوا بمقتضيات النشأة واختلاف الأمزجة والأهواء والعادات والمخالطات

[145] يونس 19، 20.

(وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن ربّكَ) وهو قضاؤه سبحانه الأزلي بتقدير الآجال والأرزاق (لَقُضِيَ بِيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) بإهلاك المبطل وإبقاء المحقّ، فحكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ كل منهم وجهته التي ولى وجهه إليها بأعماله التي يزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه وسبحان الحكيم العليم.

3- اللغة والتي تتكون من الاسم والفعل والحرف أنواع ثلاثة داخلة تحت جنس الكلمة، فعند البحث عن ماهية الكلام وحده وخواصه، فإننا نجد ألفاظا أخرى شبيهة بالكلمة، وهي: الكلام، والقول، واللفظ، واللغة، والعبارة، لا شكّ أن هذه الكلمات إنما تحصل من الأصوات والحروف، فعند ذلك يجب البحث عن حقّيقة الصوت، وعن أسباب وجوده ولا شكّ أن حدوث الصوت في الحيوان يختلف عن الإنسان وما الحكمة في كون الإنسان هو الناطق الوحيد وفق مخارج مخصوصة في الحلق واللسان والأسنان والشفتين، والتي لا تتم دلالتها إلا عند الوقوف على علم التشريح. ولاشكّ أن ذلك يساعده على أداء مهام رسالة الخلافة والأمانة التي حملها دون سائر المخلوقات فهذه اللغة لم يأت بها جلّ جلاله بمجرد كلام بل جاءت الحكمة في وضع الألفاظ للمعاني؛ لأن الإنسان خلق بحيث لا يستقل بتحصيل جميع مهماته لوحده فاحتاج إلى أن يعرف غيره ما في ضميره ليمكنه التوسل به إلى الاستعانة بالغير، ولابدّ لذلك التوضيح من طريق، والطرق كثيرة مثل الكتابة والإشارة والتصفيق باليد والحركة بسائر الأعضاء، إلا أن أسهلها وأحسنها هو تعريف بما في القلوب والضمائر بهذه الألفاظ، وأنّ هذه المعاني تحصل من غير كلفة ومعونة، بخلاف الكتابة والإشارة وغيرهما، فلهذا قضت العقول السليمة، بأن أحسن ما يعرف به ما في القلوب هو الألفاظ.

ثم أودع في هذا النطق والكلام حكما عالية وأسرارا باهرة عجزت عقول الأولين والآخرين عن الإحاطة بقطرة من بحرها وشعلة من شمسها، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة الباهرة والقدرة غير المتناهية.

ومن حكمه أن جعلها الرابط بين أفراد العائلة الواحدة ومن ثم بين أفراد المجتمع والعالم بأسره كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}146. إنها لحكمة لو كنتم تعلمون، فلو تعلمون علم اليقين لتعارفتم على المحبة والمودة وتعاونتم بكل صدق على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ولتآخيتم في الله، وقد جعل الله ختام هذا التعارف التقوى والسير على نهج الحقّ وفق شروط الخلافة الإلهية. فقد كان من حكمته أن جعل كمال الإنسان في معرفة الحقّ لذاته، ويعرف الخير لأجل العمل به، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرّسول لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}147، وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}148. ولنا أن نفرق بين العلم والحكمة، فالعلم ينير العقول، والحكم تنير القلوب، فهي توقظ من الغفلة وبها

146 الحجرات 13.

147 النساء 39 . 42.

148 الزلزلة 7، 8.

يتم الاتعاظ، والعلم به يتم صناعة المستقبل بعد تخطيط وإعداد عدة.

ولذلك قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}149. تقويم الجسم فجعله يمشي سويا على اختلاف مع من يمشي مكب على وجهه، وجعله عاقلا ليكون عليما حكيما بعلم الله وحكمته، وجعل له قلب في جوفه وجعل له مودة، ولذا أمر بالطاعة فكان مجيبا. وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}150. تدل هذه الآية الكريمة على الإتقان الذي عليه خلق الإنسان وسوي وعُدِّل، ثم إن المقدر الحكيم والمدبر الرحيم جعل هذا الأمر المطلوب على سبيل التجهز لحمل أسباب الخلافة، وبما تفضل به عليه دون سائر المخلوقات، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}151. وهذا التكليف لم يكن إلا برضا الإنسان وموافقته على حمل أثقال الخلافة وما لها من شروط وواجبات ومهمات التي رفضت سائر المخلوقات والجمادات حملها كما جاء في الكتاب العزيز: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}152.

4-ومن حكمته أن جعل عجز النفس لأنّه السبيل إلى الوصول إلى قدرة الرّب، ولأنّه لا وسيلة إلى القربّ من حضرة الله إلا

---

149 التين 4.

150 الانفطار 7.

151 الإسراء 70.

152 الأحزاب 72.

بالعجز والانكسار، فمن عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربّه بأنه هو القادر على كل مقدور، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربّه بالفضل والعدل، ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربّه بالكمال والجلال. ثم إنّ الإقدام على الطاعات لا يتيسر إلا بعد الفرار من الشيطان وأعمال الفساد في الأرض، قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}153. وذلك بالاستعاذة منه بالله، وجعل بفضله وكرمه هذه الاستعاذة نوع من أنواع الطاعة، فإنّ كان الإقدام على الطاعة يوجب تقديم الاستعاذة عليها افتقرت الاستعاذة إلى تقديم استعاذة أخرى ولزم التسلسل، وإن كان الإقدام على الطاعة لا يحوج إلى تقديم الاستعاذة عليها لم يكن في الاستعاذة فائدة، فقد شاهدت عجزك واعترفت بقصورك فأنا أعينك على الطاعة وأعلمك كيفية الخوض فيها فقل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم). وأنّ من أجل الأمور التي يلقي الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن، لأنّ من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر في وعده ووعيده وآياته وبيناته ازدادت رغبته في الطاعات ورهبته عن المحرمات؛ فلهذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات، فلا جرم كان سعى الشيطان في الصد عنه أبلغ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة. والشيطان عدو الإنسان كما قال تعالى: {إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوًّا}154. والرّحمن مولى الإنسان وخالقه ومصلح مهماته ثم إنّ الإنسان عند شروعه في الطاعات والعبادات خاف العدو فاجتهد في أن يتحرى مرضاة مالكه ليخلصه من زحمة ذلك العدو، فلما وصل الحضرة وشاهد أنواع

---

153 الذاريات 50.

154 فاطر 6.

البهجة والكرامة نسي العدو وأقبل بالكلية على خدمة الرّب المطلق، فالمقام الأوّل: هو الفرار وهو قوله: (أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم) وفي هذه حكمة تحض الخليفة من الوسوسة والحياد عن الطاعة أو المخالفة.

والمقام الثاني: وهو الاستقرار في حضرة الملك الجبار فهو قوله: (بسم الله الرّحمن الرّحيم). هذه القراءة وهذا التقربّ ليس سهلا بل يتطلب وضعا خاصا، قال تعالى: {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون}155. منعا من التطفل والعبث بكلام الله العزيز، وكذلك القلب قد يحصل له تعلق بغير الله واللسان قد ينشغل بغير ذكر الله فيحصل فيه نوع من اللوث، فلابدّ من استعمال الطهور، فلما قال: أَعُوذُ بالله حصل الطهور، فعند ذلك يستعد للصّلاة الحقّيقية وهي ذكر الله تعالى فقال: بِسْمِ اللَّهِ وقد جعل الله للإنسان عدوان أحدهما ظاهر والآخر باطن، وأنت مأمور بمحاربّتهما قال تعالى في العدو الظاهر: {قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله}156. وقال في العدو الباطن: {إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّا}157. فكأنه تعالى قال: إذا حاربّت عدوك الظاهر كان مددك الملك، كما قال تعالى: {يُمْدِدْكُمْ ربّكُمْ بِخَمْسَةِ ءالافٍ مّنَ الملائكة مُسَوّمِينَ}158. وإذا حاربّت عدوك الباطن كان مددك الملك كما قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلِيهم سلطان}159. وأيضا فمحاربّة العدو الباطن أولى من محاربّة العدو الظاهر؛ لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة ففي متاع الدنيا،

155 الواقعة 79.

156 التوبة 29.

157 فاطر 6.

158 آل عمران 125.

159 الحجر 42.

والعدو الباطن إن وجد فرصة ففي الدين واليقين، وأيضا فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين، والعدو الباطن إن غلبنا كنا مفتونين، وأيضا فمن قتله العدو الظاهر كان شهيدا، ومن قتله العدو الباطن كان طريدا، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولى، وذلك لا يكون إلا بأن يقول الرّجل بقلبه ولسانه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم والحمد لله ربّ العالمين).

ولأنّ القلب بيت الإيمان والاطمئنان فهو بهذا هو أشرف البقاع، فلا تجد ديارا طيبة ولا بساتين عامرة ولا رياضا ناضرة إلا وقلب المؤمن أشرف منها، بل قلب المؤمن كالمرآة في الصفاء وهو في التشبيه أصفي، وذلك لأن قلب المؤمن لا يحجبه السماوات السبع والكرسي والعرش كما قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ}160. بل القلب مع جميع هذه الحجب يطالع جلال الرّبوبية ويحيط علما بالصفات الصمدية، وأنه تعالى حكي كيفية نزول العبد في بستان الجنّة فقال: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}161.

5- خلق الله العالم مطابقا لمصالح العباد موافقا لمنافعهم فكان غاية في الإحكام والإتقان الظاهرين في العالم الأعلى والعالم الأسفل، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاس مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}162.

---

[160] فاطر 10.

[161] القمر 55.

[162] لقمان 20.

ولما كان فاعل الفعل المحكم المتقن عالما منزها عن الحيز والمكان، والحلول في المحل، فالعالم يدل على كونه في نهاية القدرة ويدل على كونه في نهاية العلم ويدل على كونه في نهاية الحكمة. فكل ما في العالم من محنة وبلية وألم ومشقة فهو وإن كان عذابا وألما في الظاهر إلا أنه حكمة ورحمة في الحقّيقة، فالمقصود من التكاليف تطهير الأرواح عن العلائق الجسدانية وفي هذه حكمة كما قال تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا}163. والمقصود من خلق النّار صرف الأشرار إلى أعمال الأبرار، وجذبها من دار الفرار إلى دار القرار، كما قال تعالى: {فَفِرُّوٓاْ إِلَى اللهِ}164. وأقربّ مثال لهذا الباب قصة موسى والخضر عليهما الصّلاة والسّلام، فإن موسى كان يبني الحكم على ظواهر الأمور فاستنكر تخريق السفينة وقتل الغلام وعمارة الجدار المائل، وأما الخضر فإنه كان يبني أحكامه على الحقّائق والأسرار فقال: { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}165. فظهر بهذه القصة

---

[163] الإسراء 7.

[164] الذاريات 50.

[165] الكهف 79 . 83.

أن الحكيم المحقّق هو الذي يبني أمره على الحقّائق لا على الظاهر، فإذا رأيت ما يكرهه طبعك وينفر عنه عقلك فاعلم أن تحته أسرارا خفية وحكما بالغة، وأن حكمته ورحمته اقتضت ذلك، وعند ذلك يظهر لك أثر من أسرار قوله الحكيم الخبير. ومن الأمور ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا: كالصلاة والزكاة والصوم؛ فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه: كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة، ثم أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه، أمّا الطاعة في النوع الثاني فإنّه يدلّ على كمال الانقياد ونهاية التسليم، لأنّه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم، فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال، فلِمَ لا يجوز أيضا أن يكون الأمر كذلك في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر، بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه متلفتا إليه أبدا، ومتفكرا فيه أبدا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشتغل الخاطر بذلك أبدا مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلا لهذه المصلحة.

6- عدم الخطأ في وضع موازين الأشياء من ذلك:

جعل لكل مخلوق مهنته فالمزارع مزارع والنجار نجار والبحار بحار؛ حتى تكون منظمة وفق ما يراها هو جلّ جلاله، وتبعا للنواميس التي وضعها لهذا الكون العجيب والذي جعله يخدم بعضه بعضا وفي دقة متناهية فتبارك الله أحسن الخالقين، وكل ذلك يصب في هدف واحد – وهو الذي نراه نحن – هو خدمة بني البشر، وخاصة خلفائه الذين لهم السعادة في الدنيا والآخرة بما ألهمهم الله جلّ جلاله من الحكمة وقدرة التمييز، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}166.

7- جعل لكل شيء موسما ووقتا خاصا ومكانا خاصا فإذا حاول الإنسان تغيير ذلك خسر فيه وقد لا يظهر له في حينه فيظن أنه نجح في ذلك، ومن ذلك:

1- غرس الأشجار في غير أماكنها سواء أكانت مثمرة أو غير مثمرة ومع ذلك فإن كل شيء مفيد ونافع لحِكمة نعلمها من علم الله وحِكم نحن لا نعلمها هو عزّ وجلّ يعلمها، إنه لا يخلق شيئا عبثا، ولا تبديل لنعم الله، ولهذا فقد ينقل الإنسان شجرة مثمرة من مكان إلى مكان فإن لم يناسبها ذلك المكان الذي نقلت إليه طبيعة ومناخا وتربّة فلا تثمر فيه أو أنها تتبدل وتتغير فلا تظل كما شاء لها أن تكون عليه، وقد تموت.

فالفاكهة التي تنبت في المناطق الحارة لا تفيد بالدرجة الأولى إلا أهلها، وهكذا الباردة؛ لأنّ الله جلّ جلاله خلقها في ذلك المكان وعلى تلك الصفة إلا لتخدم الإنسان في ذلك المكان، فلا

166 الأنبياء 24.

يجوز أن ننقلها إلى مكان غيره تعسفا إن لم تكن الحاجة وتعود بما ينفع ويفيد العباد، وذلك لأن كل شيء وضع لحكمة هو يعلمها، وهذه الحكمة التي جعلها في قلوب الذين استخلفوا ليميزوا الخبيث من الطيب فيعرفون ما يصلح بهم وبمستخلفيهم، فيأمرون به أو ينهون عنه.

2- تغيير خلق الله ذلك بأن يحاول التغيير في الأشياء أو تحسينها كأن يلعب بمورثات الحيوانات أو النباتات الجينية كمحاولات الاستنساخ التي تجري اليوم في النبات والحيوان، وقد تطول البشر، فقد ظهرت عيوبها من أوّل يوم تغيرت فيه، فالفاكهة مثلا التي تم تعديلها تغيرت من حيث طعمها ورائحتها وفائدتها وبذلك لم يقبلها النّاس لأنها لم تكن كما خلقها الله جلّ جلاله، بل عبث بها من عبث وبالتالي اختل ميزانها ونتج عنها غير المطلوب تحقّيقه، ويرجع السبب في ذلك إلى قصور إدراك بني البشر إلا في حدود معينة التي جعلها الله خاصة لحكمائه، ومع ذلك علينا أن نقول سويا وقل ربّي زدني علما حتى يكون الصواب فيما نفعل ونعمل ونبتكر أو نخترع ونصنع أو نستكشف بعلم من علمه إنه السميع العليم، ولهذا فنحن لا نحرم ما أحله الله ولا نحلل ما حرمه وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ولا أود أن استدرج في الشرح فموضوع الاستنساخ موضوع علمي بالتأكيد سيتطور وتتحسن أحوال التجاربّ وتكون النتائج أفضل وأحسن ومع ذلك لا تبديل لخلق الله قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ضَربَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}167.

3- تغيير أوقات النوم بأن يسهر الليل وينام النهار فإنّ في ذلك أكبر عبث بتركيبة الجسم البشري وله آثار ضارة قد لا تظهر في حينها فسهر الأطفال على سبيل المثال قد يجعل الطفل قاصر التفكير عندما يتقدم إلى عمر الشباب، وقد يورث له المرض والعلة، ويؤخره عن الصلاة في وقتها؛ ويصبح كسولا غافلا عن مواقيت العبادة والعمل الصالح، ويكون في منعزل عن مخالطة النّاس الذين لهم في ممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات. وفي ذلك قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}168.

وعليه كل شيء يُغيَّر يتغير إلا خلق الله ثابت، لذلك أرسل الله الرّسُل وأيدهم بالحكمة ليكونوا له من الشاكرين فقد آتى الله لقمان الحكمة حين جعله شاكرا في نفسه وحين جعله واعظا لغيره، وهذا لأن علو مرتبة الإنسان لا يكون كاملا في نفسه إلا وهو مكملا لغيره فقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

---

167 الروم 27 . 32.

168 النبأ 10، 11.

وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }[169]، أن الله ذكر لقمان وشكّر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه الصّلاة والسّلام الذي فيه إرشاد الأباعد والأقاربّ، ثم إنه في الوعظ والحكمة ذكر نتاج حكمته وما كان أساسا لها وما يصلح به أمر خلفائه في أرضه فأعطى زبدة ما توصل إليه وأهم عناصر هذه الوصية التي تكون سراجا ومنهاجا للخلفاء عامة في أرضه والتي تمثلت في الوصايا الآتية:

1- النهي عن الشراك: مصداقا لقوله تعالى: (يا بني لا تشرك بالله إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الشرك إثم والإثم ظلم، والظلم اعتداء في غير محله، وأكبر المظالم وأعظمها الشرك بالله وهذا الأمر في قاموس الخليفة وقيمه وفضائله منهي عنه، وكيف يصح الظلم والله تعالى يقول: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ

[169] لقمان 13 . 19.

وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْممَّاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}170 وعليه فالشرك أن تجعل المعبود غير الخالق، والقاعدة تقول: (لا عبادة لغير الخالق) ولان الخالق واحد\ فلا ينبغي أن تشرك معه أحدا، ولهذا فإن أمر الشرك أمر عجاب مخالف للقاعدة التي تهدي للتي هي أقوم. ولو كان فيها أكثر من إله لفسدت السماوات والأرضين وانعدمت المغفرة والرحمة قال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحقّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}171.

فالإشراك أن توضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا. قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}172، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ}173.

2- الشكّر لله تعالى: مصداقا لقوله تعالى: (أَنِ اشكّرْ لِي) وشكّر الله لا يتم إلا اعترافا وإيمانا به واحد أحد لا شريك له فله

---

170 الإسراء 70 ـ 75.

171 الأنبياء 19 ـ 24.

172 البقرة 39.

173 البقرة 161.

الحمد والشكّر على نعمائه وما خلق فينا من حسن خلق وما خلق لنا من نعم ظاهرة وباطنة إنه بنا رءوف رحيم. ولذا فمن الحكمة أن يشكّر العبد ربّه عزّ وجلّ. قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}174، وقال تعالى: {وَمَا محمّد إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}175.

3 . طاعة الوالدين في غير معصية الله والشكّر لهما: قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشكّرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) جاء شكّر الوالدين بعد شكّر الله تعالى مباشرة، فـ(أن أشكّر لي) تعود على شكّر العبد لله تعالى، ولوالديك يكون الشكّر التالي تقديرا للوالدين اللذين يسهران الليل ويكدان اليوم من أجل توفير حياة طيبة للأبناء، فحمل الأم لجنينها لا يكون إلا وهنا على وهن، وفي هذا الأمر مكابدة ومعاناة اللهم أرضا وأرضيهما عنا. قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}176 لذا فإن طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة وشكّرهم على ما فعلوه وما

---

174 إبراهيم 7.

175 آل عمران 144، 145.

176 الإسراء 23، 24.

يفعلون خير في ذاته فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عن هذه الطاعة وهذا الشكّر الحميد. وفي هذا الأمر قال تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}177. وحرصا على احترام الوالدين فهما والدين حتى ولو كانا من غير المستخلفين فيها فهم والدين لهما الشكّر والتقدير ولا طاعة لهما في معصية الله، قال تعالى: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

4 - إتباع سبيل الخليفة: وهذه جاءت نصا من قول الله تعالى: (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)، تعني خذ قدوتك الذي أطاعني (طاعة الله التامة) فإن أخذتها تهتدي إلى سبيل الرشاد المحمود، ثم جاء قوله تعالى: (ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي بعد أن تتخذوا قدوتكم الحسنة الذين آمنوا بي واهتدوا إلى سبيل الحقّ، بعدها سيكون جزاؤكم عليَّ والضمير عائد على الله تعالى، ولهذا فمن اتَّبَعَ السبيل الذي يرضي الله يُتبَع سبيله.

وعليه فالخليفة يخلفه خليفة، وهذا هو السبيل الرشاد الذي يرتضيه الحكيم المطلق جلّ جلاله، وبهد الاهتداء (أخذ القدوة الحسنة) سيكون اللقاء بالمستخلفين بإتباع القدوة الحسنة، وحينها ينبئهم الله بما عملوا من سيئات وينبئهم بما غفر لهم، أي ينبئهم بأسباب المغفرة والتوبة وينبئهم بأسباب وجوب إتباع القدوة الحسنة الهادية للحقّ.

---

177 إبراهيم 7.

إذن (واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) إتباع طاعة وإرادة واختيار وهذا الأمر يسترشد به بسلوك الرّسُل والأنبياء القدوة (المستخلفون الأوائل) صلوات الله وسلامه عليهم، ثم إتباع الصالحين والمصلحين الأفاضل، والطائعين العظام وهم المبشرين والمنذرين والمحرضين على فعل الخيرات والإكثار من الحسنات المؤمنين في يومهم وفي غدهم مع الوارثين.

5 . إدراك علم المستقبل والتنبيه إليه: قال تعالى: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)، ينبه لقمان ابنه بأن لا يقصر نظره وتفكيره على رؤاه فقط بل يعلم أن خالق الكون هو مدبره، ولهذا فعليه أن يفكر حتى يتعظ، ولا يستغربّ بحدوث ما لم يدركه، فخالق الكون حكيم عليم خبير، ولهذا لم يخلق كل شيء ووقف، إنه خلق ولا زال يخلق وهو على كل شيء قدير، وحتى حدود ما تم خلقه لن يكون جميعه بين أيدي البشر فهذا الأمر يتعلق بيد الله العليا، وليس بأيدي من لم يبلغوا الكمال. قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}[178]، وقال تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[179].

[178] الأنعام 56.

[179] آل عمران 162 . 164.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}180. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}181.

6 – إقامة الصلاة: تأكيدا على أهمية الطاعة لله تعالى أوصى لقمان ابنه بإقامة الصلاة، وإقامة الصلاة تعني: العمل بها والعمل على ترسيخها لدى الخلائف، وإقامة الصلاة تعني أيضا المحافظة عليها طاعة لله قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}182. يفهم من هذه الآية الكريمة إن الصلاة فعل خير وعبادة خيرة ولذا فإقامتها طاعة لأمر الله، وطاعة الله تنهي عن الفحشاء والمنكر، وذلك لأنّ إقامتها ذكر لله ومن يكون قضاء وقته في ذكر الله ليس لديه وقت للفحشاء والمنكر، ولهذا فإن ذكر الله أكبر والحمد لله.

قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}183، وقال تعالى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}184.

---

180 الأحقّاف 13، 14.

181 البقرة 277.

182 العنكبوت 45.

183 البقرة 110.

184 النساء 162.

ارتبطت إقامة الصّلاة بإيتاء الزّكاة، والإيتاء لا يكون إلا ممن يملك ويعطي دون منة ولا ينتظر مقابل إلا في مرضات الله، ولا يؤتي الزكاة إلا خليفة يؤمن بالأمر المطلق من الحكيم المطلق ويعمل على إظهاره، ولذا فالإيتاء فعل إرادي دون أية إكراه أو إجبار، وهو إظهار حقّ لصاحب حقّ، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}185.

7 – الأمر بالمعروف: قال لقمان يا بني وهو يوصيه بإقامة الصلاة: (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ) والأمر بالمعروف هو الأمر المحبب المألوف لدى الخليفة، والأمر المألوف هو الأمر الذي يحتكم الخليفة به ويحتكم إليه، وهو نتاج القيم العرفية المتفق عليها برضاء النّاس عنها، ولهذا فالأمر المعروف ينال الرضاء والاتفاق ويحقّق اللحمة والوحدة بين من يتعلق الأمر بهم وهو يتفق بالتمام مع كل ما يرضي الله، ولهذا من الحكمة أن يأمر الخليفة بالمعروف ولا يأمر بمعصية ولا مكروه وبدعة يختلقها وهي لا تفيد العباد ولا ترضي الله تعالى.

قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}186. وقال تعالى: { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}187، وقال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسول مِنْ بَعْدِ مَا

185 المائدة 55، 56.

186 آل عمران 104.

187 البقرة 263.

تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}188.

وعليه من الحكمة أن يأمر بني آدم بالمعروف، وذلك فمن يأمر بغيره لا يطاع، ومن يأمر بما لا يطاع يأمر بمكروه، والمكروه رذيلة لا ينبغي أن تسود بين النّاس. قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}189.

8 ـ النهي عن المنكر: المنكر هو ما لا يطيقه ولا يقبله النّاس وينكروه لتعارضه من القيم والفضائل الحميدة التي ينبغي أن تسود بين المستخلفين فيها. ولذا فالنهي عن المنكر نهي عن ممّارسة الفساد في الأرض التي قال فيها الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}190، وقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا

---

[188] النساء 114، 115.

[189] البقرة 231.

[190] الأعراف 24 ـ 26.

النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}191. إذن الإصلاح في الأرض المستخلفة بني آدم فيها هو العمل الصالح، والفساد وسفك الدماء فيها بغير حقّ هو المنكر المنهي عنه، فمن انتهى كان في طاعة الله الحكيم الخبير ومن عصى كان على المنكر الذي لا يرتضيه الخالق ولا المخلوق المستخلف في الأرض. وبطبيعة الحال من ينتهي فهو خيرا له قال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}192.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}193. يستنبط من هذه الآيات الكريمة أن كثير من العمل المنكر الموقع للعداوة المنهي عنها هي أعمال شيطانية فمن يتقي ربّه تعالى لا يدخلها وينهى عنها ما استطاع إليه سبيلا، ويسعى إلى إصلاح كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى فساد في الأرض أو عداوة بين المستخلفين فيها، ولهذا النهي عن المنكرات عمل صالح يستوجب الإقدام عليه ولا

191 الأعراف 85.

192 الحشر 7.

193 المائدة 91. 93.

يستوجب أي تأخير عنه. ولذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}194 وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ}195.

9 . الصبر على المصاب: قال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) يقول الطبري في تفسيره: "وانه النّاس عن معاصي الله ومواقعة محارمه واصبر على ما أصابك من النّاس في ذات الله، إذا أنت أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدّنك عن ذلك ما نالك منهم"196. إذن الصبر على المصيبة التي من أسبابها أنك أقمت الصلاة وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فإنّ هذا الصبر في مواجهة ما يلاقى في سبيل إحقّاق الحقّ هو صبر على خير وليس صبر على شر، فاصبر وما صبرك إلا بالله قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}197، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}198، وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا

194 فصلت، 64.

195 الجاثية 15.

196 تفسير الطبري مجلد 20، ص 142.

197 النحل 125 . 128.

198 الأقحاف 35.

يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ ربّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى}199.

الصبر قبول بما يُفعل حتى ولو كان لهذا الصبر ثمن، ولذلك فإن الصبر على الحقّ حقّ على من كان صابرا، وواجب على من اهتدى إلى الاستخلاف في الأرض والوراثة في الجنّة، وفي الصبر مسؤولية تجاه ما تم الإيمان به بأنه الحقّ المطلق، ولهذا فقبول دفع الثمن في محله يؤدّي إلى الفوز بالنتيجة المترتبة عليه وهي النتيجة المنتظرة أو المرتقبة.

10 . النهي عن تصعير الخد للنّاس: قال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) التصعير التفات، وتصعير الخد للنّاس يدل على عدم احترامهم، ولهذا فيه من التكبر الذي هو معيب ولا ينبغي أن يكون سلوكا في المعاملة بين النّاس، إنه تقليل من شأن وتنقيص من مكانة بني آدم الذين خلقهم الله في أحسن تقويم، وأرادهم أن يكونوا كذلك بإصلاح الأرض وفلاحها ونهاهم عن الإفساد فيها، ولهذا فقد نهى الله عنه كما جاء على لسان لقمان وهو يعظ ابنه إلى ما يجب أن يكون عليه، وفي هذا الأمر تكون القدوة الحسنة بالتواضع للناس لا بالتكبر عليهم، ولأنّ في تصعير الخد التفات وعدم مبالاة وإهمال لمن صُعِرَ الخد من أجله، ولأن الله كرَّم بني آدم في البر والبحر، ولأن الله استخلف الإنسان في الأرض ويريده أن يعمل صالحا فيها حتى يرث الجنّة، فإن هذه المكارم تستوجب التفات وانتباه واهتمام لا تستوجب تقيل من شأن من كرَّمه الله وحملهم في البر والبحر مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

---

[199] طه 130.

تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}200، وقال تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا وَقُلِ الحقّ مِنْ ربّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}201.

11 ـ النهي عن المشي في الأرض مرحا: مصداقا لقوله تعالى: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) المشي في الأرض مرحا، سوء تقدير لما يجب عليه أن يكون المشي، وبالتالي سوء التقدير مخالفة تلفت الانتباه وقد تحسس الآخرين بالقلق أو تخيفهم ممن يمشي مرحا وكأنه المالك الوحيد للأرض، وهذه معيبة منهي عنها، وهي د\ليل عدم الاتزان الحركي وقد تكون بأسباب عدم الاتزان العقلي، ولهذا فهي تدل على أن أسباب غامضة وراء السلوك المتحرك بغير اتزان وتقدير، ولذا فالمخافة تتولد في نفوس المشاهدين للمارح في الأرض بغير تقدير موضوعي.

---

200 الإسراء 70 ـ 75.

201 الكهف 28، 29.

وفي تفسير ابن عبد السلام: "(مُخْتَالٍ) منان، أو متكبر، أو بطر. (فَخُورٍ) متطاول على النّاس بنفسه، أو مفتخر عليهم بما يصفه من مناقبه، أو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكّر الله تعالى فيما أعطاه"202.

إذن المشي المرح في الأرض فيه تكبُّر وتطاول على الآخرين، فالله يحب المتواضعين ولا يحب المتكبرين الذين يمشون في الأرض مرحا دون أن يحترموا النّاس الذين يمشون عليها هونا وفقا لما هو مأمور به.

وعليه أوصى لقمان ابنه بالتواضع والاتزان والاعتدال على الأرض التي استخلفه الله فيها بحكمته وخبرته. قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربّكَ مَكْرُوهًا}203.

الحكمة من عدم التكبر والتبختر إشارة إلى المكارم التي هي صفة الملائكة فإن عدم التكبر والتبختر صفتهم. ولذلك يخشى لقمان من أمرين أحدهما: التكبر على الغير، والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملا في نفسه فقال: (وَلاَ تُصَعّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) تكبرا (وَلاَ تَمْشِ في الأرض مَرَحًا) تبخترا (إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ) يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى النّاس عظمة نفسه وهو التكبر (فَخُورٌ) يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه، وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال (أَقِمِ الصلاة) ثم قال: (وَأْمُرْ بالمعروف) وفي

---

202 تفسير ابن عبد السلام، مجلد 4، ص 477.

203 الإسراء 37، 38.

النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال: (وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ) ثم قال: (وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحًا).

12 . القصد في المشي: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) والقصد في المشي اتزان واعتدال به ينال الماشي تقدير المشاهد واحترامه، وهو توسط واعتدال في مرضات الله تعالى.

والقصد مفضل في الأمور كلها: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أي كن وسطا بين الطرفين المذمومين، وقال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}204، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}205، وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}206.

وعليه القصد في المشي يبقي السلامة ويبلغ الغايات، وعدم القصد فيه لا يطول بالمشوار، ولذا في القصد هداية واتزان، وفي المبالغة مظهرية لا تليق بالسلوك الإنساني، وهذا لا يعني زمن الأوقات المقطوعة لمـّارسة الرياضة، التي تقوي العضلات وتسهم في متانة البنية وسلامتها من الأمراض، ولأن لنفسك عليك حقّ فأعط نفسك حقّها من ممّارسة الانشطة في أماكنها الخاصة بها، حتى تقدر

---

204 لقمان 32.

205 الإسراء 29، 30.

206 فاطر 32.

من الآخرين، وأمشي متزنا معتدلا مقتصدا حتى لا تكون في دائرة النقد نشاز.

13 . غض الصوت: قال تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) ويقصد بغضاض الصوت: تلطيفه بما يليق أن يكون الحديث، وعدم رفعه بما يزعج المستمعين، ولذا فقوله تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) تعني أنقصه حتى يتلاءم مع ما يليق بالاستماع المفضل. ومع أنّ الحمير من حيوانات الزينة والركوب مصداقا لقوله تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}207 إلا أن صوتها من أنكر الأصوات، ولأنّها لا تعقل فهي لا تقدر المستمع من يكون، ولهذا فصوتها الذي به لا يقدر الآخرون صوت مزعج منكور.

وغض الصوت يعتبر من باب العمل بالمكارم، وقد يتساءل البعض: هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي؟ فنقول: نعم، سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يصيبه عد، ولا يعلمه أحد وقوله: (واقصد في مَشْيِكَ واغضض مِن صَوْتِكَ) إشارة إلى المكارم، ثم قال تعالى: (إِنَّ أَنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير) ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي، لأنّ رفع الصوت يؤذي السامع وأمّا السرعة في المشي فلا تؤذيه وإن كانت تضيق بالنفس لدى بعض المشاهدين ولهذا كان النهي.

اللَّهُمّ يا الحكيم أجعلنا على الحكمة التي بها نستَعينك ونَسْتَهديك، ونعوذُ برضاكَ من غَضَبِك، فاغفر لَنا وارْحَمنا وتبْ علينا

---

[207] النحل 8.

إنّك أنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيم. اللهم يا الحكيمَ لا تجعلنَا من الذين فرَّقُوا دِينَهم وَكانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون. اللّهُمَّ اجعلنا مسلمِينَ لك، وَافِين لك بالميثاق الذي أخذتَ علينا وأن نكون قوّامين بالقِسْط شُهَداءَ على النّاس، اللهُمَّ يا الحكيم أهدنا صراطَك المستقيم، صراطَ الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصِّدِّيقين والشُّهَداء، الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا، وعلموا أنك أنت الجبّارُ الذي خَضَعتْ لجبرُوتِه الجبَابرة، والعزيزُ الذي ذلّتْ لعزَّته الملوكُ الأعِزَّة، وخَشَعت لمهَابة سَطْوتِه ذوُو المهابة، اللهم يا الحكيم ثبتنا بالقول الثابت واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فنعم المولى ونعم المصير، {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[208].

ولأنّ اليسع يعود إلى ذرية بعضها من بعض فقد هداه الله إلى الصراط المستقيم فكان مهتديا بهداية من الله، ثم اجتباه الله نبيا لهداية من جعله الله فيهم نبيا مُجتبى مصداقا لقوله تعالى: (وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ).

لقد بُعِثَ اليَسَعَ بالكتاب ليهدي قومه للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأعظم وهي توحيد الله وطاعته طاعة تامة ولا يُشرك به أحد، ومع أنّ اليسع نبيا فهو أيضا مؤتى الحُكم ليحكم بين قومه بالحقّ فيما هم فيه مختلفون (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة).

ولأنّ اليسع نبيا كريما فهو من الأخيار العظام الذين فضَّلهم الله على غيرهم بالاصطفاء والاجتباء وهم على اليقين من المتَّقين الأبرار الذين كُتبت لهم جنَّة عدنٍ مفتَّحة الأبواب إتمام لِما وُعِدوا به

[208] إبراهيم 27.

من خيرات ورزق كريم ليس له من نفاذ، مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}209.

---

[209] ص 48 . 54.

من
صفات النبي اليسع

1. خيّر:

الخيِّر هو من يكون في ذاته خيرا، وكأنّه المعدُّ على الخير وللخير، وهو المتميِّز عن غيره بالخيرية التي هو قد أُعدَّ عليها ليكون خيرا.

والأخيار جمع خيِّرٍ وهم المتميزون بما تميَّزوا به من خيرٍ ظاهرٍ في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وسلوكياتهم، وهم الذين يشهد لهم بالحُسن فيما يقدمون عليه أو يجتنبون عنه، ولذا؛ فالأخيار هم الذين لا أحد أفضل منهم وذلك لتصدرهم الدرجات العلا للفضيلة التي شاءها الله أن تنتشر وتسود بين النّاس لأجل أن تهديهم للتي هي أحسن وأفيد وأنفع وأقوم وترشدهم إلى كل ما فيه سداد الطاعة والأمر والنهي.

ومن هؤلاء الأخيار الذين تصدروا مراتب الفضيلة العالية هم الأنبياء العظام والرّسُل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم الذين منهم إليسع الذي نحن بصدد الكتاب عن صفاته الفاضلة التي بها تميَّز عن غيره كما غيره تميَّز بما هو فاضل، قال تعالى: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ}[210]، أي لم يكن هؤلاء هم الأخيار فقط، بل هؤلاء هم من الأخيار الأكارم، ولذلك نقول أن جميع الرّسُل هم أخيار ومن آمن بما جاءوا به هداية للحقّ هم أيضا من الأخيار.

---

[210] ص 48.

والخيّر من النّاس من يفعل الخيرات ويكثر منها ويسارعون بها، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}211.

ولذا؛ فمن يجاهد بالخيرات الحِسان يكتبه الله مع المفلحين الصالحين، {لَكِنِ الرّسول وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}212.

ومن يجاهد بالخيرات في سبيل الله تُكتب له العزّة وتتحقّق له الرفعة التي لا تُستمد إلا من الرفيع جلّ جلاله الذي يمتلك القوّة الساندة والداعمة للحقّ، والقوّة مدد خير تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون أفعال خير وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

ولأنّ العزّة لله في ذاته وصفاته وملكوته وملكه، لذا يكون استمدادها خير لمن استمدها من القوي المتين، مصداقا لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ العزّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}213؛ فلله العزّة يقول ابن منظور في لسان العربّ: "له القوّة والغلبة"214، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "نزلت هذه الآية بعد أن صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّرَ الخواطر؛ ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين وتبيَّن ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بنُ أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني: المهاجرين إلا كما

---

211 آل عمران 114.

212 التوبة 88.

213 المنافقون 8.

214 لسان العرب المحيط. ج 2، ص 764.

قال القائل سمِّن كلبك يأكلك. وقال: لأن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ بزعمه أنه هو ومن معه من المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن تبعه هم الأذلُّون"215.

لذا، جاءت العزّة خير مناصر لِمن هم على الحقّ وبه يهتدون، فبها يُعزَّز الحقّ ويمحق الباطل، وفي الآية السابقة يُضربُ المثل لذلك حيث عززت وظهرت الحقّيقة بصدق زيد بن أرقم، وكذب من حلفوا على صدقٍ وهم كاذبون، فزيد الذي كان على حقّ جاءته العزّة من الله تعالى تناصره، وعبد الله بن، أبي بنُ سلول جاءته الهزيمة نِتَاجَ كذبه ضعفا.

فـ(لله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) عُرِضت مرتَّبة على ثلاثة أبعاد خير:

البعد الأوّل للخير: أنَّ العزّة لله، فهي تُستمد منه جلّ جلاله، فلو لم يكن هو العزيز ما كانت العزّة خير، {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العزّة فَلِلَّهِ العزّة جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}216، من كان يريد الشرف والمكانة العالية والخير الكثير فعليه أن يتوجه إلى مصدرها عزّ وجلّ، مثل ما قال أبو الأنبياء إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمع أنّ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ربّ هَبْ لِي حُكْمًا والحقّنِي

215 عبد الرحمن ابن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، الرياض، دار ابن الجوزية، 1435 هجري 1027.

216 فاطر 10.

بِالصَّالِحِينَ}217، كل المطالبة الإبراهيمية هي لنيل العزّة والإمداد بالخير الرفيع ليكون عزيزا غير مهان في الدنيا والآخرة.

البعد الثاني للخير: العزّة للرسول صلّى الله عليه وسلّم، الذي اصطفاه الله وأعزّه بالكتاب مصدّقا لما بين يديه {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}218؛ فعزّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من عزة الله تعالى، ولذا فهو يمتلك القوّة من القوي عزّ وجلّ، والقوّة حُجّة خير، فكان الكتاب الرّسالة الخاتمة وهو مجمع الحُجَج الخيِّرة الذي يهدي للتي هي أقوم.

والبعد الثالث للخير: العزّة للمؤمنين الذين آمنوا بالله وكتبه ورُسُله صلّى الله عليهم وسلّم. والمؤمنون هم الذين آمنوا، وبإيمانهم أعزوا الإسلام والرّسول فأعزهم الله خيرا بالإسلام وبالرّسول.

إنّها عزة الخير المتبادلة فمن ينصر الله ينصره الله بالقوّة التي هي المحقّق للخير الكثير، {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}219؛ فقوله: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) ليعزَّنَّ الله من يعزه أي لا نصر بدون عزة، ومن يعزّه الله تعالى ينتصر، ومن يذله يُهزم؛ فالذين يراد لهم أن يُستخلفوا في الأرض يُمكِّنهم الله فيها، ممّا يجعلهم يعزّون من الله بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليرثوا الجنّة من بعد أن ورثوا الأرض خلائف طائعين مهتدين بالأفعال الخيِّرات الحِسان.

---

217 الشعراء 78. 83.

218 آل عمران 3.

219 الحج 40، 41.

وفي مقابل الأبعاد الثلاثة جاء الاستثناء للمنافقين حيث لا خير يأتي منهم وذلك لانعدام وجود الخيِّرين فيهم، بقوله تعالى: (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) لا يعلمون العزّة لله وللرسول وللمؤمنين، ذلك باعتقادهم أن العزّة لهم بما يمتلكون، ولو تفكَّروا لعرفوا أن الملك لله تعالى، وهؤلاء ومن هم في حكمهم ليسوا بالمستخلفين في الأرض، حتى وإن توارثوا فيها وامتلكوا نصيبهم منها، فليس لهم في الآخرة من نصيب؛ فهم لم يرثوا الأرض ولن يرثوا الجنّة.

ولأنّنا من المصدّقين نقول: نعم إن العزّة لله وللرسول وللمؤمنين، ونعم إنّ العزّة قوّة بها يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[220].

إنَّ الذي يطلب العزّة من الذليل لن يجدها، فإن أرادها فعليه بالمذل الذي بيده العزّة والقوّة وبيده الخير النافع الذي لا تحدُّه الحدود وهو القادر على كل شيء.

وعليه: فالذليل ضعيف لا يسعى إلى تحقّيق الخير وفعله؛ فهو يَخاف ولا يُخيف، يحتاج ولا يحتاج إليه، يأخذ ولا يعطي، يؤمر ولا يأمر، يجوع ويتألم مثلما يفرح ويغضب، فهذا ومن يكون على شاكلته إن أُستحكمَ ليحكم بين النّاس لن يحكم بالعدل، وذلك لفقدانه لصفات الخير والعزّة والقوّة والهيمنة والعلم والملك والإيمان والبقاء. إنه الزائل والزائل دائما يخاف من الزوال، ولذا فالفرق بينه

[220] آل عمران 26.

وبين المؤمن: إن المؤمن يؤمن بأنّه زائل باقٍ، زائل من الدار الدنيا، وباقٍ في الدار الحيوان، ولهذا يعد زواله من الدار الدنيا إيذانا بالبقاء الدائم الذي كان طوال حياته في انتظاره، أمَّا غير المؤمن فهو لا يرى بعد الممّات بقاء هانئا.

ولذا، فمن يكون من الأخيار الكرام ليس له بدا إلا أن يفعل الخيرات الحِسان ويُكثر منها، ولهذا فهو القوي المستمد للقوّة من القوي الأعظم فلا يخاف ولا يتأخر عن الإقدام لأداء الواجبات والإكثار من الحسنات التي هي الخير كل الخير، فالخيِّر هو يرزق ممّا رُزق به من الرزَّق المطلق جلّ جلاله الذي له صفتي خلق الرزق، وإيصاله لمن هم في حاجة، وهو الذي برزقه يضمن الحياة لمن يُراد له أن يُرزق، وهو المصدر الذي به تتعدد المصادر.

ومع أنّ للخير مصادر لا تُحصى إلا أننا ممّا نعلم لن نغفل عن الخيرات التي لا تُحصى في السماوات والأرض التي تُعد على رأس المصادر الرئيسة للخير الذي خلقه الله لمخلوقاته ولذا أبدع الله السماوات والأرض للرزق فهي التي منها ينزل الماء وعليها تنمو الحياة، ومنها تُستمد الأرزَّاق وتؤخذ؛ فالأرض مصدر خَلقنا ومصدر رِزقنا {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[221] فالأرض عظيمة كريمة بعظم الخالق الأعظم فهي مصدر خلقنا ومصدر رزقنا، (منها خلقنا ومنها نرتزق فنعيش).

ومع أنّ السماوات والأرض هما على رأس مصادر الخير الكثير، إلا أنّ ما بينهما مصادر خير كثيرة، فالرياح والسحاب والهواء التي بينهما هي أسباب مسخَّرة لمصادر أرزَّاق، وكذلك الماء

[221] الروم 20.

خير ومصدر خلق لِما فيه خير، قال تعالى: {وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}222.

ولذلك؛ فالرياح والسحب مصادر خير مصداقا لقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}223 إذا لو لم يرزق الله عباده بالرياح الخيّرة ما تلاقحت الأشجار وأثمرت، ولولا الرياح الخيّرة ما حملت المطر وأنزلت رزقا لكل كائنٍ حيٍ، وبالرياح أثيرت السحب وتناقلت من مكان لأخر لتحيي الأرض بعد موتها مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}224.

وإلى جانب المصادر الرئيسة للرزق المباشر للمخلوقات هناك مصادر أخرى ذات أهمية عالية لإبقاء الرزق وبقاء الحياة، إنها الشمس والقمر والنجوم والكواكب سبحانه لم يخلق شيئا عبثا، بل كل شيء خلقه وقدَّره بحسبان موزون قال عزّ وجلّ: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالحقّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}225. ولذلك فكما أن الأرض والسماء مصدرا رزق كبير كذلك فإن ما بينهما من الشمس والقمر

---

222 البقرة 164.

223 الحجر 22.

224 فاطر 9.

225 يونس 5، 6.

والكواكب والنجوم والليل والنهار هي مصادر أرزّاق خير كثير، فالحمد لله الذي خلق لنا عبر الحركة والزمان مصادر أرزاق دون أن تكون من أيدينا؛ فنحن لم نخلق السماوات العلا ولم نخلق الأرض ولن نبلغ الجبال طولا، ولم نخلق الشمس ولا القمر ولا الكواكب والنجوم، ولم نخلق الليل ولا النهار ولم نخلق الزمان ولا الحركة إنه الله الرزّاق جلّ جلاله.

ومع أنّ الإنسان خُلق من تراب الأرض كغيره من المخلوقات الترابية إلا أنه قد خُصَّ بأحسن تقويم وخُصَّ برزق حلال، فالطيور التي جعل لها الخالق رزقا جعلها بذاتها رزقا للإنسان في الحياتين ليأكل لحما ممّا تلذ الأنفس وتشتهيه، وهكذا جعل له رزقا من صيد البر والبحر وجعل له لحما حلالا ممّا حوله من ذوات اللحوم، وفوق ذلك من لبنها وريشها ووبرها وصوفها وشعرها وحريرها وجلودها يُرزق وله منها منافع.

ولأنّ مصدر الخير بالمطلق هو الله عزّ وجلّ تضرَّع عيسى صلّى الله عليه وسلّم ربّه فقال في الكتاب العزيز: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ ربّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآَخِرِنَا وَآَيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}226 فاستجاب له خيّر الرازقين بالمائدة الآية التي لم تكن لمن سبق ولن تكون لمن سيأتي من بعد عيسى وقومه الذين رزقهم الله في يوم عيدهم بها سعادة وفرحة خير كثير.

وعليه فالخيِّر هو من استمد صفة الخير من الباسط للخير المطلق، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

226 المائدة 114.

لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}227. بطبيعة الحال بما أن الله هو القادر المطلق فهو الباسط المطلق، يبسط الخير لمن يشاء ويقدر عليه كيفما يشاء متى ما يشاء سبحانه بكل شيء عليم، ولأنّه القادر على أن يبسط الرزق لمن يشاء فهو القادر على أن يقبضه عمن يشاء، ولذلك فهو القابض الباسط جلّ جلاله، {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}228؛ إذا فعل القبض دائما يترتب على فعل البسط الدائم، ولهذا فالأساس هو البسط وهو القاعدة، أما الاستثناء فهو القبض، فالباسط هو الذي بسط الوجود بداية ونهاية، ثم بسط الحياة قوّة فاعلة في الامتداد والحركة، ثم بسط التكاثر والترابط والتصاهر، ثم بسط العلم والمعرفة، ثم حصر ذلك بين البداية والنهاية، فبسط الموت لتقبض على الحياة، وبسط المرض ليقبض على الصحة، وبسط الجهل ليقبض على العلم وأخيرا سيقبض على الموت (يموت الموت) لتبقى الحياة بساطا دائما بلا نهاية لمن آمن واتقى وعمل صالحا في الحياة الدنيا وزرع فيها الخيرات الحسان.

وعليه في الأساس الخلقي البسط هو القاعدة، وسيظل البسط حياة سرمدية باقية بعد القبض على الموت بموتها، ممّا يجعل العودة الباقية للصحة الباقية والفرحة الباقية والنعيم الدائم والجنّة الواسعة والفيض الكثير في كل خير، فبعد موت الموت لا وجود للألم ولا المرض ولا الحاجة ولا الفقر، ولا الجهل، أي لا مكان لممّارسة العيوب والنقائص، فإن كنت الخليفة فبدخولك إلى دار الكمال ترى وجه ربّك الأعلى جلّ جلاله.

---

227 العنكبوت 62.

228 البقرة 245.

فالخليفة دائما هو غني ولا يمكن أن يكون من طبقة الفقراء، فهو الغني بإيمانه وإدراكه لرحمة الله تعالى، وهو ليس في حاجة لأحد غير الله تعالى، وهو الباسط يديه أمام الله ليشكّره على ما أعطاه من نعم العقل والبصر والسمع وهو المؤمن بأنه لن يموت قبل أن تتم أيامه التي ضمنها له الله تعالى، وهو يعلم أنه سيعيش في رحمة الله مكفولا وسيأتيه الخير من غير أن يحتسب وذلك لإيمانه المطلق بمن يرزق من يشاء بغير حساب.

ولذا، ألا يُعد مثل هذا المؤمن من الأغنياء؟ في مقابل من يمتلك ثروة واسعة وهو يعاني ممّا يعاني من أمراض أو خوف دون أن تنفعه أمواله وما يكتسب؛ ألا يعد هذا ومن هم على شاكلته هم الفقراء الذين هم في حاجة؟ ولو أدركوا لأدركوا رحمة الله هي الخير الذي يجب الالتجاء إليه.

وعليه: فالبسط والقبض صفتان لذات واحدة، ولذا فهما يتزامنان في أداء الفعل وممّارسته، وهذا الأمر يجعل الرحمة ظاهرة في تزامنهما، فعلى سبيل المثال: من البشر من يمتلك مالا وعلما وقوّة، فمع أنّ هذه علامات خير (العلم والمال والقوّة) إلا أنه إذا كان المستخدم لها ليسوا على خير، ستكون نتائجها مؤذية على الآخرين، ممّا يجعل القبض على المفسدين في الأرض رحمة على المصلحين فيها، أي في الزمن الذي يتم فيه القبض على المفسدين في الأرض في ذات الزمن يسعد المصلحون فيها وينبسطون رحمة. ولنأخذ قصة السيد الخضر مع موسى عليهما الصّلاة والسّلام حينما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار الذي كاد أن ينقض لولا أن بناه السيد الخضر صلوات الله وسلامه عليه بالرغم من اعتراضات سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم المتوالية، والتي جاءت الإجابات

عليها في قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[229].

من هذه الآيات الكريمة نلاحظ تزامن القبض مع البسط، فالقبض على السفينة بإعاقتها بسط بقائها للمساكين الذين هم في حاجة، ولو أخذها الملك غصبا لفقدوا مصدر عيشهم الذي لم يرتق بهم إلى مستوى الوفرة.

أمّا القبض على روح الغلام غير الخيِّر وقتله فقد بسطت أبواب الرحمة على أبوية بإنجاب أبناء مؤمنين صالحين عوضا عن الابن الكافر.

أمّا الجدار فكان بناؤه من أجل أن يحفظ الكنز الذي دفنه أبوهما من قبل أن يموت، ولأنهم صغار ولم يبلغا سن البلوغ التي تمكنهما من الاعتماد على نفسيهما أقام السيد الخضر هذا الجدار الذي كاد أن ينقضَّ لولا أن بناه. ولهذا كان القبض على انقضاض الجدار بسطة بقاء الكنز مستورا ومحفوظا عن أعين السرَّاق الذين لو سقط الجدار لتمكنوا من أخذه وسرقته دون أن يحسَّ اليتيمين أو يعرفا أن لهما من أبيهما كنزا ينقذ حياتهما ويحقّق لهما بسطة الحياة بعد أن يقبض عنهما آثار الحاجة والفاقة.

---

[229] الكهف 79 . 82.

ولهذا، فالخيّر هو الجواد الكريم الذي يجود بالممكن ويكرم بما هو أنفع وأفيد، ومع أنّ الجواد هو الكريم إلا أن الكرم يتصرف على وجوه فيقال لله تعالى كريم ومعناه أنه عزيز وهو من صفات ذاته ومنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}230. أي العزيز الذي لا يغلب، ويكون بمعنى الجواد؛ والكريم بمعنى المفضل في قوله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}231، أي أفضلكم، ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}232. أي فضلناهم، ويجوز أن يقال الكرم هو إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلا كان أو كثيرا.

والجود خير وسعة عطاء ومنه سمي المطر الغزير الواسع جودا أي خيرا، ويجوز أن يقال الكريم هو إعطاء من يريد إكرامه وإعزازه.

ونحن نقول:

الكريم والجواد لا فرق بينهما إنهما صفتان لاسم واحد هو الله عزّ وجلّ، ولذا؛ فالكريم هو الجواد بالتمام، وهما الأول والآخر، إلا أنّ الفرق بين فعل الكرم وفعل الجود: الكرم صفة لفعل العطاء قبل انتظار الطلب أو قبل توجيهه، والجود فعل عطاء مترتب على فعل الطلب، فيكون فعل سريع الإجابة لمن تضرع أو تقدم بطلب، ولذلك كلا الصفتين حسنتان.

---

[230] الانفطار 6.

[231] الحجرات 13.

[232] الإسراء 70.

والخليفة الكريم هو من لا ينتظر طلب محتاج إذا علم بحاجته، وإذا لم يعلم يجود بعد علم ومعرفة، ولذا فالفرق كبير ودون مقارنة فقط للتبيان، الفرق كبير بين الكريم والجواد المطلق وبين الكريم والجواد بالإضافة، الأول جلّ جلاله في الحالتين هو العليم الذي بيده أمر الخير المطلق، ولذلك فهو يعلم من هو في حاجة ويكرمه بمكرمة، ومن هو مؤمن به ويتوجه إليه بالطلب والدعاء ويستجيب له بالجود الواسع.

وعليه: الكريم يعطي خلقه دون طلب سواء بشرا أو حيوانا أو طيرا أو سمكا أو نباتا وكل من هو في حاجة للحياة التي يعلمها الكريم جلّ جلاله.

والخليفة الذي يشاءه الله أن يكون خليفة له في الأرض هو فاعل الخيرات وهو الكريم الذي يجود على من هم في حاجة كلما علم بحاجتهم دون أن ينتظر طلب منهم ودون أن ينتظر وجاهة أو مقابلا مهما كان، إنه كريم لوجهه الكريم عزّ وجلّ من خيراته الكريمة التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[233]. في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى . قوله تعالى: (قول معروف) أي قول معروف أولى، وهو القول الذي أعتاده النّاس وتعارفوا عليه بأنه مملوء بالأفعال والخيرات الحسان المرغوبة من قبلهم وهي في درجات التفضيل القيمي عندهم ممّا جعلها محببة إليهم ويرغبون أن تسود وهم يتوادون بها في كل خير.

---

[233] البقرة 263.

والخيّر الكريم الجواد الذي إذا أعطى لا يمنن، وإذا تصدَّق أو عمل معروفا عليه بتقدير من له قدمت الصدقة أو المعروف تجنبا لأي تقليل من شان المحتاجين الذين هم في حاجة لمن يمد لهم يد العون الطيبة بالخير الطيب، وفي هذا الأمر.

والخيّر هو الذي يدرك الحقّيقة ويُقدِم على فعلها ويعمل بها دون انحياز لمظلمة، ويقول الحقّ ولا يتعصب لرأي في دائرة الشكّ، وهو الذي يقوم بالمكرمة، فيحكم بين النّاس إذا حكم بينهم بالحقّ العدل، وهو الذي يُقدِّم المكرمة دون طلب منه.

وعليه: فكل ما حاولنا استعراضه وتحليله بموضوعية علمية فهو على مستوى الخيّرين الأكارم من الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم الذين منهم سيدنا إلياس الذي وصفه الله تعالى بأنه من الأخيار فإن هؤلاء الرّسُل هم على ما هو أفضل وأعظم ممّا ذكرنا واستعرضنا، ولذا، ليس لنا بدا إلا أن نصلي ونسلِّم عليهم جميعا دون أن نفرِّق بين أحدٍ منهم، والحمد لله ربّ العالمين.

2 . مُفضَّل:

المفضَّل هو الذي تميَّز بما تميَّز به عن غيره في المقارنة فكان الخيار عليه من دونهم، ولهذا كان سيدنا إلياس من المفضَّلين على العالمين مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}[234].

[234] الأنعام 86 . 88.

وفي اللغة الفَضْل والفَضِيلة" معروف ضدُّ النَّقْص والنَّقِيصة والجمع فُضُول، وفاضَلَني ففَضَلْته أَفْضُلُه فَضْلا غلبته بالفَضْل وكنت أَفضَل منه وتَفَضَّل عليه تَمَيَّز، والتفضيل تقديم لمن هو على الفضيلة على غيره من الذين لا فضيلة لهم، وتفَضَّل بمعنى أَناله من فضله وأَحسن إِليه والإِفْضال الإِحسان، ورجل مِفْضال كثير الفَضْل والخير والمعروف"235.

ومن يكون على الفضيلة قول وعطاء يُعد ذا فضل، وذو الفضل هو الله تعالى وهو مصدر كل فضل وهو المعطي دون انتظار مقابل، فمن فضله كان بعباده رءوف رحيما وكان لِما خلق رزّاقا كريما.

ذو الفضل اسم من الأسماء الحسنى التي سمى بها نفسه جلّ جلاله مصداقا لقوله تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}236.

فقوله تعالى: (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي صاحب الفضل الواسع الذي لا يساويه فضل مهما تعدد.

وجاء الفضل معرَّفا للتخصيص والتحديد فهو لم يكن فضلا مجهولا أو نكرةً بل هو الفضل الذي من عند الله، ولهذا لا فضل للمقارنة مثل فضل ذو الفضل العظيم.

وقوله تعالى: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) تدل هذه الآية الكريمة

---

235 لسان العرب، ج 11، ص 254.

236 البقرة 105.

على ما في نفوس الكافرين والمشركين من حسد وحقّد على الذين آمنوا، فهم لا يحبُّون الخير الذي أفاض به ذو الفضل على الذين اسلموا وجوههم إليه واحدا أحدا، ولأنّه ذو الفضل العظيم مدَّ على وجه الخصوص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالخيرات الحسان، ولذا فإن ذو الفضل العظيم لا ينتظر من أحدا رأي ليؤتي من رزقه لمن يشاء أو لم يؤته إنه مالك الملك والأمر يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممّا يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}237 وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}238.

إذا لو لم يكن ذو الفضل العظيم ما كان له أن يؤتي الملك والرزق لمن يشاء بغير حساب؟

بدون شكّ إيتاء الملك والحكمة والرزق والعلم والسلطان لا يكون إلا من ذو الفضل العظيم جلّ جلاله.

قال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}239.

---

237 آل عمران 26، 27.

238 الإسراء 30.

239 آل عمران 73، 74.

في مضمون هذه الآية الكريمة تنبيه على أن الإيمان بالله لا فرق فيه سواء أكان في رسالة إلياس أم موسى أم عيسى أم محمّد أم الذين سبقوهم من الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فمن آمن بأي من الأنبياء السابقين عليه أن يؤمن برسول الكافة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبرسالة الإسلام الخاتمة وألا يكون من المشركين أو الضالين.

وقوله: (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) أي الهداية باتباع الرّسول والرّسالة الخاتمة هو الهداية التي هي من عند الله فلا يحقّ الاعتراض أو الاحتجاج، أي لا يحقّ للمخلوق أن يحتج أو يعترض على مشيئة الله واصطفائه للأنبياء والرّسُل، ولذا فالمؤمنون لا يفرّقون بين أحدا من رسله مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[240]، وقوله تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[241].

وقوله: (أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) أي أن لا دين حقّ إلا من الحقّ تعالى، ولهذا الرّب واحد والدين واحد وإن تعدد الأنبياء والرّسُل فالدعوة واحدة لواحد أحدا لا شريك له، ولأن الأمر كذلك

---

[240] آل عمران 84 . 86.

[241] البقرة 285.

فلماذا إذا الاعتراض والاحتجاج والكفر والشرك؟ بل يفترض أن تعم الفرحة كل الذين سبق لهم أن آمنوا بالنبي أو الرّسول السابق للاحقّ من بعده.

وقوله: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) تعود هذه الآية على سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم ليقول أن ما آتاه من الله تعالى هو من فضله تعالى ولذا فالفضل يستوجب الحمد والشكّر، خاصة لمن عمَّه الفضل العظيم، ليكون رسولا بالكتاب الحكيم للناس كافة، ولأنّ الأنبياء والرّسُل يصطفون من الله اصطفاء فهم المفضَّلون الذين طاعتهم واجبة في طاعة الله تعالى، فكيف للبعض كفرا وشركا ألا يعقلون!! أم على قلوب أقفالها؟ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}[242].

وقوله (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) لأن الله يصطفي الرّسُل والأنبياء اصطفاء فالأمر فيه اختصاص بالرحمة والفضل لمن يشاء من عباده الصالحين، ولأن الأمر بيده تعالى فلماذا إذا الكفر والشرك وعدم الطاعة لله ذو الفضل العظيم؟

---

[242] محمّد 23 . 29.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}243، من غير شكّ من يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ويحفظه من كل مكروه وسوء ومكر وكيد كما حفظ إلياس ويوسف وغيرهم من الأنبياء الذين فضَّلهم الله على العالمين وهو على كل شيء قدير.

إذا ما هو الفضل العظيم؟

الفضل العظيم لا يحصى ومنه:

. إيجاد المخرج من كل ضيق.

. الحفظ من كل مكروه وسوء.

. المكر بمكر الماكرين.

. كيد الكائدين.

. الرزق من غير احتساب.

. إيتاء العلم.

. إيتاء الملك.

. إيتاء الحكمة.

. إيتاء السلطان.

. منح القوّة والقدرة في دائرة الممكن.

---

243 الأنفال 29، 30.

. نعمة العقل.

. الخلق في أحسن تقويم.

. نعمة السمع والبصر.

. نعمة التدبر والتفكر والتذكر.

. نعمة الاستغفار.

. نعمة التوبة.

. نعمة الطاعة.

. نعمة الإيمان.

. الإسلام.

. نعمة الصبر.

. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

. الأمر بالعدل.

. الإحسان بالوالدين.

. اتخاذ الأنبياء والرّسُل الكرام أسوة حسنة.

. عدم التفريق بين أنبيائه ورُسُله.

. التراحم بين النّاس.

. إغاثة الملهوف.

. قول الحقّ وفعل الحقّ.

. الجزاء بالجنّة.

ولأنّ الفضل يؤتي من الله إيتاء لمن يشاء من عباده الصالحين لذا، كان تفضيل اليسع مؤسس على الفضل المؤتى إيتاء، (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، هذا التفضيل لم تكن بدايته من اليسع بل أمر التفضيل كان من آباءهم من قبلهم (وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) واستمر من بعدهم أيضا في أبناءهم وإخوانهم الذين تم اجتبائهم رُسُل كرام، قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}244. قوله (سَابِقُوا) جاءت للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها النّاس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) توجب لكم نيل المغفرة منه وتحقّق لكم الفوز بالجنّة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله صلّى الله عليهم وسلّم (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنّة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنّة هما الفضل من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء ولهذا الجنّة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}245.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

244 الحديد 21.

245 فصلت 35.

رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[246].

الذين آمنوا هم من أهل الكتاب الذين يُراد لهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمّد كما آمنوا من قبله بموسى وعيسى صلّى الله عليهم وسلّم، فإن آمنوا يضاعف لهم الثواب (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) الكفل الأول بسبب إيمانكم بموسى وعيسى والكفل الثاني بسبب إيمانكم بمحمّد صلّى الله عليهما وسلّم وكذلك يدل معنى الكفلين من بين ما يدل عليه هو فوزكم في الدارين حيث طاعة الله واتباع الرّسُل دون تفريق بينهم في الحياة الدنيا ثم الفوز بالجنّة في الدار الآخرة.

وقوله: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) وهذا النور هو من فضله تعالى الذي يؤتيه لمن يشاء متى ما شاء وكيفما شاء، إنَّه نور الهداية واليقين والطاعة واتباع الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنه النور الذي يُمكِّن المؤمن من دخول الجنّة ليزداد المؤمن نورا على نور، وهذا النور كان بأسباب الإيمان والطاعة والمغفرة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) إي يغفر لكم من بيده أمر المغفرة فهو على كل شيء قدير.

وقوله: (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء متى ما يشاء كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك ولذا فهو ذو الفضل العظيم، وليعلم أهل الكتاب أن الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمّد وأمته لتكون الرّسالة خاتمة وللناس

---

[246] الحديد 28، 29.

كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتبعوا السبيل الحقّ الذي جاء به محمّد نبيا ورسولا.

وقوله تعالى: (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) كل مسلم بالحقّ لا يشكّ في أنَّ الفضل بيد الله ولهذا يتوجَّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة وكل مؤمن على الحقّ يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحقّوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[247].

من فضل الله على عباده بعث محمّد صلّى الله عليه وسلّم في الأميين رسولا منهم، ومن فضله تعالى أن محمّد صلّى الله عليه وسلّم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة نقول بحقّ أن هذا لهو الفضل العظيم فالذين كانوا في الضلال أصبحوا على الهداية مؤمنين بالله ورُسُله وكتبه، قال تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[248]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي

[247] الجمعة 1 . 4.

[248] البقرة 2.

نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}249.

وعليه كل ما تقدم هو من فضل الله على عباده الذين أخصهم بالعناية والهداية (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

الله الذي بيده الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليتصدَّق ويتزكَّى وينفق كل حسب استطاعته وما يملك من رزقٍ، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من فضل الرزاق المطلق تعالى، ولذا فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتى من عند الله فليتق الإنسان ربّه ولينفق ممّا آته من رزقه، قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ}250.

ولذلك علاقة قوية في المفهوم بين الفضل والرزق والعزّة فهي كلها تؤتى من ذي الفضل إيتاء، ولذا فالعزّة فضل ورفعة لا تُستمد إلا من رفيع يمتلك القوّة الساندة والداعمة، والقوّة مدد تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حقّ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

وخاطب الله النّاس بقوَّتهِ وعزَّتهِ ليُبيِّنَ لهم أنه ذو الفضل، ولا متصف بالقوّة والعزّة بالمطلق غيره فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا

---

249 النساء 136.

250 الطلاق 7.

ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}251 فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفا وهو القادر على كل فعل، فإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون فالأمر عليه يسير، إنَّه المالك للقوّة والعزّة والفضل، والمؤمن هو المدرك الذي لا يعبد ضعيفا، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء إن داعٍ دعاها، وهي ضعيفة معرضة للزوال، ولهذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفا، ولا يعتقد في القوي إلا قويا.

وبما أن الله ذو الفضل فهو بفضله جعل الإنسان خليفة في أرضه الذي قال: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}252.

إذا الخليفة قوي عزيز بالإضافة، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه، والصفات قوّة تربّط الصفة بالموصوف كما تربّط الخليفة بمستخلفه؛ فالله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه، وأجل الآخرين الذين تربّطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبة وألفة وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة وعلاقات ضمير، ليكون خليفة مُصلحا في الأرض. ومن يفسد فيها من بني الإنسان يعد مخلا بشروط استخلافه فيها، مصداقا لقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}253 لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء

---

[251] الحج 74.

[252] البقرة 30.

[253] ص 26.

والصالحين وملَّكهُ الله من مُلكه ليحكم بالحقّ. والحكم بالحقّ، هو: الحكم بالبينة، أي بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه، ولا ميل وانحياز، والحكم بالحقّ الحكم بما أمر الله تعالى، لا بالمزاج والعاطفة الشخصانية، بل بالعدل الحقّ، ومن يحكم بما أنزل الله لا يمكن أن يكون مثل أولئك المفسدين في الأرض؛ فأولئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}254 لا يمكن المساواة فالمصلحون في الأرض لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها، وهكذا لا يمكن مساواة المتَّقين الذين آمنوا بالله ورسوله مع أولئك الكفرة الفجرة. المساواة في هذه الحالة ظلم كبير، لا يرتضيه الله ولا يرتضيه العباد، {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}255.

إنَّ الملوك والسلاطين والحكَّام بجميع نُظمهم المتعددة هم ضُعفاء إن لم يحكموا بما أنزل الله تعالى، فالحكم القوي يستمد قوته من القوي إذا أراد أن يحَكم بالعدل، والحَكم الضعيف لا يُستمد إلا من ضعيفٍ، ولذا فمن يستعن بالله لا يُغلب ولا يُهزم. قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}256.

هكذا من يريد أن يكون حاكما عادلا فليخاف ذو الفضل الذي مكَّنه من ذلك ليكون عادلا بالحقّ، فبمخافته لله لا يخاف ولا

254 ص 29.
255 البقرة 134.
256 الحديد 25.

يخشى أحدا في إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، وإذا كان كذلك ينال العزّة من الله ومن العباد، ولذا فالنّاس لا تخاف ممن يخاف الله، النّاس تخاف من الذين لا يخافون الله، فالذي يخاف الله يُخافَ منه لا يُخافَ عليه، والذي يخاف الله لا يوجد في قاموسه السياسي مفردات القهر والظلم وأكل أموال النّاس بالباطل، ولهذا يخاف عليه من الظالمين والمنافقين والمزوِّرين للحقّائق. أمَّا المؤمنون فهم الذين بالعدل يسعدون وهم الذين لا تستوي عندهم الحسنة والسيئة، وهم الذين لا يفسدون في الأرض التي ارتضاها لهم الله ليكونوا فيها خلائف ويرثوها ليصلحوها ويعيشوا أعزاء حتى يرثوا الجنّة من بعدها بما يعملون من إصلاح في القول والفعل.

3. مُجتبى:

الاجتباء ليس باختيار كما يظن البعض، بل هو استخلاص الخيِّر من مجموعة الأخيار الكرام لأداء رسالة خالدة أو حمْل نبأ عظيم أو جمع الاثنين معا عندما يكون المجتبى نبيا رسولا.

ولذا فالاجتباء تخصيص لحمْل النبأ العظيم أو الرّسالة الخالدة أو كليهما، والمستخلص هو المجتبى المخلص لِما أجتبي إليه (نبأ أو رسالة من عند الله تعالى).

والاجتباء هو استخلاص نبي أو رسول من بين مجموعة من العظماء الذين تتوفَّر فيهم معطيات الاجتباء، ولكن الذي تم اجتباءه من بينهم هو المفضَّل والمكرَّم بالنبأ والرّسالة، ولهذا من يتم اجتباءه ينبغي الصّلاة والسّلام عليه، كما هو حال آدم الذي بعد أن اجتباه الله على الملائكة والجن طلب الله من الملائكة السجود لآدم فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس لم يسجد لآدم بعد أن تم اجتباءه وتفضيله عليهم جميعا، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}257.

وعليه: المجتبى هو المخصَّص الذي أخصه الله بالبيِّنة فجعله نبيا وأرسله إلى من يتعلق أمر البيّنة بهم.

والمجتبى لا رأي له في اجتباءه وهو من تتوفر فيه اشتراطات حمْل النبأ والرّسالة وتحمُّل ما يترتب على حملهما من أعباء ومسؤوليات جِسام مع وافر الهداية والطاعة لله تعالى، ولهذا فالمجتبى المخصوص بالاجتباء لم يكن على النقص في شيء فهو على القوّة والقدرة والاستطاعة مع وافر الصبر.

والبحث في مفهوم ودلالة الاجتباء يرشدنا إلى معرفة المجتبي الذي من ورائه وهو الله جلّ جلاله، ويرشدنا أيضا إلى معرفة المجتبى وهو النبي والرّسول، كما هو حال اليسع الذي اجتباه الله ليكون نبيا كريما مرسلا لهداية قومه، وكل الرّسُل هم مجتبون أخيار كرام مصداقا لقوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ

[257] البقرة 30 . 34.

وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}[258].

4 . مهدي:

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ.

وفي اللغة: "هَداه هُدًى وهَدْيا وهِدايةً وهِديةً وهَداه للدِّين هُدًى وهَداه يَهْدِيه في الدِّين هُدًى، والمَهْدِيُّ الذي قد هَداه الله إلى الحقّ"[259].

المهدي هو من هداه الله هداية ليكون رسول حقّ كما هو حال سيدنا اليسع الذي هداه الله كما هدى غيره من الرّسُل الكرام صلّى الله عليهم وسلّم، قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ

---

[258] الأنعام 83 . 90.

[259] لسان العرب، ج 15، ص 353.

عِبَادِهِ}260. ولأنّ الهادي لسيدنا اليسع صلّى الله عليه وسلّم هو الله عزّ وجلّ (وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكان اليسع مهديا على الصراط المستقيم الذي من هُدي عليه كان أسوة وقدوة حسنة لغيره من المؤمنين، ولأن هُدى الله وفقا لمشيئته كان اليسع مهديا في مشيئة الله أسوة حسنة لقومه فاهتدى منهم من اهتدى وضل من ضل، {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}261.

الهادي هو مغيِّر الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، ومن يهديه الله تكون له الهداية صفة كما كانت لسيدنا اليسع الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم فكان رسول هاديا لقومه بالتي هي أحسن، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}262، ولذا فالهادي هو منزِّل نصوص وحِكم وكَلِم الهداية لخلقه حتى لا يضلون {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}263 وإن ضل بعض منهم من بعد الاهتداء؛ فإن الهداية من ورائه تلاحقّه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأنّ الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب، وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)،

---

[260] الأنعام 85 . 88.

[261] الزخرف 40.

[262] الإسراء 97.

[263] الروم 53.

وليس كهديه هُدى، فهو المنزَّه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

ولأنّ الله خلق خلقا من خلقه وجبلهم على الطاعة، كما جبل سيدنا اليسع وغيره من الأنبياء والرّسُل الكرام على الهداية والطاعة؛ فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}264، فيسبح لله كلّ ما في السماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعًا وكرهًا، فهو (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ولأن الهادي هو القدوس فهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون ويصفونه به ممّا ليس من صفاته وهو (الْعَزِيزِ) الشديد في انتقامه من أعدائه و(الْحَكِيم) في تدبيره لأمور خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

وعليه: فالهادي هو الذي أرسل الرّسُل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}265، وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

---

[264] الجمعة، 1.

[265] فصلت، 17.

ولذا جاء الدين الإسلامي العظيم للهداية والإصلاح حاكى عقول النّاس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدّي بمن يراها إلى عبادة الله وسلوك مسلك الحقّ وهذا النوع من الهدي موجّه للأنبياء والنّاس على السواء، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}266 وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يوميا ولكي تكون مثل هذه الأشياء من الدلائل الهادية أنزلها الله في كتابه الحكيم (الرّسالة الخاتمة) اقتداء بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فإن الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}267 أي فأذكر يا محمّد قصة إبراهيم يوم قال لربّه: أرني بعيني كيف يكون إحياء الموتى، فقال له تعالى: أَوَلَمْ تؤمن بأني قادر على إحياء الموتى؟

قال: بلى، علمت وصدّقت، ولكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي.

قال الله تعالى: خذ أربّعة من الطير فضمها إليك ثم جزّئهنّ بعد ذبحهن واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءا، ثم نادهن فسيأتينَك مسرعات وفيهن الحياة كما كانت، واعلم أن الله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل شيء، وهذه الأمور من المعجزات التي لا تحدث إلا على أيدي الأنبياء.

---

266 البقرة 260.

267 الذاريات 55.

ولو أنّنا دققنا النظر يوميا فيما حولنا لرأينا كثيرا من المعجزات في أنفسنا وفي نظام الكون والحياة، لكان الإحياء والموت لنا شيء عادي وأصبحت مثل هذه المعجزات عندنا أمورا عادية، ولذا فإن كثيرا من المخترعات الحديثة لو أخبرنا عنها أحدٌ قبل مدة من الزمن لما صدقناه، مع أنّها من صنع الإنسان، فكيف بقدرة الله العظيم جلّ جلاله؛ فهو بهذه الاختراعات قد وفَّر لنا أدلة جديدة على وجوب الاهتداء إليه والإيمان به.

- ومن أدوات الهداية الدلالية: الآيات الكونية ومنه الشمس والقمر والنجوم والبحار والسماء والأرض والنبات وغير ذلك كثير وكلها تدل على أنه الواحد الأحد جلّ جلاله قال الله تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا ربّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيّتٍ فأنزلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[268].

الله هو الخالق وهو الهادي لِما خلق بلا منازع ولا شريك وقد أوجد في الخلق مبدأ الفطرةِ ليعلم النّاس المؤمن والكافر أن الخالقَ والمالكَ الذي خلق الأجرامَ العلوية والسفليةَ في ستة أيام مع أنّه القادر على إبداعها دفعةً واحدة، ولكن لمشيئة هو يعلمها (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) وهذا الزمن

[268] الأعراف 54- 57.

المذكور في الآية دليلٍ على الاختيار والعظة، وحثٌّ على التأني في الأمور، ثم استوى على العرش والاستواء صفة لله تعالى بلا كيفية، فقد استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّها عن الاستقرار والتمكن، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملِك، ومن الآيات ذات الدلالة الهادية على أنه الله ربّ العالمين قوله تعالى: (يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ) يغطّيه به (يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) يعقُبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحثيثُ من الحث أي السرعة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ) فهو سبحانه القادر الخالق خلقهن حال كونهن مسخراتٍ بقضائه وتصريفِه، (أَلاَ لَهُ الخلق والأمر) فإنّه الموجدَ للكل والمتصرِّفَ فيه على الإطلاق (تَبَارَكَ الله ربّ العالمين) تفرَّد تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظّم بالتفرد في الرّبوبية، فلا إله غيره ولا ربّ سواه.

ولعلم لا نعلمه بالمطلق هدى من هدى على الصراط المستقيم، والذي يُهدى على الصراط المستقيم تكون هدايته غير من اهتدى هداية مسلم قد لا يكون للإيمان في قلبه حيِّزا كما هو حال سيدنا اليسع الذي هداه الهادي إلى الصراط المستقيم؛ فكان خير هاديا بالبيِّنة التي أرسل بها لقومه، ومن آيات هداية الهادي جلّ جلاله إنزال المطر بمقدار معين حتى تستفيد الأرض والخلق الذي عليها بالماء فيشربّون ويزرعون ويصلحون الأرض، وحتى إن هم أهملوا تلك الأرض فالله ينبت منها النبات الطيب مثل الزيتون والنخيل والأعناب والرمان والتين، وغير ذلك من الثمار التي فيها لاشكّ فائدة عظيمة لخلق الله على الأرض، ومن آيات هدايته الليل والنهار والشمس والقمر تلك الدلائل الباهرة التي لابد لكل متأمل لها أن يدرك أنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم

يكن له كفوا أحد، وغير ذلك من دلائل شاهدة على أنه الواحد الهادي للتي هي أحسن قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ}[269]، وهذه آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان، وهذا انتقال للاستدلال والاهتداء بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان. ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كافٍ في الاستدلال والاسترشاد بها على الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة.

ومن الشواهد التي تصل بالمرء إلى الهداية عن طريق التأمل الخارجي للوصول إلى الحقّ، قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون}[270]. فقوله: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) الله سبحانه وتعالى أخرج النّاس من بطون الأمهات واستثنى من ذلك آدم صلّى

[269] النحل 10- 14.

[270] النحل 78، 79.

الله عليه وسلّم، وقد فطر الله الإنسان على الفطرة التي هي كما أسلفنا الهداية الدلالية، وفي مرحلة الفطرة جعل الله الإنسان خاليا من العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلا ثم وضع له أدوات للهداية الذاتية التي لا يفترق فيها إنسان عن آخر فقال تعالى: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) فالله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم أيها النّاس هذه الحواس لتهتدوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب وقوله الحقّ، والسُنَّة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها وتهتدوا إلى ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ومعجزاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على واحديته وتهتدوا إليه طائعين غير عاصين. وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتدركوا القول الحقّ والفعل الحقّ، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل واحديته، فالله الهادي خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، من ضيق الأحشاء إلى سعة الأنحاء، وجعل الحواس أدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، ومن آمن به واهتدى إلى سبيله كان من المستخلفين فيها.

وقوله تعالى: (لعلكم تشكّرون) الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحواس للوصول إلى الهداية الحقّيقية إلى الله وإنعام الله على الإنسان بهذه الحواس ليستعملها في شكّر من أنعم بها عليه، ثم نجد دليلا كونيا ليهتدي به المتأمل في خلق الله (ألم يروا إلى الطير مسخرات) مذللات طائعات لله الذي هداها لسر الطيران بأبسط الوسائل التي تفوق قدرة الإنسان، وإن حاول أن يحاكيها فلا شكّ إنه لن يصل إلى قدراتها التي ذللها الله لها تدليلا ذاتيا (في جو السماء) في الجو وفي الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء المعد كميدان

مناسب لطيرانها (ما يمسكهن إلا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها في جو السماء، وهذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخرا سخرها، وهاديا هداها ومذللا ذللها، وممسكا أمسكها في حال طيرانها وحركتها في الهواء، وهو الله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وقد أفرد وخصص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم فيهتدون إلى ما يشاءه الله الهادي جلّ جلاله.

ومن الشواهد التأملية التي تؤدّي إلى الهداية والإيمان بالله موقف سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم وهذا ما يبيّنه قول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحق بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[271].

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَبا قَالَ هذا ربّي) ويقال: إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام أهذا ربّي؟ (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: غاب الكوكب (قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين) يعني: لا أحب ربّنا يتغير عن حاله

[271] الأنعام 75 - 81.

ويزول (فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغا) يعني: طالعا؛ فرأى ضوؤه أكثر (قَالَ هذا ربّي) على سبيل الاستفهام (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: نقص ضوؤه حين أسفر الصبح (قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي ربّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين) أي لئن لم يحفظ ربّي قلبي، لقد كنت اتخذت إلها ما لم يكن إلها (فَلَماًّ رَأَى الشمس بَازِغَةً) أي طالعة قد ملأت كل شيء ضواء: (قَالَ هذا ربّي هذا أَكْبَرُ) يعني: أعظم وأكثر نورا (فَلَمَّا أَفَلَتْ) غربّت. علم أنه ليس بربّ دائم.

ولأنّ الهادي المطلق هو الله فهو الذي "بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتى أقروا بربّوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لابدّ له منه في بقائه ودوام وجوده، والهدى ضد الضلال وهو الرشاد والدلالة"272.

إذا الهدى من الهادي وهو الطريق الحقّ كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}273، أي أنّ الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته بيَّن طريق الهدى من طريق الضلال، وأعطى كل خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه، فما كان لله تعالى أن يخلق خلقه دون المتممّات التي أوجد من أجلها هذا الخلق الذي وجد أصلا للعبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}274، فالعبادة بالضرورة تحتاج إلى هداية من أجل التعرف عليها وعلى كيفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها ولهذا أرسل الله اليسع إلى قومه هاديا مهتديا بهداية الهادي إليه فكان رسولا من المهتدين {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رِبّكَ

---

272 لسان العرب، ج 15، ص 353.

273 الليل 12.

274 الذاريات 56.

حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[275]، فالذي هدى اليسع وغيره من الرّسُل الكرام إلى الصراط المستقيم هو الهادي تبارك وتعالى، وحيث أنّه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يبيّن لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه من صلاح ورشاد، وبهداه أيضا يبيّن لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدّي إليه من الهلاك، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلهية رحمة بالعباد من جهة، وحتى يقيم عليهم الحُجّة من جهة أخرى، وقد بيَّن الله تعالى حال من سلك كلا من الطريقين رغبة أو رهبة، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة على الحقّ بما يتوصل به إلى البغية والمنال، فالله الهادي ضَمَنَ الهُدى لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا على الهادي، فهدى الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق وسائل حسية وإدراكية، خارجية من حيث الآيات المبثوثة في هذا الكون الرحيب، أو داخلية ممّا يتمتع به الإنسان من قدرات خَلقية ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي الجوارح من الحواس، والباطنة هي الإدراكات النفسية والعقلية والذهنية، والجمع بين هذه وتلك يكون الإنسان قد استوفي حقّه من الهادي من وسائل الهدى، وبالتالي لأن الهادي عزّ وجلّ منح وأعطى فيكون قد أقام الحُجّة على الذين لا يهتدون، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ

---

[275] الأنعام 83 ـ 88.

النَّجْدَيْنِ}276، فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمل، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصادق والجمع بينهما يؤدّي إلى التمكين من جانبي الدلالة وصولا إلى الهدى من أجل الاستدلال على الهادي واستبصاره.

إنّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه الذين هداهم ثم بعثهم أنبياء ورُسُل، وبيَّن لهم الطرق ووضَّح لهم السُبل حتى يتبيَّن الخلق الرّشيد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميَّز الصديق الصالح من قرين السوء، قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}277؛ فالله سبحانه وتعالى ينص في هذه الآية على أنه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة، لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكا، إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله مَن يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشُد سواه إلى السبيل الحقّ، فهل القادر على الهداية إلى الحقّ أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه، وهو لا يهدى غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإنّ أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه

276 البلد 8- 10.

277 يونس 35.

صلاح أمرهم، الله يهدى من يشاء للحقّ دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرّسُل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبر الصائب؛ فإن العقول مضطربّة والأفكار مختلطة وتعيين الحقّ صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقّائق لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحقّ بإعطاء العقل وبعثة الرّسُل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبُّر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فبيَّن سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أنَّ الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره، وإذا كان لابدّ من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحقّ أن يُتَّبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالهدى متَّبعا للحقّ ومعلِّما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتديا، لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع النّاس في الضلال من حيث لا يشعر، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه اكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يُبصِّر عباد الله ويعرِّفهم طريق معرفته حتى يقرُّوا بالهادي وصولا إلى الهدى، ذلك أنّ الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات.

وعليه فالهادي هو المرشد لِما يجب والناهي عما لا يجب، وفي ذلك قال صاحب النونية:

وفي النونية:

وهو الرّشيد فقوله وفعاله.. رشد وربّك مرشد الحيران

وكلاهما حقّ فهذا وصفه.. والفعل للإرشاد ذاك الثاني278.

ولأنّ المرشد هو الهادي بالحقّ للحقّ لذا لقد أرشد المرشد اليسع صلّى الله عليه وسلّم بالحقّ على الصراط المستقيم حيث لا ظالم ولا مظلوم فالنّاس من قومه سواسية أمام الهداية فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن يضل فقد ظل عن نفسه وما ربّك بظلام لمن خلق، ولأن الرّشيد يدل على مطلق الكمال والحكمة والهدى جاء أسم الرّشيد أسم من أسمائه الحسنى التي يستوجب الاقتداء بصفته التي تهدي إلى الصراط المستقيم كما هُدى عليه سيدنا اليسع صلّى الله عليه وسلّم.

ولذا فالرّشيد هو بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق كما بينّا ذلك في مواضع كثيرة، فلما ثبتت أدلة الخلق على أنّ لها خالق فهو دليل على أن الخلق لم يتركوا هملا، وإنّما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها لإشباع حاجاتهم المتنوعة والمتعددة والمتطوِّرة كل حسب طبيعة خلقه بالإرشاد والهداية التامة، وفي لسان العربّ: "الرّشيد هو الذي أَرْشَد الخلق إلى مصالحهم أَي هداهم ودلهم عليها، وهو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد، والرّشيد والرّشيد والرَّشاد نقيض الغيّ"279، فهو عزّ وجلّ أرشد الخلق إلى مصالحهم

278 القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، ج 2، ص 17.

279 لسان العرب، ج 3، ص 175.

وفق تدبيراته، ولا يخرج الخلق الذين هداهم وأرشدهم الهادي الرّشيد جلّ جلاله ممّا نعلم عن أنواع ستة:

1 . الإنسان.

2 . الملائكة.

3 . الجن.

4 . الحيوان على اختلاف أنواعه من الطير والمواشي والزواحف والسوابح وما في حكمها.

5 . النبات من العشب والشجر والجذور وما في حكمه.

6 . الجمادات من الصلب والسائل والغازات وما في حكمها.

وهذا يعني أنه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم ومشبعات حاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلّغ الرّسُل، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبيَّن صفة الرّشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

وأمّا سبب ابتعاد بعض الخلق عن الرّشيد والفضيلة فلا يخلو من أمور منها:

. إمّا أن تكون نقصا في أصل أخلاقه وعجزا مركّبا في طبعه يتقاعس به عن تحصيل القوّة وجمع الإرادة التي يتوصَّل بها إلى الرّشيد كالذي تضعف عزيمته أمام الشهوات فيترك الفضيلة ويتَّبع الرذيلة وبهذا يكون قد عمد إلى مخالفة سنة الله في خلقه، فإذا رأى طريق الرّشيد لا يتخذه سبيلا وإن رأى طريق الغي يتخذه سبيلا.

. وإمّا أنّه يؤجل طلب الرّشيد وهو يدرك حقّيقته ولكن لانشغاله بأمور يظن أنه بعد فراغه سيسعى إلى الرشاد فلا يجد هاديا يرشده، فيدركه الأجل ويكون من الهالكين.

. وإمّا أن يكون مصابا بعقله فلا يميز بين الغي والرشاد فذاك مرفوع عنه القلم، وإما أنه غير عاجز عن ذلك فعلم الرّشيد وسعى إليه وانعقدت نيَّته على ذلك فلم يمهله عمره من ساعته فقد وقع أجره على الله لما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}280 حيث أن الهجرة إلى الله ورسوله هي إتباع طريق الرشاد.

. وإمّا أن يتفق له مربّ ومعلمٌ مضل فيضله عن الطريق، فقد غوى وما رشد.

. وأمّا أن يكون ترك الرّشيد واتَّبع الغي والضلال من جهة نفسه لا من جهة شيء ممّا ذكرنا وذلك هو المتوعد بالعذاب، فمن

280 النساء 100.

أزاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريق الرشاد، يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: {ولَقَدْ أَرَيْنَاهُ آَيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}[281]، وأكثر من ذلك ضلالا وغيا من وعى الرّشيد وعرف الحقّ وعلم السبيل وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا فيكون قد استبدل الرّشيد بالغي والهدى بالضلال فما له من رشيد.

وأحوال الخلق ومراتبهم في الإقبال على الرشاد والابتعاد عنه إنما يكون على أنواع أيضا فمنهم من له المعرفة بما يجب أن يفعل ليسلك طريق الرشاد وله مع ذلك قوّة العزيمة على العمل به.

ومنهم من له المعرفة في طريق الرّشيد وليس له قوّة العزيمة على إتباعه، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه، لأن العلم يكون شر من الجهل عندما يعلم العالم ولا يعمل بما يعلم.

ومنهم من ليس له المعرفة والعلم لكن له قوّة العزيمة، فهذا متى انقاد لأهل العلم والمعرفة وعمل بقولهم أصبح من الراشدين، ومن النّاس من يقول لا نستطيع أن نميز بين الرّشيد والغي وإذا عرض لنا أمران لا ندري في أيهما الرشاد، فلينظر أيهما أقربّ إلى هوى نفسه فليخالفه، لأن الرّشيد في مخالفة الهوى والصبر على المكاره، وليس لمن قل صبره عن الهوى حظ من بر ولا نصيب من رشاد، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها الهدى، ويدفع عنها الغي، كان ذلك من سوء اختياره، وبعيدا من الرشاد حقّيقا بالضلال.

وعليه الرّشيد يرشد إلى الرّشيد الذي هو نقيض للغي ومنافٍ له، ذلك أن الغي يؤدّي إلى الضلال، والضلال يؤدّي إلى التهلكة،

---

[281] طه 56.

لذلك فإن الله تعالى أمر بالرّشيد ونهى عن الغي والضلال والتهلكة حيث قال تعالى: {أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}282 فسبيل الله تعالى هو الرشاد والهداية وهو متعدد الأسباب والأبواب فمنها ما يكون ببذل النفس، ومنها ما يكون ببذل المال، فإن ترك ذلك إنما هو الابتعاد عن الرّشيد والاقتراب من الغي المؤدي إلى الهلاك، وعلى هذا فهو أمر من الله بأن يتّبع الخلق سبيل الرّشيد الذي أمر به الرّشيد بإحسان وإتقان وبعث من اجله الرّسُل هداة للحقّ بالحقّ كما هو حال سيدنا اليسع الذي وصفه بالمهدي حيث كان ممن اجتباهم وهداهم الهادي جلّ جلاله إلى الصراط المستقيم مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}283.

5 . مؤتى الكتاب:

الإيتاء حُجّة تؤتى لمن هو مصطفي ومجتبى لأدائها، ولذا فالكتاب أكبر حُجّة أوتيت لسيدنا اليسع فكان بها رسول لقومه، {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}284.

---

282 البقرة 195.

283 الأنعام 86 – 88.

284 الأنعام 86 . 89.

ولأنّ اليسع رسول مُرسل من عند الله لهداية قومه للتي هي أحسن فقد كان مفضَّلا فيهم ومفضَّلا على العالمين، واجتباه الله برسالته الهادية بالحقّ للحقّ، ثم هداه إلى الصراط المستقيم، ثم بعد ذلك آتاه الله الكتاب رسالة تامة تبيِّن الحقّوق والواجبات والمسؤوليات التي ينبغي أن يتم حملها من قبل الذين آمنوا مع اليسع صلّى الله عليه وسلّم.

والإيتاء لا يكون إيتاء إلا من عند الله تعالى، ولهذا فهو الذي يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء وأين يشاء، سبحانه إنه على كل شيء قدير.

ولأنّه لا مؤتي بالمطلق إلا الله المؤتي جلّ جلاله؛ فهو الذي آتى الكتاب ليسدنا اليسع وهو الذي آتي الكتب من عنده لمن اجتبى من الرّسُل وهو الذي يؤتي الملك لمن يشاء، وهو الذي يؤتي الحكم لمن يشاء متى ما شاء دون تقديم ولا تأخير، فكل شيء بيده يصدر بالأمر (كن).

ولأنّ مالك الملك هو الله فهو المؤتي للملك لمن يشاء كما شاء إيتائه لسيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ}285.

ولأنّ المؤتي يؤتي الملك من يشاء؛ فقد آتاه وفق مشيئته لسيدنا إبراهيم قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}286.

285 البقرة 258.

286 البقرة 269.

لقد بدأت هذه الآية الكريمة بفعل نستمد منه اسم فعل (المؤتي للحكمة) ولذلك نلاحظ أن المؤتي واحد وهو معرفة (المؤتي الله تعالى) وفي هذا المعنى جاءت الآية دالة على أن المؤتي للحكمة هو الله ومن يؤتيه الله الحكمة فقد آتاه المؤتي خيرا كثيرا، فنحن نقول (المؤتي) دليلا على أن الألف واللام من أصل الاسم ولا نقول: (مؤتي) فيكون منكّرا ونحن نعلم أن الله وأسمائه الحسنى لا تُنكر بل هي معرّفة على المطلق.

وعليه نتساءل:

آلا تكون الحكمة التي تؤتى معرّفة؟

آلا يكون المعرّف دالا على محدد بذاته أو بخاصيته أو جنسه ولا تعميم فيه؟

آلا يكون المعرّف متخلصا من اللبس والغموض؟

لو كان الأمر كما سبق تبيانه في هذه التساؤلات، لكانت الحكمة واضحة وجلية، ونحن نقول:

الحكمة لا وضوح فيها، بل هي في حاجة للتوضيح، فأي حكمة هي؟

الحكمة تتعدد وليست واحدة وإن كان مفهومها دالا في ظاهره على معرّف، فمن الحكمة أن يتدبر الإنسان أمره وما يتعلق به، ولذا فإن التدبُّر من الحكمة، والتفكُّر من الحكمة، والصدق من الحكمة، والاستغفار من الحكمة، وحسن التصرف من الحكمة، والتزاوج من الحكمة، والطلاق من الحكمة، والتعاون من الحكمة، والعدل من الحكمة، والإيمان من الحكمة، والاعتماد على الله

والنفس من الحكمة، وكذلك الأخذ بالحكمة من الحكمة. ولهذا نتساءل:

ما هي الحكمة التي تؤتى؟

هل هي الأخذ بالرأي أم عدم الأخذ به؟ أم شيئا آخر غير الأخذ وعدم الأخذ؟

من الحكمة لا يمكن لنا أن نقول:

1 . الأخذ بالرأي هو الحكمة، فمن يضمن أن الرأي كان على صواب؟

2 . وإن قلنا عدم الأخذ بالرأي هو الحكمة آلا يكون من الأفضل لنا بل ومن الحكمة أن نتعرَّف على مبررات من يقول لنا لا تأخذوا بما سمعتم من رأي حتى نتبيَّن لكي نتمكَّن من اتخاذ قرار واع وسليم ومفيد.

3 . وقد يكون من الحكمة البحث عن مخرج ثالث لا يتعلق بالأخذ وعدم الأخذ.

ولذا فلوا كانت الحكمة عدم التعميم لكانت على تخصيص واحد، ولهذا نحن نعتقد أن الحكمة مُنكَّرة المعنى وليست معرَّفة بدلالة وخاصية معينة ولذلك فهي أحيان تكون تحت مظلة الامتناع وتارة تحت مظلة الموافقة وأخرى تحت مضلة أخرى.

الله الذي بيد الأمر يؤتي ما يشاء لمن يشاء كيفما يشاء، ومن آتاه الله رزقا فليتصدَّق ويتزكَّى وينفق كل حسب استطاعته وما يملك من رزقٍ، ولأن الرزاق الله فهو المؤتي للرزق لمن يشاء، وهنا وجب الإنفاق من الرزق الذي هو مؤتى من الرزاق المطلق تعالى، ولذا

فالمؤتي هو الله تعالى والمنفق هو المؤتى من عند الله فليتق الإنسان ربّه ولينفق ممّا آته من رزقه قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتَاهُ اللَّهُ}287.

وبدون شكّ أنّ المؤتي هو الله جلّ جلاله، ولهذا فالمؤتي أسم من أسمائه الحسنى لا ينبغي إهماله أو الإغفال عنه بحثا وكتابة وتدبرا وتعليلا.

ولأنّ الإيتاء من عند الله؛ فالله يُسأل من عباده فيؤتيهم ما شاءوا ممّا يشاء لهم الله، ولذا فنحن نسأله أن يأتنا رزقا حلالا ومُلكا وحكمة وعلما ورحمة وكل الخيرات الحِسان التي هو مولاها ومالكها ومؤتيها فأتنا منها نعمة وفضلا متى ما تشاء كيفما تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير سبحانك.

والإيتاء قد يكون عن مطلب وسأل من العبد إلى المعبود عزّ وجلّ، وقد لا يكون عن سؤال ومطلب، بل يؤتى إيتاء من المعبود إلى العبد كما أتي الكتاب لليسع صلّى الله عليه وسلّم إيتاء كريما عظيما.

ولأنّ الإيتاء من الله تعالى فلا ينبغي أن يقنط العبد من ربّه تعالى ولذا فمن يعمل خيرا يجاز إيتاء بما خير منه ومن يعمل صالحا يؤته الأجر مرتين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا}288.

---

287 الطلاق 7.

288 الأحزاب 31.

إيتاء الأجر مرتين دليل على مضاعفة الأجر الحسن من الاسم الحسن وهو المؤتي جلّ جلاله.

ولأنّ الله هو المؤتي فهو الذي آتى الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم ما آتاهم من أنباء ورسالات، ولهذا نحن لا نفرّق بين أحد من رسله، مصداقا لقوله تعالى: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[289].

تثُبت هذه الآية الكريمة أن المؤتي لإبراهيم هو المؤتي ليعقوب والمؤتي للأسباط والمؤتي لعيسى وكل الأنبياء، ولهذا لا وجود لمعطيات أو مبررات التفريق بين رُسُله صلّى الله عليهم وسلّم، ولذا وإن تعدد الرّسُل فالمؤتي واحد سبحانه لا إله إلا هو صفاته تتعدد وأفعاله تتعدد وهو الواحد الأحد الذي لا يتعدد.

وفي مقابل أنَّ المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله تعالى لا يفرّقون بين أحد من رُسُله طاعة وإتباعا فكذلك الكافرون لا يفرقون بين أحدٍ من رُسله كفرا وعصيانا، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ}[290].

وعليه ثلاثة مستويات تُفرّق بين الذين يُفرّقون والذين لا يُفرّقون بين رُسله، وهي:

---

[289] البقرة 136.

[290] القصص 48.

الأول: الإيمان بالرّسُل ولا تفريق بينهم (المسلمون الذين آمنوا برسول الكافة والرّسالة الخاتمة).

الثاني: الإيمان ببعض الرّسُل والتفريق بينهم (اليهود والنصارى).

الثالث: الكفر بالرّسُل ولا تفريق بينهم (الكافرين).

ولأنّه لا إيتاء إلا من المؤتي تعالى فالله تعالى قال: {وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}291 ولهذا، فقد آتى قارون مطلبه في الحياة الدنيا قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}292.

ولذلك، فمن يؤتى مطلبه في الدنيا ليس له في الآخرة من نصيب ومن يريد نصيبه في الآخرة فله فيها النصيب الأوفى مصداقا لقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}293.

---

[291] آل عمران 145.

[292] القصص 79 . 82.

[293] الشورى 20.

إذا المؤتي في الدارين هو مالك أمر الدارين إنه الله مؤتي الرزق والملك والحكمة لمن يشاء، ولكل حسابه ثوابا أم عقابا (جنة أم نار)، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}294.

وعليه: فالإيتاء عطاء بلا مِنَّة ودون انتظار مقابل والإيتاء لا يكون إلا في الخيرات التي منها:

1 . الملك: قال تعالى: {وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}295.

2 . الحكمة: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}296.

3 . الرزق: قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}297.

---

294 الحاقة 19 . 24.

295 البقرة 247.

296 البقرة 269.

297 الطلاق 7.

4 . الكتاب: (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) وقال تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}298.

5 . نصيبا من الكتاب {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}299.

6 . الفضل: قال تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}300، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}301.

7 . النصر: قال تعالى: {حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ}302.

8 . الإنذار: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}303.

---

[298] آل عمران 20.

[299] آل عمران 23.

[300] آل عمران 170.

[301] آل عمران 73.

[302] الأنعام 34.

[303] القصص 46.

9 . السلطان: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}304.

10 . فصل الخطاب: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}305.

11 . الصحف: قال تعالى: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}306.

12 . المال: قال تعالى: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}307.

13 . النبوّة: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا ربّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}308.

14 . المغفرة والجنّة: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}309.

15 . الأجر: قال تعالى: {وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا}310.

---

304 غافر 35.

305 ص 20.

306 المدثر 52.

307 الليل 18.

308 آل عمران 79.

309 الحديد 21.

310 الأحزاب 31.

16 ـ الإتيان بلا حدود ممّا يشاء كيفما يشاء لمن يشاء، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}[311].

ممّا تقدم يتضح أن المؤتي عزّ وجلّ يؤتي كل شيء من فضله لمن يشاء ولا يأخذ شيء في مقابل ما يؤتيه، ولهذا لقد آتى الكتاب لرُسُله الذين منهم اليسع (وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) ولأنه مالك الملك وهو الملك المتعال فهو المؤتي وملكه لا ينقص بل هو في ازدياد بخلقه لما يؤتي ولمن يؤتى خلقا.

وعليه فإن إيتاء المؤتي باقٍ في الدارين من حيث كونه:

1 ـ نعمة في الدار الدنيا.

2 ـ نعيم في الدار الآخرة مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقّوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[312].

---

[311] الذاريات 15 ـ 22.

[312] آل عمران 170، 171.

المؤتي عزّ وجلّ يؤتي من ملكه وحكمته وفضله ورزقه ويؤتي الكتاب لكي يؤتي المؤتى إلى من هم في حاجة ممّا آتاه الله من خيرات حسان، ولذلك إذا حكم عدل، وإذا امتلك الحكمة أرشد ونصح وبشَّر بالحقّ وحرضَّ عليه، وإذا أوتي مالا فعليه بالزكاة والصدقات ولا يكون من الباخلين، قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}313.

وعليه لو سألك سائل:

من الذي يؤتي الكتاب والحكم والملك والحكمة والرزق والعلم والحياة والممّات وكل شيء فيهما ومن بعدهما (البعث)؟

ليس لك بدا إلا أن تجيب بأنه الله أو المؤتي جلّ جلاله، مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}314، ولهذا فإن قلت هو الله كانت الإجابة الشافية والكافية وإن أجبت بأنّه المؤتي فأنت على الإيمان بأن لله الأسماء الحسنى.

ومع أنّ المؤتي للكتاب كما آتاه لليسع والمؤتي للحكم والملك والرزق والحكمة والنبوّة الله تعالى إلا أن بعض النّاس يحسدون البعض الذين آتاهم الله من فضله وقد يكيدون لهم كيدا ويمكرون بهم مكرا، قال تعالى: {أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آَتَيْنَا آَلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}315.

313 آل عمران 180.

314 الإسراء 110.

315 النساء 54.

ومع أنّ المؤتي بالمطلق هو الله تعالى إلا أنّ مترتبات من الأفعال تترتب على الإيتاء منها:

1 . المترتب الموجب: من طاعة وهداية وعدل وزكاة وصدقة وإحقّاق حقّ وإزهاق باطل.

2 . المترتب السالب: من حسد وكيد ومكر وفساد في الأرض وسفك دماء فيها بغير حقّ، وكذلك من المترتب السالب تكذيب الرّسُل مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}316، وقوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}317.

المؤتي المطلق جلّ جلاله يؤتي من يشاء ممّا يشاء، وهو يريد من المؤتى أن يؤتي ممّا آتاه تعالى شيئا لمن هو في حاجة للزكاة والصدقة والعون فيأتي المال على حبه لمن وجب الإيتاء لهم مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

316 الأنعام 34.

317 التوبة 58 . 61.

وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}318.

ولأنّ الله تعالى هو الذي آتى الكتاب لليسع رسول مرسلا فقد جعله له موهوبا للدعوة والإصلاح في الأرض، ولذلك فالوهاب: هو "المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا عن استحقّاق عليه"319.

وقال الإمام الطبري: الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد للثبات على الدين وتصديق الكتاب والرّسُل وهو من يهب لمن يشاء من مُلك وسلطان وغيره.320.

والوهاب في نونية ابن القيم جاء على الآتي:

وكذلك الوهاب من أسمائه.. فانظر مواهبه مدى الأزمانِ

أهل السماوات العُلى والأرض عن.. تلك المواهبِ ليس ينفكانِ321.

ولذا؛ فالوهَّاب هو الفعَّال لِما يُريد، فهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء، سواء أكانت ذرية صالحة ذكورا أ إناثا، أم حِكمة أم حكما، أم مالا حلالا أم كتابا حكيما كما آتى الوهاب تعالى سيدنا اليسع الكتاب وكما آتاه لغيره من الرّسُل

---

318 البقرة 177.

319 المنهاج للحلمي، ج 3، ص 125.

320 الطبري، ج امع البيان، ج 3، ص 125.

321 النونية، ص 146.

مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}322.

ولأنّ الوهّاب كثير العطايا فهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئا. ولو كان ينتظر شيئا لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحدا لديه ما يعطي للمعطي المطلق، وذلك لأنه لم يكن من الذين خُلقوا على الحاجة؛ فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطائه عن كل الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئا، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطاءه عن الذين كفروا به وأشركوا؛ فمقابل ماذا يهبُ لهم الرزق والبنين والملك والعلم، هل يُعطِهم هذا لأجل أن يشركوا ويكفروا به؟ أم من أجل أن يعبدوه؟ أم مقابل ماذا؟

لم يكن بمقابل، ولكن لأنَّهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}323.

وهذا لا يعني أنّهم سيتركون هكذا، بل لإعطائهم الفرص فهو يُمهل ولا يُهمل مصداقا لقوله تعالى: {فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا}324.

---

[322] الأنعام 86 . 88.

[323] المائدة 118.

[324] الطارق 17.

ولذا؛ فإنّ الوهّاب المطلق: هو الغلاَّب المطلق بإيتائه المطلق، الذي لا يقدر على مغالبته أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه؛ فهو الغالب بهباته ألاَّ محدودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنه الذي يهب الحِكمة والحكم، والعلم والرزق، والكتاب وكل شيء لمن يشاء، ومع أنّه يعطي كل ذلك إلا أنَّ البعض يكفر به ويُشرك.

قال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[325]. ولأنّ كل شيء في طاعة الله ومن عند الله هو رحمة فإن أعظم رحمة هي إيتاء الله الكتاب للأنبياء الذين منهم اليسع صلّى الله عليهم وسلّم، وفي الآية الكريمة السابقة مطلب المؤمن من ربّه لأن يُثبت قلبه على الإيمان ولا يحيده عنه، ومع أنّ هذه الآية سابقة على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدعاء لله الوهَّاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون مِنَّة ولا انتظار مقابل.

وإزاغة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحقّ، فالبعض بعد موت الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم ولُّو وارتدُّوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكُفر، أي أنهم انحرفوا عن الصراط المستقيم وعادوا إلى الطريق المِعوج. ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح ممّا جعل

[325] آل عمران 8.

أبا بكر يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمَّه الرحمة هبة من الله تعالى، وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالى هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: {ربّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}326.

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاءً من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. و(مِنْ لَدُنْكَ) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنك أنت الوهاب) تأكيد على أنه لا وهَّاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدل على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) أنت ولا سواك؛ فأنت الوهاب واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانك لا إله إلا أنت الوهاب المؤتي.

ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهَّاب المطلق حتى أصبحت فضيلة بين المستخلفين من العباد.

ولذا عينا أنْ نميِّز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يؤتى إيتاء مباشرا من عند الله ويتم إدراكه مباشرة وحي يوحى وكلام يقال، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما ممّا يجعلهما يقعان معا في دائرة

---

326 غافر 7.

الزمن المتوقّع. أما الرحمة فتوهب ولا تعطى كما هو حال الزكاة والصدقات، ومع أنّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقّع، وهكذا الإيتاء من عند المؤتي المطلق يؤتى وفقا للمشيئة كما أُتي لسيدنا اليسع صلّى الله عليه وسلّم.

وبالنسبة للوهَّاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم، وممّا يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حقّ في الزمن غير المتوقّع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهدا ليبرأ أو يُدين المتهم من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحقّ. وهكذا الحال مع من ينقذ غارقا أو مظلوما أو يعتق عبدا ويحرره دون انتظار مقابل.

قال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}327. أي؛ من كل ما دعوتم وطلبتم وهب لكم وأعطاكم، و(مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) تدل على أشياء منها:

الشيء الأوّل: أنّه يملك أكثر ممّا سألتموه، وهو لم يعطكم إلا ما سألتم،

والشيء الثاني: أنّه يملك أشياء أخرى وأنتم لم تسألوه عنها.

الشيء الثالث: ولأنّ باب العطاء لم يقفل ما دمتم تسألوه، فإنّ سألتم ومتى ما تسألون سيأتيكم ممّا تسألون سواء أكان بالمزيد

[327] إبراهيم 34.

ممّا سألتم منه تعالى، أم ممّا لم يسبق لكم أن سألتموه عنه جلّ جلاله.

الشيء الرابع: ولأنّ سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإنّ باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء ممّا لا تتوقعون.

أمّا قوله: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) النعمة جاءت مطلقة، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنّه استكثر على ربّه العظيم سؤالا فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب، وهو المؤتي وفقا لِما هو متوقّع ولِما هو غير متوقّع سبحانه المؤتي المطلق جلّ جلاله.

ولأنّ اليسع صلّى الله عليه وسلّم مؤتى الكتاب فهو الذي فتح الله عليه أبواب الرحمة الواسعة فكان رسول مرسلا لهداية قومه للحقّ؛ والذين أمنوا به رسولا واهتدوا إلى الحقّ وعملوا على إحقّاقه يُسمَّون المؤمنون الذين فتح الله قلوبهم للإيمان.

قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحقّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}[328]؛ فقوله (ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالحقّ) أي أنّ يُمكِّن الله بعضنا من بعض بالحُجّة حيث لا إكراه في الدين، وبالقوّة حيث كسر الاعتداء ومغالبة المعتدين، وفي كل الحالات هو فتح وخير ما يُفتح به ذكر من الذكر الحكيم الذي في الكتاب المنزَّل على الرّسُل كما أنزل على سيدنا اليسع وغيره من الرّسُل الذين كان منهم الخاتم الكريم محمّد صلّى الله عليهم وسلّم الذي فتح الله عليه بالبيّنة التي هي الرّسالة المحفوظة في الذكر والكتاب الحكيم.

---

[328] سبأ 26.

يترتَّب على الآية الكريمة السابقة حالات منها:

في الحالة الأولى: تتم مغالبة الحُجّة بالحُجّة، حتى يؤمن النّاس. وإن أمنوا فقد اهتدوا.

وفي الحالة الثانية: إن لم يؤمنوا بالحُجّة ولم يناصبوا المؤمنين العداء فهم أخوة في ظل نظام الدولة المسلمة ولا عدوان عليهم.

وفي الحالة الثالثة: إن أشركوا وأعلنوا العداء لمن أسلم واهتدى للحقّ فقتالهم حقّ حتى يستسلموا للقوّة ويعم السلام بدين السلام.

وقوله: (وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) تعني: أنّ الله تعالى هو الفتَّاح الذي لا يصعب عليه شيء فهو الفعَّال لما يُريد المؤتي ما يشاء لمن يشاء.

الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ: تدل على أنَّ خالق كل شيء قادر على أن يفتح كل ما ينبغي أن يُفتح ممّا خلق، فهو عليم بأمره وهو يمتلك مفاتحيه، ولذا سيكون الفتح دون معاناة فهو القادر لأن يفعل.

وعليه: فالفتَّاح هو مؤتي القوّة التي بها تمكّن الرّسُل الذين منهم اليسع صلّى الله عليهم وسلّم من تحقّيق أفعال الفتح العظيمة، والفاتح هو القائم بالفعل مباشرة دون إنابة عن أحد، وهو أيضا الذي تَصدُر له الأوامر فيقوم بفعل الفتح تنفيذا للأمر الذي يُطاع. ولهذا فالفتح جهد يُبذل من أجل غاية.

أما الفتوح: فهو ذاتي، وهو الذي يهب هبة، دون وسائط أو معاناة أو جهد يُبذل، وهو القابل لأن يتجسد في الأعمال والأفعال حتى يُحدث النقلة إلى ما هو أفضل وأنفع وأجود.

وعليه: أن أردت أن تكون الخليفة فعليك بفعل الآتي:

. أغلق أبواب الشرك تُفتح لك أبواب التوحيد.

. أغلق أبواب الكذب تُفتح لك أبواب الصدق.

. أغلق أبواب العبودية لغير الله تُفتح لك أبواب الحرية.

. أغلق أبواب الظلم تفتح لك أبواب التسامح.

. أغلق أبواب الحرام تُفتح لك أبواب الحلال.

. أغلق أبواب الاتكال على غير الله تُفتح لك أبواب التوكل عليه.

. أغلق أبواب الحسد تُفتح لك أبواب المحبة والمودة.

. أغلق أبواب الظن تُفتح لك أبواب اليقين.

. أغلق أبواب الجحود تُفتح لك أبواب الاعتراف والتقدير.

. أغلق أبواب التكبُّر تفتح لك أبواب التواضع.

. أغلق أبواب الذل تفتح لك أبواب العزّة.

. أغلق أبواب الخيانة تُفتح لك أبواب الثقة.

. أغلق أبواب الخوف تُفتح لك أبواب الطمأنينة.

. أغلق أبواب المعصية تُفتح لك أبواب الطاعة.

. أغلق أبواب الشقاء تفتح لك أبواب السعادة.

. أغلق أبواب الشح تُفتح لك أبواب المكارم.

. أغلق أبواب الشر تُفتح لك أبواب الخير.

ـ أغلق أبواب الرذيلة تُفتح لك أبواب الطهارة.

ـ أغلق أبواب الحقّد تُفتح لك أبواب الرحمة.

ـ افتح أبواب الرحمة تفتح لك أبواب الجنّة.

وعليه: فالمؤتى علما هو من أوتي الكتاب الذي فيه البيّنة الحقّ (العلم الحقّ) كما أُتي اليسع ومحمّد ومن سبقهما من الرّسُل الذين آتاهم الله الكتاب هداية لأقوامهم وشعوبهم وقراهم.

ولأنّ علم العليم علم دائم إذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت وهو من يؤتى علما من علمه الواسع الذي بُعث به الأنبياء والرّسُل بالكتب كما بعث اليسع صلّى الله عليه وسلّم مؤتى بالكتاب.

ومن يتمكَّن من الكتاب فقد تمكَّن من البيّنة الحقّ التي تهدي للحقّ وتُزهق الباطل، لذا فالعليم بالإضافة هو الملِم إلماما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو حال اليسع صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) ولأن أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا

أهل قدرة على الإنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مفسِّرٍ، والحمد لله ربّ العالمين.

6 . مؤتى الحُكم:

الحَكَمُ: هو من بيده الأمر والنهي، وهو الله العادل في ملكه، ولأنه مالك الملك فهو بطبيعة الحال أن يكون حكما، ولذا فالحَكم هو الذي يلم بالمطلق بمستوجبات الحُكم فيما يحكم، والله عزّ وجلّ هو الحَكَم العدل في مُلكه.

والحُكم قضاء في الأمر والله هو القاضي المطلق فهو الذي يقضي بين عباده بالحقّ: {إِنَّ ربّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}329.

وعليه:

. الحَكَمُ: هو من يرتضيه المتحاكمين ويتولى إدارة الحُكم ليكون بينهم حَكم عدل يقضي دون انحياز لفئة دون أخرى، والحَكمُ العدل بالمطلق هو الله جلّ جلاله ومن يريد أن يكون حكما عدلا عليه باستمداد صفة الحكم والعدل من صفات الله تعالى.

. الحُكم: هو النص الذي يحتوي ويتضمن الكلمة والجملة والمعاني التي بها يتم التشريع، وعليها تستند القرارات، وهو ما يتخذ بشأن القضاء في أمر من الأمور التي تستوجب حُكما ينهي ما أُختُلف عليه ليسود الأمن والآمان وتعم الطمأنينة نفوس المتحاكمين، ولذا تعود الأمور للحَكم ليحكم بين النّاس بما أمر الحَكم المطلق جلّ جلاله.

---

[329] النمل 78.

وقد نصت الآيات الكريمة على نماذج للأحكام التي يريد الحَكم سبحانه إفهامها لخليفته في الأرض، وعلى مستويين:

الأوّل: نماذج للأحكام العادلة، وهي تلك الأحكام التي شرعها الله ليصلح بها أحوال الإنسان منها قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[330]، فمُصدر الأحكام سبحانه شرّع لنا من الأحكام ما ترضاه النفوس وتقبله العقول، لما فيها من مراعاة للحقّ وإرضاء لنفسية المجني عليه وتهذيب للجاني وردع من تسول له نفسه القيام بأي اعتداء، وعلى خليفة الله في الأرض أن يحرص أيما حرص على أن تراعي أحكامه أحوال النّاس وبما يرضي الله، وأن تكون الغاية منها إحقّاق الحقّ وليس لغايات أخرى.

وعلى الخليفة إصدار أحكام دقيقة وواضحة ومعلنة امتثالا لأحكام الحكم سبحانه، مثل ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[331]، أي يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي أنّ الحر إذا قتل الحرَّ، فَدم القاتل كفءٌ لدم القتيل، والقصاصُ منه دون

[330] المائدة 45.

[331] البقرة 178.

غيره من النّاس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل، فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غيرَ قاتله.

ومع أنّ الدين الإسلامي جاء بغاية تحرير العبيد، إلا أنه في البداية قَبِلَ بأن يكون العبد بالعبد والحر بالحر، وذلك للبدء مع العباد من حيث هم بغاية بلوغ ما يجب أن يكونوا عليه وهو بلوغ الحرية مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[332].

والفرض الذي فرضَه الله علينا في القصاص، هو ألا تكون هناك مجاوزة بالقصاص، وهذا لا يعني وجب علينا القصاص فرضًا وجُوب فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه. ولو كان ذلك فرضًا لا يجوز لنا تركه، لم يكن لقوله: "فَمن عُفي لهُ من أخيه شيء"، معنى مفهوم. لأنّه لا عفو بعد القصاص فيقال: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ).

والثاني: نماذج للأحكام الباطلة التي لا تنم عن تأمل ولا عن علم ولا عن عقل، والحَكم عزّ وجلّ يرينا نماذج لتلك الأحكام السطحية لتكون مثلا لخليفته فلا يقع في مثلها، يقول عز من قائل: {فَاسْتَفْتِهِمْ الرّبكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ

[332] النساء 92، 93.

شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}333.

تساؤلات استغرابية بأسباب جهل الكاذبين الذين وصفوا الملائكة بالإناث، وأن الله يلد وقد اصطفي البنات على البنين، ولذلك يسود الآيات تعجُّب على هؤلاء، فهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم.

أمّا قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}334.

فلا شكّ أنّ فيه من العبر التي يجب على الخليفة الاعتبار بها لتلافي إصدار الأحكام الفاسدة، والمطلوب التمييز لكيلا يجعل المطيع لله من عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء.

قال الشاعر:

أقادَت بنو مروانَ قيسا دماءنا.. وفي اللّهّ إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عَدْلُ335.

والخليفة الحكم هو الذي يفصل بين النّاس ليُعرف الخير من الشر، والحقّ من الباطل، والله جلّ وعلا هو الحكم المطلق الذي ميَّز بين النقائض عموما وبين الحقّ والباطل خصوصا، ولهذا اصطفي

---

333 الصافات 156

334 القلم 34. 38.

335 الجمهرة، ج 1، ص 292.

الرّسُل واجتباهم ليكونوا مرسلين بالبيّنات هادين للتي هي أقوم، وناهين عن المفاسد التي لا يكون عليها إلا مُشرك ومفسد في الأرض وضال عن كل هداية حقّ، ولذا كان اجتباه لليسع صلّى الله عليه وسلّم رسولا وآتاه الكتاب والحكم ليحكم بين النّاس بالحقّ، أي ليحكم بينهم بما جاء في الكتاب الذي آتاه الله إليه، ثم يدير أمرهم حُكما وعدلا حيث خلق الله النّاس سواسية إلا من ضل عن الحقّ فهو في حاجة لمن يعيده إليه دون إكراه، ودون أن يُترك مُفسدا في الأرض، ولهذا أُتي اليسع الحكم ليحكم بين من بُعث لهم رسولا وحكما، قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ}336.

وعليه: فإنّ الحُكم العدل هو ما نزل في الكتب التي هي من عند الله، ولأن الكتب كل الكتب التي أُنزِلت على الرّسُل وبُعثوا بها مبشّرين ومنّذرين ومحرّضين هي قد اكتملت في رسالة الكافة كتابا منزّلا على خاتم الأنبياء والرّسُل محمّد صلّى الله عليهم وسلّم جميعا، لذا أصبح القرآن الكريم هو الكتاب الذي به يُحكم بين الكافة عدلا.

ويرتبط الحُكم بالعدل في مواضع كثيرة من القرآن كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ

---

336 الأنعام 86 . 89.

بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 337.

إن اقتران الحكم بالعدل أمر لا يشكّ فيه عقل، فالله هو العدل وهو الحَكم، ومن بديهيات ما يقبل العقل اقتران الحكم بالعدل وبخلاف ذلك لن تعمر الأرض، ولا يمكن للبشرية أن تتعايش وتتطور وتبني الحضارة التي وصلت إليها الآن وستصل إليها فيما بعد، هذا كله بمعادلة الحكم العدل.

وأوّل ما يجب على الإنسان الوقوف عليه في اسم الله (الحَكَمْ) رسم الكلمة ووقعها على النفس، حيث تُشعرك بالقوّة والحزم فتشدك لتتبين معانيها وتلتمس الطريق إلى إدراك حقّيقتها، وذلك بإثارة التساؤلات عن الكيفية التي يكون فيها الحكم عدلا؟

والإجابة على مستوى الخليفة هي أن يتوخى الخليفة أمورا بعينها، منها:

أوّلا: لا يقبل أن يكون حكما إلا بما شرع الله: أي أنّ يستمدّ قواعد احتكامه ممّا أنزل الله له من آيات تشريعية تبين له الحقّ من الباطل والحلال من الحرام والمحبَّب والمفضَّل من المكروه والواجب اجتنابه، وأن يتبيَّن بدون استعجال، قال تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرّبانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا

[337] النساء 58.

قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}338.

يتحقّق العدل بما شرع الله، فالحَكَمُ البصير بعباده والرّحيم بهم شرع من الأحكام ما يمكّن بني آدم من العيش في الأرض وتعميرها والخلافة عليها، وهي أحكام ترتضيها النفوس وتعجب بها الألباب لما فيها من دقة ومن رحمة وخير للكافة، والحكم سبحانه يقول: {وَكَفى بِربّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}339.

ونص الذكر الحكيم على مصادر الحكم بالعدل، وبصيغةٍ مؤكدةٍ تقوم على استخدام فعل الأمر الملزم (أحكم)، متبوعا بلا الناهية دلالة على حتمية الوجوب وانتفاء الجواز، يقول عز من قائل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}340.

---

338 المائدة، 42- 45.

339 الإسراء 17.

340 المائدة 50.

والنص واضح صريح، فمصدر الحكم الكتاب مع تحذير بيّن بالابتعاد عن الهوى وعن الأحكام العاطفية، ويتضح أن آفة الحكم اتباع الهوى من قبل الحاكم، وعلى الخليفة في الأرض تجنُّب الوقوع فيما نبَّه الله نبيه إلى عدم جواز الأخذ به، وبخلاف ذلك يقع الإنسان في الظلم كما تنصُّ الآية الكريمة: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}341.

ومن مصادر الحكم العدل السنة الصحيحة، وذلك لأنّ الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم قد ورث جميع الكتب تنزيلا في القرآن الكريم، ولهذه فهو قد ورث أيضا مهام الرّسُل الذين سبقوه ليكون الرّسول الخاتم المرسل لهداية النّاس كافة، ولهذا أصبح الكتاب منزَّل للكافة ومحمّد مُرسل للكافة، ممّا يستوجب الاهتداء بالرّسالة الكافة حُكما كما هو منزَّل في القرآن الكريم وإتباع سُنَّة محمّد في الحكم لمن أراد أن يكون حكما عدلا بين النّاس الذين يرتضوه حكما، وفي ذلك يقول الله تعالى: {فَلَا وَربّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا ممّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}342.

ثانيا: أن يكون الحكم محايدا فلا يميل إلى طرف دون آخر لا لحبٍ ولا لبغض، وهذا ربّ العزّة الحكم العدل يُعلّم الإنسانَ درسا عظيما ليكون حياديا في الخصومة وذلك في قصة سيدنا موسى صلّى الله عليه وسلّم مع فرعون، يقول عزّ وجلّ: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا ربّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى

---

341 المائدة 45.

342 النساء 65.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا ربّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ ربّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ ربّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ ربّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[343].

فالله سبحانه يقدّم لخليفته في الأرض المثل الأعلى في الحياد إحقّاقا للحقّ، فبالرغم من كون موسى رسول الله وهو على حالة من الخوف، وفرعون عدو الله وهو قوي ظالم إلا أنه سبحانه عامل الطرفين في هذه الخصومة على حد سواء، فقد طلب الله من موسى وأخيه أن يحاورا خصمهما باللين وذلك بسبب طغيان سابق، فقال سبحانه لموسى عن فرعون (أنه طغى) بالفعل الماضي، وفي ذلك حكمة، لأنّ استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغى) أو الفعل المضارع للمستقبل (سيطغى) فيه حكم مسبق من الله على فرعون مع علمه سبحانه أنّ فرعون سيبقى على طغيانه لكن الله يريد أن يعلّم موسى وخلفاء الله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة لأن ذلك خلاف الحياد الذي يدعو إليه الحكم العدل. ولمثل هذه المبررات لقد اصطفي الله اليسع رسول وآتاه الكتاب والحُكم ليحكم بين قومه بالحقّ ويهديهم إلى اتباع الحقّ المنزّل في الكتاب الذي آتاه الله إياه.

ثالثا: المساواة، الحكم العدل سبحانه يساوي بين عباده، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقربّون به إليه، وليس أدل على ذلك من تعامله سبحانه وتعالى مع أنّبيائه، فعندما دعا سيدنا إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم لذريته أجابه الله تعالى إجابة تشع بالمساواة، يقول عزّ وجلّ: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ

---

[343] طه 43 . 50.

ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}344، فذرية إبراهيم على شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد الله، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلى إبراهيم إن هم ظلموا أحدا من النّاس، فالأولى بالخليفة أن يساوي بين رعيته فلا يقربّ أحدا لنسبٍ أو لمودة، ويباعد آخر لقطيعةٍ أو عداوة، وإنّما الرعية سواء.

والمساواة في ممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل بين النّاس، مع من تحب أو من تكره، وهذا ما يدعونا إليه الحكم العدل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}345.

الحديث القرآني موجه إلى المؤمنين كافة (على التساوي) يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمّد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدِّي، واعملوا فيه بأمري346.

فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحكم، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبهم، فهم سواء، فتحقّيق العدل يتم بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوى، وتستند على الوحي الذي يوحى.

---

344 البقرة 124.

345 المائدة 8 -9.

346 الطبري، ج 10، ص 95.

رابعا: التدقيق في الأحكام، وهو ممّا أرشد الله سبحانه عباده إليه بالآيات الكريمة التي ننهل منها دروسا نتدبر من خلالها معنى الحُكم العدل، ومن ذلك الآيات الكريمة التي تروي قصة سيدنا داود في الحكم بين الخصوم: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآبٍ}[347].

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، هل أتاك يا محمّد خبر الخصمين اللذين تسلّقا السور ودخلا عليه في مكان عبادته، لا من الباب، وعندما دخلوا عليه بهذه الطريقة الغريبة خاف منهم واضطربّ، قالوا: لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضُنا بعضا، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل، لا تجُرْ في حُكمك وأرشِدنا إلى الحقّ. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أعطِني إياها لتكون في كفالتي وغلبني بكلامه وحججه، قال داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر: لقد ظلمك يا هذا حين طلب ضمَّ نعجتك إلى نعاجه، إن كثيرا من الشركاء والمتخالطين ليجور بعضهم على بعض، إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات، ولكنهم قلة نادرة، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ، وعرف داود أن الأمر ما هو إلا

[347] ص 20-25.

امتحان من الله، فطلب المغفرة، وخرّ ساجدا لله، وأناب إليه بالتوبة. فغفرنا له تعجّله في الحكم348، ونحن قد فصلنا ذلك تفصيلا في قصة داوود وسليمان وكان لنا رأي في ذلك.

فالعجلة يمكن لها أن توقع الخليفة في الخطأ، والأولى له أن يتأنى ويدقق ويستمع إلى الخصوم ثم يصدر حكمه الذي يراه.

خامسا: الابتعاد عن الظلم، الله الحكم يقول عن نفسه: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}349، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له، ولذا فهو لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد.

وعلى الخليفة أن ينتهي وينهى من معه عن الظلم، مدركا وموقنا أن عاقبة الظلم في غاية الخطورة، وإلا لماذا بعث الله الأنبياء والرّسُل الكرام بكتب كما هو حال اليسع الذي بعثه الله رسول وآتاه الكتاب والحُكم؟

بطبيعة الحال ليحكم بين النّاس بالعدل ووفقا لأمر الله الذي يتضمنه الكتاب الذي آتاه الله لليسع صلّى الله عليه وسلّم، ولذا فَمِن بعد كل الرّسُل والكتب التي أنزلت ونُسخت بالرّسالة الخاتمة الكاملة التامة بأحكامها وحُكمها وعدلها ومساواتها بين النّاس من بعد كل ذلك ليس لهم بدا إلا أن يتخذوا الكتاب الذي جاء منزّلا على الرّسول محمّد وللناس كافة مصدرا ومنهلا لحكمهم وعدلهم

348 تفسير القطان، ج 3، ص 161.

349 الحج 10.

وتسامحهم وتنظيم أحوالهم وعلاقاتهم التي تستوجب التواد والمحبة بينهم.

فقد نصت الآيات الكريمة إلى العواقب الدنيوية والأخروية للظلم، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}350.

أمّا قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}351. فإنه يدل على أن الظلم من أسباب الهلاك.

ويرى ذوي الألباب من تغيُّر حال بعض العباد وتبدُّل حالهم من الخير إلى الشر ما يعتبرون به في الدنيا استعدادا للآخرة، وهذا وعيد من الله لكل ظالم وفي كل زمان، يقول الحكم العدل سبحانه: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}352. والآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: (وَسَيَعْلَمُ) وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: (الذين ظَلَمُواْ أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ).

وتوعد الله سبحانه الظالمين فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}353، وعلى من يرجو لقاء ربّه أن ينتهي عن الظلم ويتراجع، ولتحقّيق ذلك على الخليفة أن لا يسمح للظلم بأن ينال من عباد الله وذلك بأن ينصر المظلوم موقنا بنصر الله في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك، ولا أدل على

350 الأنعام 45.

351 الكهف 59.

352 الشعراء 227.

353 النحل 85.

ذلك من قول الله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا ربّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}354.

والمتدبر لآيات الله ليسعد أيما سعادة بوعد الله جزاءً لنصرة المظلوم، كما يخاف كل الخوف وهو يقرأ وعيده.

وإذا كانت الآيات الكريمة قد بيَّنت ما للظلم من عواقب، فإنها تركت تحديد الثواب دلالةً على عظمته، يقول المولى عزّ وجلّ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}355.

فقوله تعالى: (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحُجّة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيما له لأنه شارعه فقال: (من ينصره) أي يقبل مجدا على الاستمرار على نصر دينه ورُسُله ذلك النصر (بالغيب) من الوعد والوعيد، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك، أو غائبا عن كل ما أوجب له النصرة.

ومن الأمور التي يجب على الخليفة التنبه إليها الحزم في إنفاذ الأحكام التي أصدرها، وعدم تأجيل أي منها، وهذه صفة الحكم سبحانه نعقلها من قوله: {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

---

354 الحج 40.

355 الحديد 25.

فَيَكُونُ}356. بطبيعة الحال الحَكم المطلق بيده الأمر (أي أمر) ولذا فهو يحكم كما يشاء فيما يشاء متى ما شاء، وحُكمه أمر نافد بقوله للشيء كن فيكون فسبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال العادل في ملكه.

والفساد ضد الصلاح، كما أنه مرحلة تلي الطغيان، أي إذا طغى الإنسان تحول إلى الفساد كما تشير الآية الكريمة: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}357.

وقد منع الحكم سبحانه الفساد بعديد الآيات وبأكثر من أسلوب تنبيها منه وتحذيرا ووعيدا لعباده، ومنها:

1- أشار سبحانه إلى كرهه عزّ وجلّ للفساد فقال: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}358.

2- التذكير بما أحل الله من الطيبات في الدنيا بمقابل التذكير بكراهيته سبحانه للفساد: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}359.

3- التحذير من الفساد الخفي، وهو أن يبدو الإنسان مصلحا بقوله، وأما فعله فهو المنبئ بفساده، يقول سبحانه: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ

---

[356] البقرة 117.

[357] الفجر 11، 12.

[358] المائدة 64.

[359] القصص 77

الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}360، فعلى الخليفة أن يتقصّى عن أفعال النّاس عموما ومن حوله خصوصا ليتبيَّن له المفسد منهم من المصلح، فيقربّ المصلحين ويعد ويعاقب المفسدين ويعمل على إصلاح أحوالهم وهدايتهم للتي هي أحسن بالتي هي أحسن.

4 – الوعيد بالعذاب للمفسدين، يقول الحكم سبحانه: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}361.

5 – مكافأة منع الفساد، يقول سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}362.

ولأنّ مصدر الكُتب السماوية واحد ومُرسل الرّسُل واحد إذا فمصدر العدل واحد وغايته واحدة، ولهذا فإن النقاط الخمسة السابقة لابد وأنها كانت المرتكز الرئيس في الحُكم الذي آتاه الله لليسع ليحكم بين من بُعث لهم رسولا وحكما عدلا.

ولذا؛ فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الحكم المطلق، استخلف خليفته في الأرض، فنهاه عن مناهٍ وأمره بأوامر، فمن أطاعه فيما نهى وأمر فهو الحكم بالإضافة، حيث أمره أن لا ينزل ما ولاه إياه من الأحكام في الدماء والفروج والأموال، عن منزلته العظمى من حقّوق الله المحرمة، وحرماته المعظمة، وبيّناته المبينة في آياته المحكمة،

---

360 البقرة 204، 205.

361 النحل 77.

362 القصص 83.

وأن يجعل مخافة الحَكم المطلق عزّ وجلّ، وشرائعه التي شرّعها في الفصل بين العباد قبلة لوجهه ونورا لعقله وصحوة في ضميره، وإليها يتوجه في الأمور كلها، وعليها يكون قطب الرحى فيما يرضى الحكم بما حكم، فيحكم بالحقّ ويقضي بالقسط، ولا يحكِّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثارا لأمر الله عزّ وجلّ حيث قال: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[363].

فالحكم المطلق جعل الإنسان خليفة له في أرضه، وأمره بالحكم بين النّاس بما شرع له، فلا يسير في الحكم وراء الهوى، فيحيد بذلك عن سبيل الله،

فالذين يحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عما أُمروا به في الدنيا فيجازيهم عليه في الآخرة. لذلك كان الحَكم بالإضافة خليفة الله في أرضه بين عباده باتباع ما وجب عليه حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[364]، وهذه دعوة من أجل المحافظة التامة على أداء حقّوق الله، وتأدية الشهادة بين النّاس على وجهها الحقّ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على أن تجانبوا العدل معهم، بل يجب أن تلتزموا العدل والحقّ، فهو أقربّ سبيل إلى خشية الله والبعد عن غضبه، واخشوا الله في كل أموركم، فإنه عليم بكل ما تفعلون، ومجازيكم عليه.

---

[363] ص 26.

[364] المائدة 8.

والخليفة قد يكلّف من يجد عنده الأهلية في أن يكون حكما، فيوجهه ويأمره بإعزاز أمر الله تعالى والشد على يد المخالفين في تنفيذ أحكامه وأقضيته، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض بالحقّ المفترض لله عزّ وجلّ، وكذلك يأمره بترك المجاملة والمحاباة لذي رحم وقربى، فالحكم لله ولخليفته في أرضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين للحقّ والعدل والحكم، والمتطاول عليه، والمباين عن رأي النّاس ومخالف لما هو عليه عامة النّاس حقّيق بالإذلال والرد إلى الصراط المستقيم، وكذلك يأمره بتقوى الله تعالى وأن لا يستحي من الحقّ فقد قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقّ}365؛ فالخليفة حاكم، والحاكم حكم بالإضافة، فإذا جلس للحكم بين النّاس، يعلم أن عليه أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية الواضحة للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه وأستاره، ويفتح لهم أبواب مجلسه وأبواب قلبه، ويحسن لهم انتصابه وهيأته، ويقسم بينهم لحظه وطرفه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته، ولا يردي فيها ضعيفا لضعفه، بل يميل مع الحقّ ويجنح إلى جهته، ولا يكون إلا مع الحقّ وفي كفته، ويذكّر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه، موقفه هو ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان الذي قال: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}366.

إنّ من أركان الحُكم العادل الذي فرضه الحكم العدل، هو ركن الشهادة وتأديتها على وجهها حيث قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا

---

365 الأحزاب 53.

366 آل عمران 30.

الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}367، لذلك وجب على الخليفة وهو الحكم بالإضافة، أن تتجلى أمامه صفات الحكم المطلق عند الفصل بين الخصوم من استدعاء الشهود والإدلاء بما يعرفون، وهو دون شكّ صاحب فراسة في الوقوف على الحقّ واليقين من سمات الوجوه وشهادات الشهود ودقائق التبيُّن، فينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافيا، ويسأل عن مذاهبهم في الحياة، وتقلبهم في سرهم وجهرهم، والجلي والخفي من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والنزاهة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحقّ، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى، أبقاه. وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى، وأن يطالع الخليفة بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين من الرد والقبول على المحُجّة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، فيأمن في هذه السبيل كل خلل يداخله، إذ أنّ الشهادة أساس الأحكام، وإليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها أحقّ شيء بالإحكام حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والأقربّين إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا}368 إن العدل هو نظام الوجود الكوني، وهو القانون الإلهي الذي سنّه الحكم المطلق من أجل خير الخلق ومصلحتهم بحيث لا يختلف عليه عاقلان، فالذين يذعنون للحكم العدل، ولدعوة خليفته، يكونون مراقبين لأنفسهم في الإذعان للعدل، ومراقبين للناس، في إنصاف المظلوم، ويكونون

---

367 البقرة 283.

368 النساء 135.

قائمين بالقسط لا لرغبة غني أو لعطف على فقير، لأنّ الله هو الذي جعل الغني غنيا والفقير فقيرا، وهو أولى بالنظر في حال الغني أو الفقير، ولأنّ الهوى هو الذي يميل بالنفس عن الحقّ فلا تتبعوه لتعدلوا، وإن تتولوا إقامة العدل أو تعرضوا عن إقامته فإن الله يعلم ما تعملون علما دقيقا، ويجازيكم بعملكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}369؛ فهذه صفات الحكم العدل يتصف بها الخليفة اتصافا نسبيا، ويعكسها أخلاقا على النّاس بحيث أنهم يتنزّهون عن شهادة الزور، وأنهم إذا وجدوا من إنسان ما لا يُحمد من قول أو فعل لم يشتركوا فيه، ويترفعوا بأنفسهم عن مثل هذه الأخلاق. ومن عدل الحكم ورحمة منه بعباده أنه قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْربّوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}370 فهذه المحرمات التي بيَّنها الله تعالى كونه حكما مطلقا، فينبغي أن تهتموا بها وتبتعدوا عنها لا تجعلوا لله شريكا في ملكه وحكمه وإرادته، بأي نوع كان من أنواع الشرك، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله مستقبلا، لأنكم لستم أنتم الرازقين، بل نحن الذين نرزقكم ونرزقهم، ولا تقربّوا الزنا فهو من الأمور المتناهية في القبح، سواء منها ما ظهر للناس حين إتْيانه، وما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم أمر موجب للقتل، إلا إذا كان القتل بحقّ تنفيذا لحكم القضاء.

369 الفرقان 72.

370 الأنعام 151.

العدل مبدأ باعتباره الأوّل بذاته، وغاية باعتباره الآخر بذاته، ومصدر: باعتباره الأوّل والآخر بذاته، والعدل فعل في ذاته وصفة حسنة في ذاته فمن حيث اللغة مصدر يشتق منه اسم الفاعل "العادل" وغيره من المشتقات، والعادل المطلق هو الله جلّ جلاله، ومن يتبع هذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حقّ، ولهذا تكون الإضافة إلى العدل الذي هو فعل من أفعال العادل المطلق وصفة كاملة له، به يتصف بالكمال والجمال، ولهذا؛ فخلفاءه في الأرض هم المضافون إلى العدل الذي هو من عنده عزّ وجلّ. وتكون العملية:

أوّلا: العدل: صفة حسنة من صفات العادل، وهي المستمدة منه فلو لم يكن العدل في ملكه ما كان للعدالة والعدل مصدرا.

ثانيا: العادل: وهو من التزم بما أمر الله العدل المطلق فيحكم بما أمر وينتهي عمّا نهى عنه فالعادل هو الذي لا توجد في قواميسه إلا الرحمة ولا توجد فيها المظالم فهو المتقي للعدل عزّ وجلّ.

ولأنّ العدل صفة حسنة فلا يتصف به إلا عادل محسن، والعادل المحسن هو الخليفة الذي أخذ بصفات العدل التي ترضي الله تعالى ويعمل بها فلا يظلم؛ ولهذا فهو المضاف المتصف بصفة العدل قولا وسلوكا وفعلا. قال تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[371].

[371] الطلاق 2، 3.

فالخليفة هنا هو المضاف في قوله ذوي عدل منكم، والعدل بصيغة المصدر صفة من أسماء الله الحسنى، ولأنّه جلّ وعلا القادر على تحقّيق العدل المطلق في كافة الأماكن والأزمنة في آن واحد فلا يحدُّه حدود ولا يقيده قيود فقدرته مطلقة وعدله يحيط بملكه وملكوته، لذا فقد احتفظ لذاته باسم "العدل" مصدرا لا اشتقاقا، ولأنّه العدل فهو مصدر لا يظلم ولا يجور لأنّ في ذلك تناقض فالعدل المطلق ليس عنده ظلم، وحتى يُبَسِّط لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظا تدل على العدل وتهدي إليه منها الصراط المستقيم، والقسط، والميزان، ومثقال ذرة، وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبيّنها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقّق الخلافة ولمن أراد أن يكون من الخلفاء لهذا الاسم.

إذن، العدل في ملكه هو الله عزّ وجلّ وهو العدل المطلق، والعادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل المستمدة من العدل المطلق التي بها اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه.

فالعدل المطلق لا يجور ولا يميل عن الطريق المستقيم وكيف ذلك وهو الذي خلق الطريق المستقيم ليستقيم الخليفة أو العادل المشتق من العدل وقد أمر الله العدل النبي صلّى الله عليه وسلّم بالاستقامة وهو الذي لم يَمِل عن الحقّ ولم يظلم فقال الله عزّ وجلّ للنبي صلّى الله عليه وسلّم: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنَا وَربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}372.

العدل أسم لله تعالى وصفة لعدله المطلق، ولذا فهو ما يتصف به العباد عندما يعدلون كلما حكموا بين النّاس إن ارتضوهم حُكَّاما في أمورهم التي هم مختلفون.

وعليه يكون الحَكم العدل على أحد أمرين:

الأمر الأوّل: أن يكون حكما مُرسلا من عند العدل المطلق جلّ جلاله كما هو حال النبي اليسع الذي هو من الذين آتاهم الكتاب والحكم ليحكم بين النّاس بالحقّ ولا يتّبع الهوى (وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ).

الأمر الثاني: أن يكون الحَكم مطلوبا باختيار الذين يتعلق الأمر بهم وهو من ارتضوه حكما بينهم فيما هم فيه مختلفون. فيكون هذا الحكم حكما بعد تشاور النّاس وتدابرهم فيما بينهم ثم وصلوا إلى رأي يمكّنهم من اختيار من يكون حكما بينهم. ولهذا فالمشورة في الدين الإسلامي أخذ الرأي في كل أمر يتعلق بمصير العباد دون إنابة عنهم في شيء إلا إذا كانوا قُصَّر، مصداقا لقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ

[372] الشورى 15.

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}373، فقوله (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) يقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"374، وهناك من يقول: "هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"375. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي هي أعظم من الديمقراطية وأساليبها المتلونة، فعندما تكون الشورى فضيلة بين الجميع تكون خير أسلوب لممّارسة الحرية بكل إرادة، أي عندما تكون ممّارستها حقّا للجميع الذكور والإناث، وتكون واجبة الممّارسة في كل أمر يتعلق بالنّاس أفراد أو جماعات أو مجتمع بأسره، وعليه فالأمر هو: كل ما يتعلق بالإنسان من حقّوق وواجبات ومسؤوليات، سواء أكان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أم أكان هذا الأمر حالة سلم أم حالة حربّ، وسواء أكان اقتصادا أم علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالنّاس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتُبيِّنَ له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم معهم، يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}376.

373 آل عمران، 159.

374 تفسير الجلالين، بيروت، دار الفكر، ص 94.

375 محمّد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي، القاهرة، أخبار اليوم، ج 3، ص 1840.

376 الشورى 38.

إذا بكل وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالنّاس في فترة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم كان في حالة شورى بين الرّسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أمّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاؤون فيه، وينفذونه كما يشاؤون، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن النّاس فيما يتعلق بهم من أمر.

وكلمة (أمرُهُم)، تتكون من جزأين هما:

ـ (أمْرُ).

ـ و(هُم).

فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممّارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي (لأقلية) و(أغلبية)، بل الوجود فقط (للكل الذين يتعلق الأمر بهم) دون استثناء.

وكلمة (بينهم) الظرفية تعني: أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجلّ (بينهم)، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

ومن الأمانة العدل لأنّه بإقامة العدل يستقر المجتمع ويأمن الفرد على نفسه وعرضه وماله وتسود روح المحبة بين الجميع والله العدل يأمر بأداء الأمانة والحُكم بين النّاس بالعدل فيقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرّسول وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرّسول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}377. قال تعالى: (إذا حكمتم بين النّاس) ولم يقل إذا حكمتم النّاس، فالحكم بين النّاس له اشتراطات:

أوّلا: وجود طرفين أو أكثر فرادى أو جماعات أو مجتمعات.

ثانيا: وجود اختلاف على موضوع لهم علاقة به.

ثالثا: وجود عادل.

رابعا: القبول بالحَكم (أن يكون مرضيا للأطراف المختلفة أو المتنازعة أو المتخاصمة).

خامسا: قبول الحَكم بأن يحكم بينهم حيث لا أكراه.

ولهذا جاء في قوله تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النّاس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعا بَصِيرا). فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أنّ الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حقّ فأديت ذلك الحقّ إليه فهذا هو الأمانة، والحكم بالحقّ عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حقّ فأمرت من وجب عليه الحقّ بأن يدفعه إلى من له ذلك الحقّ، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنّه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحقّ، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

---

[377] النساء 58، 59.

– المسألة الثانية: أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل قال تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل) والتقدير: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل فلا تميلوا فإن في الميل بغير حقّ ظلم وبهتان كبير. وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}378. ولأنّه أمر فالخليفة مطيع له.

يُظهر العدل عدله بعدم تسوية الخليفة التائب بغير التائب لله تعالى، فالذي تاب وآمن وعمل عملا صالحا يجازيه الله عدلا بتبديل سيئاته حسنات، ويغفر له، ويرحمه في الدار الدنيا بالاستخلاف فيها، وبالآخرة بالفوز بالجنّة، ولهذا فالخلفاء هم الذين لا يشهدون الزور، ولا يمرون باللغو وإذا مروا يمرون كراما، وهم الذين بربّهم يُذكرون ويتذكرون لأجل أن يجتنبوا أي عمل فيه أثم أو ذنب أو غفلة وذلك لأنهم يتذكرون في خلق السماوات والأرض ويؤمنون أنّ العدل عزّ وجلّ لم يخلقها عبثا ويخرُّون له طاعة تامة ركَّعا وقياما، فالخلفاء يوقنون بالحقّ ويطيعونه في كل كبيرة وصغيرة ويستغفرون ربّهم ويتوبون إليه، ويدعون ربّهم بأن تكون أزواجهم وأبناءهم قرة أعين لهم حتى يستمر استخلافهم بالحقّ وعلى الحقّ المبين طاعة لله تعالى، ويزدهم تقوى حتى يكونوا قدوة حسنة للمتقين ربّهم فيسرون على هداهم مصلحين في الأرض غير مفسدين ولا سافكي الدماء فيها بغير حقّ، وهؤلاء هم المجازون بالجنّة أي بأعمالهم الخيِّرة في الأرض يفوزون بالجنّة وهي الغاية الكبرى للخليفة، وهي المقر الدائم بعد الحياة الدنيا الفانية.

---

[378] النحل 90.

ولهذا؛ فإنّ الله قد بعث الأنبياء والرّسُل لهداية النّاس بالتي هي أحسن وليحكموا فيما آتاهم الله بالعدل ولا يظلموا أحدا، ويحمدوه على واسع فضله حيث بعث الأنبياء والرّسُل وأتى معهم الكُتُب ليحقّوا الحقّ ويُزهقوا الباطل وهم طائعين لأمر الله بأن يعدلوا، فقوم اليسع الذين سادت فيهم المفاسد والشرك بالله وانتشار المظالم بعث فيهم اليسع ليهديهم ويحكم بينهم بالتي هي اعدل وأقوم وأحسن، فلك الحمد ربّي قد بعث الأنبياء والرّسُل مرسلين بالحقّ لنتبعه، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}379.

ولأنّ الله واحد أحد ولم يتخذ صاحبة ولا ولد؛ فهو العادل بالمطلق حيث لا انحياز له بين خلقه، فكيف له بالانحياز وهو الخالق لكل ما خلق؟ أي بما أنهم خلقه فلا عادل بالمطلق بينهم إلا هو، ولهذا فمن أراد العدل المطلق فعليه باتباع ما أمر الله به وما نهى عنه، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}380.

ولأنّه أحكم الحاكمين وحكمه الحقّ بالمطلق فالحكم بما أنزل يعد اتباع وطاعة لأمره ونهيه، ولذا فعلى الذين يلتزمون بما أنزل في أحكامهم بين النّاس هم من المستخلفين في الأرض بالحقّ؛ فمن تبعهم كان منهم ومن ضل عمّا يحكمون به وهو الحقّ فلعلى ذلك

---

379 الأنعام 1.

380 الكهف 1 – 4.

لازدياد ذنوبهم وفسقهم، قال تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ}[381].

أمّا الذين يحيدون عمّا أنزله خير المنزلين في كتابه الحكيم فهؤلاء هم الذين على أحكام الجاهلية منتهجون أي هم الذين لا يريدون الإصلاح في الأرض وأعمارها بل هم للإفساد متخذون بظلمهم وإنكارهم للحكم الحقّ الذي فيه النّاس يتساوون أمام أمر أحكم الحاكمين جلّ جلاله، قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[382].

أحكم الحاكمين هو الذي يحكم بالحقّ ولذا فمن يحكم بالحقّ يكون من الذين استمد صفاته من صفات أحكم الحاكمين، قال تعالى: {قَالَ ربّ احْكُمْ بِالحقّ وَربّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[383].

وعليه: لا حكم إلا بما يرتضيه أحكم الحاكمين الذي آتي اليسع الكتاب ليكون نبيا مرسلا لهداية قومه وإرساء قواعد العدل بينهم إحقّاقا للحقّ وإزهاقا للباطل. فأحكم الحاكمين هو الذي لا تأخذه العاطفة التي تجعله يميل عن الحقّ وإحقّاقه فهو الذي يحكم شدة على أصحابها أو شدة على الشدة الظالمة فيكسرها ويفك الشدة عن المظلومين، فالذين قالوا وهم يظنون أنهم قتلوا المسيح عيسى صلّى الله عليه وسلّم حكمهم فيه باطل فهو لم يُقتل ولم

---

[381] المائدة 49.

[382] المائدة 50.

[383] الأنبياء 112.

يُصلب بل رفعه أحكم الحاكمين إليه عدلا وحقّا، فالذين اتبعوه بالإيمان هم الذين حكم لهم أحكم الحاكمين بجعلهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[384].

إذا من يحكم بحكم أحكم الحاكمين لا يمكن أن يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ومن لا يحكم بما أمر احكم الحاكمين فأولئك من الكافرين، ولذا قد جاء في التوراة كما نزل في الكتاب الحكيم الحكم العدل الذي منه:

. النفس بالنفس.

. العين بالعين.

. الأنف بالأنف.

. والأذن بالأذن.

. والسن بالسن.

. الجروح قصاص.

[384] آل عمران 55 . 57.

وعليه: فمن لا يحكم بما أمر أحكم الحاكمين جلّ جلاله فهو من الظالمين مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

ولأنّه أحكم الحاكمين فحكمه واحد (الحقّ) ولذا فما أنزله في التوراة هو الحقّ وكذلك ما أنزله في الإنجيل هو الحقّ وما أنزله في القرآن هو الحقّ، ولذا الله أحكم الحاكمين واحد وعدله الحقّ واحد سبحانه أنه أحكم الحاكمين،

ولذا؛ فالخليفة في الأرض هو من اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه كما اندمج اليسع صلّى الله عليه وسلّم حاقا للحقّ ودامغا للباطل وعادلا بين النّاس في حكمه في قومه.

وعليه فمن العدل:

أ ـ الحث عليه.

ب ـ العمل به في كل مكان وفي كل زمان.

ولأنّ العدل هو عدل أحكم الحاكمين فهو عدل واحد لا عدلان، ولذا؛ فالعدل هو اسم صفة لأحكم الحاكمين لا يقتصر على مجال من مجالات الحياة بل يمتد ليشمُل التعامل الحسن في كل المجالات، ولهذا أتي اليسع صلّى الله عليه وسلّم الحكم ليحكم بالعدل، قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ

أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ}385.

وعليه فإنّ النبي اليسع مؤتى الحكم إيتاء من أحكم الحاكمين جلّ جلاله الذي يحكم الأمر ظاهرا وباطنا، إنّه الحكم العدل، الذي اصطفي النبي اليسع عليه الصّلاة والسّلام نبيا لقومه.

وهنا الحكم هو الذي يلمّ بالمطلق بمستوجبات الحكم فيما يحكم، والله عزّ وجلّ الحاكم العدل، والحَكَم العدل في حُكْمه.

قال الشاعر:

أقادَت بنو مروانَ قيسا دماءنا ... وفي اللهّ إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عَدْلُ386.

والخليفة الحكم هو الذي يفصل بين النّاس ليُعرف الخير من الشر، والحقّ من الباطل، والله جلّ وعلا هو الحكم المطلق الذي ميز بين النقائض عموما وبين الحقّ والباطل خصوصا.

ويرتبط الحكم بالعدل في مواضع كثيرة من القران كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}387

385 الأنعام 86 . 89.

386 الجمهرة، ج 1، ص 292

387 المائدة 95

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}388

إنّ اقتران الحكم بالعدل أمر لا يشكّ فيه عقل، فالله هو العدل وهو الحكم، ومن بديهيات ما يقبل العقل اقتران الحكم بالعدل وبخلاف ذلك لن تعمر الأرض، ولا يمكن للبشرية أن تتعايش وتتطور وتبني الحضارة التي وصلت إليها الآن وستصل إليها فيما بعد، هذا كله بمعادلة الحكم العدل.

وأوّل ما يجب على الإنسان الوقوف عليه في اسم الله (الحَكَمْ) رسم الكلمة ووقعها على النفس، حيث تُشعرك بالقوّة والحزم فتشدك لتتبين معانيها وتلتمس الطريق إلى إدراك حقّيقتها، وذلك بإثارة التساؤلات عن الكيفية التي يكون فيها الحكم عدلا؟ والإجابة على مستوى الخليفة هي أن يتوخى الخليفة أمورا بعينها، منها:

أولا: لا يقبل أن يكون حكما إلا بما شرع الله: أي أن يستمد قواعد احتكامه ممّا أنزل الله له من آيات تشريعية تبين له الحقّ من الباطل والحلال من الحرام والمحبب والمفضل من المكروه والواجب اجتنابه، وأن يتبين بدون استعجال. قال تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ

---

388 النساء 58

وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}389.

يتحقّق العدل لمن يروم إشاعته بالحكم بما شرع الله، فالحَكَمُ البصير بعباده والرّحيم بهم شرع من الأحكام ما يمكّن بني آدم من العيش في الأرض وتعميرها والخلافة عليها، وهي أحكام ترتضيها النفوس وتعجب بها الألباب لما فيها من دقة ومن رحمة وخير، والحكم سبحانه يقول: {وَكَفي بِربّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}390.

ونصّ الذكر الحكيم على مصادر الحكم بالعدل، وبصيغةٍ مؤكدةٍ تقوم على استخدام فعل الأمر الملزم (أحكم)، متبوعا بلا الناهية دلالة على حتمية الوجوب وانتفاء الجواز، يقول عز من قائل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ

389 المائدة، 42، 45.

390 الإسراء 17

ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}391.

والنصّ واضح صريح، فمصدر الحكم الكتاب مع تحذير بيّن بالابتعاد عن الهوى وعن الأحكام العاطفية، ويتضح أن آفة الحكم اتباع الهوى من قبل الحاكم، وعلى الخليفة في الأرض تجنب الوقوع فيما نبه الله نبيه إلى عدم جواز الأخذ به، وبخلاف ذلك يقع الإنسان في الظلم كما تنص الآية الكريمة: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}392.

ومن مصادر الحكم العدل السنة الصحيحة، فهي ممّا يستند عليه الخليفة في الحكم إن أراد أن يكون حكما عدلا، وفي القران إشارة تدل على ذلك: {فَلَا وَربّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}393.

ثانيا: أن يكون الحكم محايدا فلا يميل إلى طرف دون آخر لا لحبٍ ولا لبغض، وهذا ربّ العزّة الحكم العدل يُعلّم الإنسانَ درسا عظيما ليكون حياديا في الخصومة وذلك في قصة سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام مع فرعون، يقول عزّ وجلّ: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا ربّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا ربّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ ربّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ

391 المائدة 50

392 المائدة 45

393 النساء 65

الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ ربّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ ربّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}394.

فالله سبحانه يقدّم لخليفته في الأرض المثل الأعلى في الحياد، فبالرغم من كون موسى رسول الله وهو ضعيف خائف، وفرعون عدو الله وهو قوي ظالم إلا أنه سبحانه عامل الطرفين في هذه الخصومة على حد سواء، فقد طلب الله من موسى وأخيه أن يحاورا خصمهما باللين وذلك بسبب طغيان سابق، فقال سبحانه لموسى عن فرعون (أنه طغى) بالفعل الماضي، وفي ذلك حكمة، لأنّ استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغى) أو الفعل المضارع للمستقبل (سيطغى) فيه حكم مسبق من الله على فرعون مع علمه سبحانه أن فرعون سيبقى على طغيانه لكن الله يريد أن يعلّم موسى عليه الصّلاة والسّلام وخلفاء الله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة لأن ذلك خلاف الحياد الذي يدعو إليه الحكم العدل.

ثالثا: المساواة، الحكم العدل سبحانه يساوي بين عباده، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقربّون به إليه، وليس أدل على ذلك من تعامله سبحانه وتعالى مع أنّبيائه، فعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لذريته أجابه الله تعالى إجابة تشع بالمساواة، يقول عزّ وجلّ: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}395، فذرية إبراهيم على شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد الله، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلى إبراهيم إن هم ظلموا أحدا من النّاس، فالأولى بالخليفة

394 طه 43 . 50

395 البقرة 124

أن يساوي بين رعيته فلا يقربّ أحدا لنسبٍ أو لمودة، ويباعد آخر لقطيعةٍ أو عداوة، وإنما الرعية سواء.

والمساواة في ممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل، مع من تحب أو من تكره، وهذا ما يدعونا إليه الحكم العدل:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْربّ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}396.

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمّد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدِّي، واعملوا فيه بأمري397.

فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحكم، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبهم، فهم سواء، فتحقّيق العدل يتم بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوى، وتستند على الوحي الذي يوحى.

رابعا: التدقيق في الأحكام، وهو ممّا أرشد الله سبحانه عباده إليه بالآيات الكريمة التي ننهل منها دروسا نتدبر من خلالها معنى الحكم العدل، ومن ذلك الآيات الكريمة التي تروي قصة سيدنا داود في الحكم بين الخصوم: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ

---

[396] المائدة 8، 9.

[397] الطبري 10، ص 95.

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}398.

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، هل أتاك يا محمّد خبر الخصمين اللذين تسلّقا السور ودخلا عليه في مكان عبادته، لا من الباب، وعندما دخلوا عليه بهذه الطريقة الغريبة خاف منهم واضطربّ، قالوا: لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضُنا بعضا، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل، لا تجُرْ في حُكمك وأرشِدنا إلى الحقّ. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أعطِني إياها لتكون في كفالتي وغلبني بكلامه وحججه، قال داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر: لقد ظلمك يا هذا حين طلب ضمَّ نعجتك إلى نعاجه، إن كثيرا من الشركاء والمتخالطين ليجور بعضهم على بعض، إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات، ولكنهم قلة نادرة، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ، وعرف داود أن الأمر ما هو إلا امتحان من الله، فطلب المغفرة، وخرّ ساجدا لله، وأناب إليه بالتوبة. فغفرنا له تعجّله في الحكم399.

398 ص 20 . 25

399 تفسير القطان، ج 3، ص 161

فالعجلة يمكن لها أن توقع الخليفة في الخطأ، والأولى له أن يتأنى ويدقق ويستمع إلى الخصوم ثم يصدر حكمه الذي يراه.

خامسا: الابتعاد عن الظلم، الله الحكم يقول عن نفسه: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ}400، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له، ولذا فهو لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد.

وعلى الخليفة أن ينتهي وينهى من معه عن الظلم، مدركا وموقنا أن عاقبة الظلم في غاية الخطورة، فقد أشارت الآيات الكريمة إلى العواقب الدنيوية والأخروية للظلم، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}401.

يقول الألوسي: المراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم402، فالظلم علة قطع الدابر وهو أثر الظالم من نسلٍ أو عملٍ.

ومن عواقب الظلم إيقاظ الفتن وعلى صعيد واسع، حيث تتسع الفتن لتشمل الظالم وغيره، وذلك لأمرين:

الأوّل: حكمته عزّ وجلّ.

الثاني: سكوت النّاس عن الظالم كما تشير الآية الكريمة: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}403،

400 الحج 10

401 الأنعام 45

402 تفسير الألوسي، ج 5، ص 332

403 المائدة 79

فالسكوت عن الظلم ظلم جزاؤه شيوع الفتن بين النّاس، فقد أُمروا أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب[404]، يقول المولى سبحانه: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[405].

أمّا قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[406]. فانّه يدل على أنّ الظلم من أسباب الهلاك.

ويرى ذوي الألباب من تغير حال بعض العباد وتبدل حالهم من الخير إلى الشر ما يعتبرون به في الدنيا استعدادا للآخرة، وهذا وعيد من الله لكل ظالم وفي كل زمان، يقول الحكم العدل سبحانه: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[407]. والآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: (وَسَيَعْلَمُ) وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: (الذين ظَلَمُواْ) وإطلاقه. وقوله: (أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه: وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها[408].

وتوعد الله سبحانه الظالمين فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[409]، وعلى من يرجو

---

[404] تفسير ابن عبد السلام، ج 2، ص 218

[405] الأنفال 25

[406] الكهف 59

[407] الشعراء 227

[408] تفسير الزمخشري، ج 5، ص 54

[409] النحل 85

لقاء ربّه أن ينتهي عن الظلم ويتراجع، ولتحقّيق ذلك على الخليفة أن لا يسمح للظلم بأن ينال من عباد الله وذلك بأن ينصر المظلوم موقنا بنصر الله في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك، ولا أدل على ذلك من قول الله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حقّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا ربّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}410.

والمتدبر لآيات الله ليسعد أيما سعادة بوعد الله جزاءً لنصرة المظلوم، كما يخاف كل الخوف وهو يقرأ وعيده.

وإذا كانت الآيات الكريمة قد بينت ما للظلم من عواقب، فإنها تركت تحديد الثواب دلالةً على عظمته، يقول المولى عزّ وجلّ: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}411.

ومعنى قوله تعالى: (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحُجّة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيما له لأنه شارعه فقال: (من ينصره) أي يقبل مجدا على الاستمرار على نصر دينه ورسله ذلك النصر (بالغيب) من الوعد والوعيد، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك، أو غائبا عن كل ما أوجب له النصرة.

---

410 الحج 40

411 الحديد 25

فكيف إذا أصبح الإنسان ظالما وأراد التوبة؟ الجواب أنّ سبيل الله واسع والظالم له أن يعود بأمرين:

الأوّل: أن يستغفر الله، لا باللسان وإنما بالقول وبالعمل وذلك بأن يرفع الظلم عمن ظلم نادما، ثم التوجه إلى الله لطلب المغفرة.

الثاني: فهو ترك الظلم وعدم الإصرار عليه كما يُعلّمنا الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[412].

والحكم مصدر الحُكم، وحَكَمَ بينهم يَحْكُمُ أي قضى[413]، فالله سبحانه هو الذي يقضي بين عباده: {إِنَّ ربّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}[414]. وعليه ينبغي أن نميز بين شيئين:

الأول: الحَكَمُ: وهو مصدر لكل حُكم، وهو الحاكم بأمره لا بأمر غيره، وتعود الأمور إليه دون سواه.

الثاني: الحُكم: هو النص الذي يحتوي ويتضمن الكلمة والجملة والمعاني التي بها يتم التشريع، وعليها تستند القرارات.

وقد نصت الآيات الكريمة على نماذج للأحكام التي يريد الحكم سبحانه إفهامها لخليفته في الأرض، وعلى مستويين:

---

[412] آل عمران 135

[413] لسان العرب، 12، ص 140

[414] النمل 78

الأوّل: نماذج للأحكام العادلة، وهي تلك الأحكام التي شرعها الله ليصلح بها أحوال الإنسان منها قوله تعالى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[415]، فمُصدر الأحكام سبحانه شرّع لنا من الأحكام ما ترضاه النفوس وتقبله العقول، لما فيها من مراعاة للحقّ وإرضاء لنفسية المجني عليه وتهذيب للجاني وردع من تسول له نفسه القيام بأي اعتداء، وعلى خليفة الله في الأرض أن يحرص أيما حرص على أن تراعي أحكامه أحوال النّاس وبما يرضي الله، وأن تكون الغاية منها إحقّاق الحقّ وليس لغايات أخرى.

وعلى الخليفة إصدار أحكام دقيقة وواضحة ومعلنة امتثالا لأحكام الحكم سبحانه، مثل ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[416].

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي أنّ الحر إذا قتل الحرَّ، فَدم القاتل كفءٌ لدم القتيل، والقصاصُ منه دون غيره من النّاس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل، فإنّه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غيرَ قاتله. ومع أنّ الدين الإسلامي جاء بغاية تحرير

---

[415] المائدة 45

[416] البقرة 178

العبيد، إلا أنّه في البداية قَبِلَ بأن يكون العبد بالعبد والحر بالحر، وذلك للبدء مع العباد من حيث هم بغاية بلوغ ما يجب أن يكونوا عليه وهو بلوغ الحرية مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}417.

والفرض الذي فرضَه الله علينا في القصاص، هو ما وصفتُ من ترك المجاوزة بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنّه وجب علينا القصاص فرضًا وجُوب فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه. ولو كان ذلك فرضًا لا يجوز لنا تركه، لم يكن لقوله: "فَمن عُفي لهُ من أخيه شيء"، معنى مفهوم. لأنه لا عفو بعد القصاص فيقال: "فمن عفي له من أخيه شيء"418.

والثاني: نماذج للأحكام الباطلة التي لا تنم عن تأمل ولا عن علم ولا عن عقل، والحكم يرينا نماذج لتلك الأحكام السطحية لتكون مثلا لخليفته فلا يقع في مثلها، يقول عز من قائل: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

---

417 النساء 92، 93.

418 الطبري، ج 3، ص 357

أَصْطَفَي الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}419.

تساؤلات استغرابية بأسباب جهل الكاذبين الذين وصفوا الملائكة بالإناث، وأنّ الله يلد وقد اصطفي البنات على البنين، ولذلك يسود الآيات تعجب على هؤلاء، فهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم. ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر420.

أمّا قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}421.

فلا شكّ أن فيه من العبر التي يجب على الخليفة الاعتبار بها لتلافي إصدار الأحكام الفاسدة، والمطلوب التمييز لكيلا يجعل المطيع لله من عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء. يقول جلّ ثناؤه: لا تسوّوا بينهما فأنهما لا يستويان عند الله، بل المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي422.

---

419 الصافات 156

420 الزمخشري، ج 5، ص 488

421 القلم 34. 38

422 الطبري، ج 23، ص 552

ويتعجب الحكم من حكمهم واستبعادا له وإيذانا بأنه لا يصدر من عاقل إذ معنى مالكم أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي[423].

وتتوالى الآيات التي يعظنا الحكم سبحانه بها، لتكون عبرة على مر السنين، ومن خليفة إلى آخر، ومنها قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[424].

الحَكَمُ سبحانه رءوف بالعباد يمهل عباده عسى أن يعودوا عما اقترفوا من ذنوب، فهو الرحيم وهو الحليم وهو الغفور، لذلك فإن الله يؤخر إنفاذ أحكامه بحقّ المذنبين من عباده رحمة منه بهم، وإمهالهم لعلهم يستغفرون، يقول سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[425].

ولكن هذا الترك والإمهال لم يكن مطلقا لأنه سيصبح عند ذاك _حاشاه سبحانه _ إهمالا، وهذا خلاف الرحمة والرأفة والمغفرة، بل اختار سبحانه أن ينبه عباده إلى ظلمهم وذنوبهم قبل إنفاذ الحكم فيهم بعدة أمور يعلمها سبحانه، ومنها ما نبهنا إليها في كتابه الحكيم كبعث الرّسُل بالكتب التي تبين للناس ما لهم وما عليهم،

---

[423] الالوسي، ج 21، ص 186

[424] الأنعام 136

[425] النحل 61

يقول الحكم سبحانه: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}426.

وهذه الكتب فيها آيات واضحة ومفصّلة، تُمكّن الإنسان من إدراك المحظورات التي تجعله في موطن الخطر، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}427، وهذا أمر كتبه الحكم على نفسه لكي لا يدعي البشر حُجّة مفادها عدم التبليغ، يقول سبحانه:{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}428، وعلى الخليفة أن يُعلم النّاس بوضوح حدود المعاملة بينهم بما يرضي الله ويمهلهم لينفذوا أمره ثم بعد ذلك ينفّذ الحكم كما علمه الله .

ومن إشارات الحكم سبحانه إرسال الآيات، ومنها أن يصاب النّاس بالبلاء تذكيرا لهم بذنوبهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}429.

والبأساء التعب المحاط بالقنوط مع فقدان مشبعات الحاجة ولذا في البأساء القحط والجوع والضراء المرض ونقصان الأنفس والأموال، لأجل أن يتذكروا مالك الملك فيدعوه ويستغفروا لذنوبهم ويتوبون إليه.

ويعم هذا البلاء ليشمل النّاس في بواديهم وفي حواضرهم تنبيها من الله سبحانه لهم على إصرارهم على الذنوب، كما فعل سبحانه

---

426 الأنعام 51

427 طه 113

428 النساء 165

429 الأنعام 42

مع آل فرعون تعليما لمن بعدهم فقال: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}430.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم، والحكمة في ذلك لأن النّاس في حال الشدّة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة 431.

هذا كله من رحمة الله بعباده فهو اللطيف الخبير بأحوالهم، فإذا أصر العبد على ذنبه أنزل الله عليه عذابا أقل وطأةً من عذاب الآخرة لعله يتنبه ويعود إلى الصراط المستقيم، يقول سبحانه: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}432.

فإذا بلغ الأمر مداه وانتهى العبد إلى ربّه انفرد ولم يبق له قريب أو نصير أو شفيع كما ينص قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}433، يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها434.

---

430 الأعراف 130

431 الزمخشري، ج 2، ص 275

432 السجدة 21

433 البقرة 48

434 الطبري، ج 1، ص 35

فلابدّ إذا من جعل الشفاعات في الإحكام من المستقبحات عند الخليفة، لأنّها ستخل بميزان العدل عنده فتخفف على المذنب وتزيد في ظلم المظلوم الذي ينتظر من الخليفة أن ينتصر له إلا أن الشفاعة حرمته من ذلك.

ومن الأمور التي يجب على الخليفة التنبه إليها الحزم في إنفاذ الأحكام التي أصدرها، وعدم تأجيل أي منها، وهذه صفة الحكم سبحانه نعقلها من قوله:{وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}435. بطبيعة الحال الحكم المطلق بيده الأمر (أي أمر) ولذا فهو يحكم كما يشاء فيما يشاء متى ما شاء، وحكمه أمر نافد بقوله للشيء كن فيكون فسبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال العادل في ملكه.

وحَكَمَ الشيء وأَحْكَمَهُ كلاهما منعه من الفساد قال الأزهري وروينا عن إبراهيم النخعي أنه قال حَكِّم اليَتيم كما تُحَكِّمُ ولدك أي امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد436.

ارتبط منع الفساد من قبل الحكم سبحانه بخلق الإنسان، حيث كان من أول الموضوعات التي أثيرت في الحوار بين ربّ العزّة وبين ملائكته، وهذا يدفعنا للتساؤل لماذا ذكرت الملائكة في أوّل ما ذكرت الفساد مع تأخيرٍ لسفك الدماء؟ لابد أن العليم سبحانه وضع في ملكوته للمفسدين عذابا شديدا أذهل الملائكة بشدته الأمر الذي جعلها تسأل ربّها عن ذلك؛ يقول المولى سبحانه: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ

[435] البقرة 117

[436] اللسان، ج 12، ص 140

فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}437.

إنّ الملائكة إذ قال لها ربّها: "إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة"، لم تُضف الإفساد وسفك الدماء في جَوابها ربّها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: "أتجعل فيها من يُفسد فيها"؟ وغير مُنْكَر أن يكون ربّها أعلمها أنه يكون لخليفتِه ذلك ذرّيةٌ يكون منهم الإفساد وسفك الدماء، فقالت: يا ربّنا "أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء"438.

وتسأل الملائكة ربّنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقّها فمن غير خلفائه، والخليفة الفعلية من قولك، خلف فلان فلانا في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده439، كما قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}440.

---

437 البقرة 30

438 الطبري، ج 1، ص 453

439 ابن كثير، ج 1، ص 218

440 يونس 14

والفساد ضد الصلاح، كما أنّه مرحلة تلي الطغيان، أي إذا طغى الإنسان تحول إلى الفساد كما تشير الآية الكريمة: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}441.

وقد منع الحكم سبحانه الفساد بعديد الآيات وبأكثر من أسلوب تنبيها منه وتحذيرا ووعيدا لعباده، ومنها:

1- أشار سبحانه إلى كرهه عزّ وجلّ للفساد فقال: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}442.

2- التذكير بما أحل الله من الطيبات في الدنيا بمقابل التذكير بكراهيته سبحانه للفساد: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}443.

3- التحذير من الفساد الخفي، وهو أن يبدو الإنسان مصلحا بقوله، وأما فعله فهو المنبئ بفساده، يقول سبحانه: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}444، فعلى الخليفة أن يتقصى عن أفعال النّاس عموما ومن حوله خصوصا ليتبين له المفسد منهم من المصلح، فيقربّ المصلحين ويبعد ويعاقب المفسدين.

---

441 الفجر 11، 12

442 المائدة 64

443 القصص 77

444 البقرة 204، 205

4-الوعيد بالعذاب للمفسدين، يقول الحكم سبحانه: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}445.

5 - مكافأة منع الفساد، يقول سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}446. أما الأسلوب الأخر الذي اختاره الحكم سبحانه ليكون لنا عبرة تدفع بنا إلى منع الفساد فهو بالإصلاح والدعوة إليه وحثنا عليه وترغيبنا فيه، فقد ربّط الله سبحانه بين الإصلاح والرزق الحسن المبارك فقال: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}447. كما بشّر الحكم سبحانه المصلحين بالأمن في الدنيا، فلا بأساء ولا ضراء فقال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}448.

والذي يعين الخليفة على منع الفساد هو إيمانه بقضية الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}449 وقال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ

---

445 النحل 77

446 القصص 83

447 هود 88

448 هود 117

449 النساء 128.

غَفُورٌ رَحِيمٌ}450 وقال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}451.

إنّ كل صلاح نقدره بالعقل بالنسبة إلى شخص عارضه صلاح فوق ذلك أو فساد مثل ذلك بالنسبة إلى شخص آخر فلئن كان الصلاح يقتضي وجوده بالنسبة إلى ذلك الشخص فالفساد يقتضي عدمه بالنسبة إلى شخص آخر فالسم في أصحاب السموم صلاح وفي غيرهم من الحيوانات فساد، فلو كان الصلاح اقتضى وجوده فالفساد اقتضى عدمه.

إن أفعال الله تعالى اشتملت على الخير وتوجهت إلى الإصلاح وأنه لم يخلق الخلق لأجل الإفساد ولذا فالصلح خير، ولأنه خير خلق الإنسان لفعله، ولأنه كذلك جعل الله الإنسان خليفة ليصلح ما استطاع ولا يفسد فيها ويسفك الدماء بغير حقّ.

ولأنّه الحَكَمُ فهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها، ينظمها ويسويها ويهدي إليها ويحفظها لأجل الخير ويهلكها إن أريد بها شرا. فقد أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكّل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكّل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرّجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، والحقّ أن الله تعالى راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلا ورحمة لا وجوبا وهذا ممّا أجمع عليه أهل السنة

450 المائدة 39.

451 الأنعام 48.

والجماعة، فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته[452]، فقد قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[453].

وما من معتبر إلا ويقف مذهولا أمام خَلق الإنسان، لاسيما في ملازمة الشكّل الخارجي لإرادة الفعل الداخلي، فلولا هذه اليد بأصابعها الخمسة لما كانت الأرض على ما هي عليه الآن من عمارة وحضارة، ولولا العقل المتضمن في أحسن تقويم لما تحركت اليد للبناء والعمار، يقول الخالق تبارك وتعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[454].

والله عزّ وجلّ أحكم الخلق بأن خلق كل شيء في هذه الدنيا وأتقن خلقه، فهو سبحانه يعرف كل ما يتعلق بهذا الخلق من إنسان إلى حيوان ونبات وأكوان ومجرات وغير ذلك، فهو الحكم سبحانه يقول عن خلقه وعلمه بهم: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[455].

وآيات إتقان الحكم سبحانه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا

---

[452] الألوسي 12،170

[453] السجدة 7

[454] المؤمنون 12، 14

[455] الأنعام 101

مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشكّرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَممّا لَا يَعْلَمُونَ وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}456، سبحان الحكم القدير خلق وأتقن، فلو تنبه ذو اللب إلى دقة حركة الكواكب وما يقابلها من دقة في الزمن الذي يسير الحياة على الأرض لكفاه أن يؤمن بالله الخلاق العليم.

إنّه الحكم الذي يعلم مالا نعلم سبحانه جلّ جلاله، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويشفي من يشاء ويجبر من يشاء وقد اصطفي من شاء كيف شاء، وقد أنزل الكتاب والحكمة، وقد أحي وأمات، ويبشر المؤمنين أن لهم جنات قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقّ مِنْ ربِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ

456 يس 32، 40

لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم}457.

ومن آيات إتقان الحكم سبحانه قوله: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}458.

أي أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلق أكثر أنواع.

وحَكَمَ الشيء هيمن عليه وأحاط به وتحكم في أمره، والله سبحانه هو المحيط بملكه وبخلقه وبكل شيء، ومهما حاول البشر بما يجتهدون فيه من العلم الوصول إلى حقّيقة الأشياء والى المعرفة التامة بها فإنهم سيبقون عالمين بها وجاهلين بتمام وكمال عللها وأسبابها مصداقا لقوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حقّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}459، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ ربّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}460. وعليه فإن علم الله الكامل محجوب عن البشر، فهم في دائرة النسبية لم يؤتوا منه إلا

[457] البقرة، 25 . 29.

[458] الغاشية 17

[459] البقرة، 120، 121.

[460] الإسراء، 85 . 87.

قليلا، ولذا فالحكم هو المحيط بعلمه ولا يحاط بأي علم قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}461.

فعلم الله خاص بجلاله، وحتى من اختصهم الله بعلم يفوق علم البشر العاديين لم يحيطوا بعلم الله، وإنما وهبهم من علم الكتاب، يقول سبحانه: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}462.

والإحاطة هي الإلمام الكامل وإدراك الشيء بكماله ظاهرا وباطنا463، والحكم سبحانه محيط بأفعال البشر وبأخلاقهم وبمكنوناتهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}464.

والحكم سبحانه أحاط بخلقه بما يفوق قدرتهم على المنع، فهو محيط بهم بعلمه، يقول سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ

---

461 البقرة 255

462 النمل 40

463 التعريفات 1،2

464 ق 16

بِالنّاس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}465.

وإحاطة الحكم سبحانه كلية من حيث النوع ومن حيث العدد، فهو سبحانه حكم محيط بالأشياء إحاطة تامة، عارف بكل دواخلها وخوارجها، يقول سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ أَوَلَمْ يَكْفِ بربّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}466.

أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن من خلق وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيرا فخير، وإن شرا فشر فإن قيل قوله: (أَلاَ إِنَّهُ بِكُلّ شَيْء مُّحِيطُ) يقتضي أن تكون علومه متناهية، قلنا قوله: (بِكُلّ شَيْء مُّحِيطُ) يقتضي أن يكون علمه محيطا بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهيا بالنسبة له جلّ جلاله وغير متناهي بالنسبة لنا نحن المستخلفين في الأرض، وذلك لأن خلق الله تعالى لا نعلم منه إلا القيل ولهذا لن نحيط بعلمه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

وهو محيط بكل الأشياء فلا يخفي عليه أي منها، يقول سبحانه من حكم محيط: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

465 الإسراء 60

466 فصلت 54

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}467.

وإحاطة الحكم سبحانه بخلقه مستمرة دائمة، لا موقوتة ولا موقوفة، وسورة البروج توضح ذلك في قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}468.

وممّا يدل على الاستمرارية استخدام الفعل المضارع (تكذيب) دلالة على استمرار الكافر بالإنكار لدعوة الحقّ، ممّا يستدعي دوام الإحاطة منه سبحانه بكل هؤلاء فهو الدائم سبحانه، وقوله تعالى: {والله من ورائهم} تعني من أمامهم ومن خلفهم فهي لا تقتصر على الخلف فقط. مصداقا لقوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}469 و(محيط) بهم بالقدرة والقوّة المطلقة، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط المحيط إذا سد عليه مسلكه بحيث لا يجد هربّا أو إفلات منه وفي التأويلات النجمة محيط والمحيط لا يفوته المحاط ولا يفوت المحيط شيء لإحاطة الله سبحانه عند العارفين بالكافرين من الموجودات كلها عبارة عن تجليه بصور الموجودات فهو سبحانه بأحدية جميع أسمائه سارٍ في الموجودات كلها ذاتا وحياة علما وقدرة إلى غير ذلك من الصفات والمراد بإحاطته تعالى هذا السريان ولا يعزب عنه ذرة في السموات والأرض وقالوا هذه الإحاطة ليس كإحاطة الظرف بالمظروف ولا كإحاطة الكل بأجزائه ولا كإحاطة الكلى بجزيئاته بل كإحاطة

---

467 الطلاق 12

468 البروج 20

469 الكهف 79.

الملزوم بلازمه فإنّ التعينات اللاحقّة لذاته المطلقة إنما هي لوازم له بواسطة أو بغير واسطة وبشرط أو بغير شرط ولا تقدح كثرة اللوازم في وحدة الملزوم ولا تنافيها470.

وحَكَمْتُ السَّفِيه وأَحْكَمْتُه إذا أَخذت على يده471، أي منعته من الإضرار بالنّاس سفها، وفي هذا الكون من السفهاء ما لو تُرك على هواه لظهر الفساد في البر والبحر، فلابدّ من حَكَمٍ يأخذ على يد هؤلاء السفهاء، ومن غير الله سبحانه قادر على ذلك؟

والسَّفَهُ والسَّفاهُ والسّفاهةُ: نقيضُ الحِلْم وسَفِهُتَ ْ أحلامُهم. وسَفُهَ الرّجل: صار سفيهاُ. وسَفِهَ حِلْمَهُ، ورأيَهُ ونفْسَه، إذا حملها على أمرٍ خطأ472، وقولُ اللهِ عزّ وجلّ: {إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}473. يشر القرآن الكريم إلى أنواعٍ من السفه أخذ عليهما الحكم سبحانه، الأوّل سفهٌ لا إرادي وهو ما لم يكن فيه القصد والإصرار غاية، وإنما ظهر لدون ذلك، ومثاله سفه الطفولة أو الشيخوخة، وربّما يكون لعلة عضوية كنقص العقل، أو الجنون أحيانا، أو بأسباب مرضية.

وقد أخذ الحكم تعالى على هذا السفه أخذ الحكيم العادل فوضع قيودا منظمة لتصرف هؤلاء تناسب ما هم فيه فقال: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}474.

---

470 تفسير حقّي، ج 17 ص 161.

471 اللسان، ج 12، ص 140

472 معجم العين، ج 1، ص 260

473 البقرة 130

474 النساء 5

ينهى الحكم تعالى عن تمْكين السفهاء من التصرّف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. ومن هاهنا يُؤْخَذُ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحَجْرُ للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجرُ للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفَلَس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاقَ ماله عن وفائها، فإذا سأل الغُرَماء الحاكم الحَجْرَ عليه حَجَرَ عليه.

وقد يكون أخذ الحكم على يد السفيه رحمة به ولحماية حقّه، كما جاء في قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحقّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}475.

سَفِيهًا أي عاجزا أحمق قاله ابن زيد، أو جاهلا بالإملال قاله مجاهد، أو مبذرا لماله ومفسدا لدينه قاله الشافعي أَوْ ضَعِيفًا أي صبيا، أو شيخا خرفا476. أمّا نحن فنؤكد على الضعف الذي تتعدد أسبابه، من طمع وخيانة أو نفاق أو ضلال وسوء نية، أو غير مدرك أو غير قادر، أو كان سفيها لا يقدر الأمر والظرف والزمان والمكان.

وهنا يأتي تدخل الحكم سبحانه لحفظ الحقّوق لاسيما تلك التي يسهل على بعض البشر التطاول عليها، فأخذه هنا رقابةً فهو الرقيب، ورحمةً فهو الرحيم، وحفظا فهو الحافظ ومهيمنا فهو العزيز الودود الملك القدوس جلّ جلاله.

---

[475] البقرة 282

[476] الالوسي، ج 2، ص 386

ومن رحمة الحكم سبحانه بعباده تصنيفه لبعض ذنوبهم على أنها سفهٌ، وأخذه عليهم في هذه الحالة جاء بصيغة الترغيب والترهيب، إذ قدم الرحمن الرحيم قبوله للتوبة ممن أذنب، وأخر سبحانه منع القبول رحمة بعباده ليوقنوا أن ربّهم غفور رحيم فيعودوا إليه تائبين مستغفرين، يقول سبحانه: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}477.

التوبة من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له، يعني إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء، وبِجَهالَةٍ في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأنّ ارتكاب القبيح ممّا يدعو إليه السفه والشهوة، لا ممّا تدعو إليه الحكمة والعقل478.

أمّا النوع الثاني من السفه فهو قلة المعرفة بوضع الأمور مواضعها وهو ضعف الرأي، وقد يكون سفه غير متعد وإنما ينصبُّ رأيه على التفسير479، وإلى هذا النوع أشار الحكم سبحانه بقوله: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}480.

السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره، إذا أبعد فيه أي يقول قولا هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

---

477 النساء 17

478 الكشاف، ج 1، ص 391

479 الفروق اللغوية، ج 1، ص 193

480 الجن 4

واعلم أنّه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أنّ كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الأمرين شطط ومذموم481.

وأخذ الحكم سبحانه على هذا النوع من السفه جاء بطريقة التعريض للمنع، فليس للإنسان الخوض بما لا يعلم فكيف إذا تطاول في القول بما لا يعلم؟

أمّا النّوع الثالث من السفه فهو سفه الكفار والمعاندين، وأخذ الحكم عليه شديد، لأنه نابع من إصرار الكافر المعاند على الرفض لكل أشكّال الإيمان جهلا منهم بالخالق، وعدوانا على عباده المؤمنين، يقول عنهم سبحانه وتعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}482.

الضعفاء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشكّ الذي لا يؤدّي إلى يقين وظن ليس فيه حسن نية، والريْب في أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله، وأمر البعث، لإساءَتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي ربّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث

481 تفسير الرازي، ج 16، ص 76

482 البقرة 13

يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربّنا جلّ ذكره، فقال: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)، وقال: (ألا إنهم هم السفهاء) - دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه -(ولكن لا يعلمون483.

والتكبر على آيات الله وتكذيب رسله من علامات السفه التي توعد الحكم سبحانه من يسلك سبلها وعدا مهلكا يضيّع فيه المرء آخرته وذلك بصرف الله لهم عن فهم وإدراك الكتب السماوية ممّا يعني البقاء على الضلالة، يقول سبحانه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرّشيد لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}484. الآيات المعجزات العظام التي بين أيدي النّاس والتي في الآفاق والتي في أنفسهم والتي في السماوات والأرض والنجوم والكواكب والتي في الحركة والسكون والتي في السمع والبصر والتي في النبات والبحار والمحيطات والحيوانات، كلها تُرى ويحس بها ومع ذلك هم عنها غافلون.

ومن آيات أخذ الحكم سبحانه إقرار القصاص، ولولا هذا الأخذ على يد السفهاء لكانت الأرض غابة يأكل فيها القوي الضعيف، يقول الحكم تعالى: {ولكم في القصاص حياة}485، جعل الله هذا القصاص حياة، ونكالا وعظةً لأهل السفه والجهل

483 تفسير الطبري، ج 1، ص 295

484 الأعراف 146

485 البقرة 179

من النّاس. وكم من رجل قد هَمّ بداهية، لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حَجز بالقصاص بعضهم عن بعض؛ وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهي الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين486.

وعلى الخليفة إدراك ما لإقامة القصاص على المذنبين من أهمية، فهي طاعة لله، وتنظيم للحياة وذلك بمنع السفهاء من العبث بأرواح النّاس أو بأموالهم وأوطانهم.

وحَكَمَ الرّجل يَحْكُمُ حُكْما إذا بلغ النهاية في معناه مدحا لازما487، وما من مؤمن إلا يعلم أن الله سبحانه وتعالى تنتهي عنده المعارف بالأشياء فلا يبلغ مداها أحد سواه، فهو العليم، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}488.

وتتهاوى أمام قدرته كل القوى والخوارق فهو القوي، {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ ربّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}489.

وتعجز عن الوصول إلى رحمته ومغفرته وفضله قدرة، فهو المنان الرحيم، {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}490.

---

486 تفسير الطبري، ج 3، ص 382

487 لسان العرب، ج 12، ص 140

488 البقرة 32

489 هود 66

490 الحجر 49

فمن ذا يبلغ مداه سبحانه وتعالى الحي القيوم الآخر الذي ينادي؟ وما من مجيب سواه لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار.

والحكم العدل جلّ جلاله حدَّ الحدود وشرّع الشرائع لخلقه رحمة بهم وخوفا عليهم وحفظا لهم وصونا لمصالحهم في الدنيا والآخرة، ذلك أن الحدود في الأصل هي الفواصل بين الأشياء حتى يتبين بعضها من البعض الآخر، فكان الحكم العدل جلت حكمته أن شرّع هذه الشرائع وحدّ هذه الحدود ليبين للناس الحلال من الحرام، وكذلك الإباحة والمنع والواجب والمستحب والمندوب والمكروه، ممّا يراعي أحوال العباد ومصالحهم بحيث يعرف كل ذي حقّ حقّه، وبذلك تفض المنازعات والخصومات بما أوضحه الحكم جلّ جلاله في حقّوقه على خلقه، وفي حقّوق الخلق فيما بينهم، وقد فصل الله القول الحقّ بقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}491 فالله أعدل الحاكمين، لأنه أعلمهم بما كان وما سيكون، وهو أحكم الحاكمين سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

لقد كان من عدالة الحكم العدل وعلمه تعالى أنّه أول ما أوحى إلى نبيه عليه الصّلاة والسّلام، قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَربّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}492 فالقراءة أول العلم والمعرفة وهي التي تؤدّي إلى النّاس علم دينهم ودنياهم، وهي مكتفية بنفسها، لا تحتاج إلى غيرها، وهي الجليس الذي لا يمل، والصديق الذي لا يكذب، والرفيق والصاحب الذي لا يريد استخراج ما

---

[491] هود 45

[492] العلق 15

عندك بالملق، ولا تعاملك بالمكر، ولا تخدعك بالنفاق، ولا تحتال لك بالكذب، فتشحذ الطباع، وتبسط اللسان، وتنير العقل، وتبلغ بها الحاجة لما تمكنك من معرفة كل ما أمر به الله تعالى من واجبات، وما نهى عنه من مناهٍ، وبذلك تتبين الفصل بين ما تحب وترضى، وبين ما تأنف وتأبى فيما يرضى الحكم بما حكم، والحكم على صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض والعدل هو الميل، والميل عين الاستقامة، حيث لا تكون استقامة إلا عن الميل فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين فلابدّ أن يميل بالحكم مع صاحب الحقّ، وإذا مال إلى واحد مال عن الآخر ضرورة، وهنا نقول ليست الاستقامة ما يتوهمه البعض، إذ أن الاستقامة من الحكم هي الانحياز والميل إلى صاحب الحقّ، لذلك فالحكم العدل، عدل عن الباطل وابتعد عنه، ومال إلى الحقّ وانحاز إليه، ولذلك فالخليفة الذي أراده الله تعالى أن يستخلفه في الأرض حكما، هو بالضرورة يتصف بصفات من استخلفه نسبيا، إذ أن مكارم الأخلاق التي أمر بها الحكم المطلق في وجوبها فرضا على خليفته أوجبت عليه الانحياز إلى الحقّ والعدول عن الباطل حتى يستقيم الميزان.

ومن أجل استقامة الميزان فقد استخلف الحكم عزّ وجلّ خليفة في الأرض يفصل بحكمه بين الخلق بالحقّ والعدل، فمن القضاة نجد مثلا من لا نستطيع أن نسميه حكما لعدم اتصافه بما ذكرنا من صفات الحكم العدل نسبيا، فنجد بعض هؤلاء القضاة يعكسون المعنى ويغيرون المفاهيم بالانحياز والعدول، وعندما يصبح الأمر كذلك فيكون هذا التصرف هو ظلم وجور في حقّ إنسان، لباطل إنسان آخر كان له تأثير على القاضي ولا نقول على الحكم،

لأن هذا القاضي عدل إلى باطل صديقه على حساب حقّ خصمه فنصره عليه، وسواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله فمردّ ذلك إلى الحكم العدل يوم القيامة، فالحكم يفصل بالحكم يوم القيامة بين عباده بما أعلمهم وأنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة والنواميس الوضعية الحكمية كل ذلك من الاسم الحكم العدل بحكمه بالحقّ وإقامة الملة الحنيفية حيث قال تعالى: {قَلَ ربّ احْكُمْ بِالحقّ وَربّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}493 فهذه دعوة من النبي عليه الصّلاة والسّلام بقوله: يا ربّ احكم بيني وبين مَنْ بلَّغتُهم الوحي بالعدل حتى لا يستوي المؤمنون والكافرون، أي اقض بيننا وبين من كفر بالعدل المظهر للحقّوق التي جرى حكم الله فيها في الأزل، وإن أخر العذاب رحمة منه ليتوب من يتوب، فيتوب الله عليه لأن رحمته غير متناهية وإن كانت أنواعها مائة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"494

إن حكمة الحكم وعدله وإنصافه جعلت الحدود بين النّاس قائمة، وهذه الحدود التي شرّعها الشارع عزّ وجلّ، إنما هي من إنصاف الحكم لخلقه، إذ لو تُرك الحبل على الغاربّ لتعطلت

المصلحة العامة التي نصبت من أجلها إقامة الحدود التي لا يتمكن الشفاعة فيها كحد السارق والزاني وحقّوق الله على الإطلاق، ولكل من هذه الحدود لها منافعها وفوائدها لما تؤدّي من

---

[493] الأنبياء 112

[494] صحيح مسلم، ج 13، ص 311

إقامة العدل من الحكم على الجانح، وكذلك الردع والزجر للآخرين حيث قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[495] فالذي يسرق، والتي تسرق، الحكم فيها أن تقطع أيديهما جزاء بما ارتكبا، وهذا القطع هو عقوبة لهما، وزجرا وردعا لغيرهما. وذلك الحكم لهما من الله، والله غالب على أمره، حكيم في تشريعه، يضع لكل جريمة ما تستحقّ من عقاب رادع مانع من شيوعها، فالقطع هو جزاء لهما على ما فعلا من فعل السرقة وعقوبة رادعة لهما من العود مرة ثانية إلى هذا الفعل الشنيع، وهو ردع لغيرهما لكيلا يقتدي أحد بهما، وهنا نحب أن ننوه على أن الذين يطعنون في حكم الحكم العدل ممّا شرعه في قطع السارق، بأنهم يقولون هذه جريمة، حيث يقولون كيف يقطع هؤلاء المسلمون يد من يسرق، وللرد على هؤلاء من ثلاثة جوانب:

أولا: إنّ قولهم هذا فيه تعدٍ على الحكم العدل جلّ جلاله، واتهام بالظلم من طرف خفي في مهاجمة الإسلام ودين الحقّ الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[496] فالحكم الذي ارتضى هذا الدين لخلقه، وأمر خليفته باتباعه وتطبيق شرائعه لعلمه تعالى أن هذا الحُكم من الحَكم العدل المقسط الذي ما كان ظلاما للعبيد، وإنما هو رحمة بهم وحفظا لحقّوقهم.

---

[495] المائدة 38، 39

[496] المائدة 3

ثانيا: أنّ هؤلاء يرجمون بالغيب بغير علم لأنّهم جهلوا شروط تطبيق هذا الحد من الحدود التي أمر بها الحكم، أو أنهم يعرفونها ويحرفونها، إذ أنه لا يقطع السّارق إلا إذا توفرت شروط القطع المجمع عليها من علماء المسلمين التي فصلها رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وهي: أن يكون السارق بالغا عاقلا راشدا غير مجنون ولا معتوه، وأن تبلغ السرقة حدّ النصاب المقدَّر وفقا لمعطيات الشريعة، وأن يكون المال في حرز حصين، ليس على قارعة الطريق ولا مالا سائبا، وأن لا تكون في هذا المال شبهة، أي إن كان السارق شريك في المال في تجارة أو أنه أحد ورثة هذا المال وغير ذلك من الشبهات فلا يقام عليه الحد كما يظن البعض ظنا في غير مكانه، لذلك فالحكم بالإضافة المكلف بإقامة الحدود، يعلم من الحكم المطلق بما علمه من شرائعه حدود الإنصاف في إقامة حدود الحكم المطلق من أجل إعمار الأرض وإصلاح أحوال النّاس.

ثالثا: إنّ النتائج المترتبة على إقامة هذا الحد أعظم من أن تعد وتحصى، لما تؤدّي من انتشار الأمن الذي يؤدّي إلى الرخاء، فعندما يكون المجتمع آمنا مطمئنا تزدهر الحياة وترتقي بالمجتمع لما يكون من الخدمات العامة من التعليم والصحة، وما يعود عليه من نفع في البيع والشراء والتجارة، فيعرف بذلك كل ذي حقّ حقّه، ويقف عند حدّه، فالحكم بالإضافة، الذي يقيم هذه الحدود، ويعرف النّاس بها، استحقّ أن يكون خليفة الله في الأرض لأنه وقف عند حدود الله تعالى الذي أمر بعدم الاقتراب منها، أو التجاوز عليها، حيث أكد الحكم عزّ وجلّ على ذلك في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَّقُونَ}497 فهذه الحدود وضعها الله للناس وأمرهم بالمحافظة عليها ولا تقربّوها لتتجاوزوا أوامرها، وقد أوسع الله في بيانها للناس على هذا النحو ليتقوها ويتجنبوا تبعاتها، وقرن الالتزام بها بالتقوى التي هي صفة خليفة الله في أرضه، فحُكم الحَكم أوجب حقّوقا للناس على بعضهم البعض، وأوجب حقّوقا له عزّ وجلّ، فحقّوق الحكم العدل منهي عن الاقتراب منها أو الاعتداء عليها كما جاء في قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}498 فأحكام الله المقررة، منع الحكم العدل من أن تخالفوها أو تتجاوزوها لأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه وظالم للمجتمع الذي يعيش فيه.

وأمّا ما هو حقّ للعبد فإن الله قد ندب فيه إلى العفو والتجاوز في أمور أحكم تشريعها رحمة بالعباد كدية القتيل، ففي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}499 فالخطاب هنا من الحكم العدل بما أوجب الله تعالى على الخليفة وعلى من يجري مجراه ويقوم مقامه من إقامة القصاص في فرض استيفائه إذا أراد ولي الدم ذلك، فالقاتل العمد عليه تسليم نفسه عند مطالبة ولي المقتول بالقصاص، وذلك لأن القاتل ليس له أن يمتنع عن القصاص لكون ذلك حقّ من حقّوق العباد على بعضهم، وهو بخلاف الزاني وشاربّ الخمر

497 البقرة 187

498 البقرة 229

499 البقرة 178

فان لهما الهربّ من الحدود لكون ما عليهما من الحقّ هو حقّ الله تعالى، وهنا يتجلى أمر الحكم عزّ وجلّ بما شرع وأوصى خليفته به إذ أنه "من الشرائع التي فرضها على المؤمنين أحكام القتل العمد، فقد فرضنا عليكم القصاصَ بسبب القتل، ولا تأخذوا بظلم أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم إتباع هذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيف، وعلى القاتل أداء الدين دون مماّطلة أو بخس، وفي حكم القتل الذي فرضناه على هذا الوجه تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى حكم التوراة الذي يوجب في القتل القصاص، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة"[500]. والحكم لعدله جلّ جلاله، شرع مع هذه العقوبة، الجنوح إلى العفو، فالعفو يكون من الولي، وهنا يبرز دور الخليفة كونه حكما بالإضافة، فعندما يجنح الولي إلى العفو يقوم الخليفة بإرضائه حقّنا للدماء وعدم إظهار الضغينة والكراهية، وأما الحكمة من الحكم في ذلك، فإنّ المظلوم هو المقتول وقد مات، والمطالب قد يتقدم بالشكّوى التي يمشي بها إلى الخليفة الحكم بالإضافة رافعا على من ظلمه تلك المظلمة، فجعلت الدية كالإحسان لولي الدم لعل ذلك الشاكي إذا

---

[500] النخب، ج 1، ص 43

بلغه إحسانه لذوي رحمة يسكت عنه ولا يطالبه عند الله الحكم العدل بشيء من دمه يوم القيامة: "لأنّ الحُكم العدل يسكن الأصوات عن الله عزّ وجلّ، وإن الحُكم الجائر تكثر منه الشكّاة إلى الله تعالى"501. مع أنّ من وراء ذلك هو رفع الأحقّاد، ونشر الرحمة بين العباد بما شرع الحكم من أمور، يحكم بها الخليفة، لأجل تخفيف هول الموقف يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الحكم العدل، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. والخلافة هي النيابة عن الغير لأكثر من سبب، فهي إما لغيبة المنوب عنه، وإمّا لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، فالأول والثاني يستحيلان على الله سبحانه وتعالى، وأما الوجه الثالث فهو تشريف الإنسان من الخالق عزّ وجلّ في خلافته في أرضه، وهذا استخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها، فجعله أهلا للتصرف النافذ الحكم في الأرض.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو الحكم المطلق، استخلف خليفته في الأرض، فنهاه عن مناهٍ وأمره بأوامر، فمن أطاعه فيما نهى وأمر فهو الحكم بالإضافة، حيث أمره أن لا ينزل ما ولاه إياه من الأحكام في الدماء والفروج والأموال، عن منزلته العظمى من حقّوق الله المحرمة، وحرماته المعظمة، وبيناته المبينة في آياته المحكمة، وأن يجعل مخافة الحكم المطلق عزّ وجلّ، وشرائعه التي شرّعها في الفصل بين العباد قبلة لوجهه، وإليها يتوجه في الأمور كلها، وعليها يكون قطب الرحى فيما يرضى الحكم بما حكم، فيحكم بالحقّ ويقضي بالقسط، ولا يحكّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثارا لأمر الله عزّ وجلّ حيث يقول: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

---

501 حلية الأولياء، ج 2، ص 171

فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[502]

فالحكم المطلق جعل الإنسان خليفة عنه في أرضه، وأمره بالحكم بين النّاس بما شرع له، فلا يسير في الحكم وراء الهوى، فيحيد بذلك عن سبيل الله، فالذين يحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عما أُمروا به في الدنيا فيجازيهم عليه في الآخرة. لذلك كان الحكم بالإضافة خليفة الله في أرضه بين عباده باتباع ما وجب عليه حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[503] وهذه دعوة من أجل المحافظة التامة على أداء حقّوق الله، وتأدية الشهادة بين النّاس على وجهها الحقّ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على أن تجانبوا العدل معهم، بل يجب أن تلتزموا العدل والحقّ، فهو أقربّ سبيل إلى خشية الله والبعد عن غضبه، واخشوا الله في كل أموركم، فإنّه عليم بكل ما تفعلون، ومجازيكم عليه.

والخليفة قد يكلف من يجد عنده الأهلية في أن يكون حكما، فيوجهه ويأمره بإعزاز أمر الله تعالى والشد على يد المخالفين في تنفيذ أحكامه وأقضيته، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض بالحقّ المفترض لله عزّ وجلّ، وكذلك يأمره بترك المجاملة والمحاباة لذي رحم وقربّى، فالحكم لله ولخليفته في أرضه، والمستكين

[502] ص 26

[503] المائدة 8

له لحكم الله وحكم وليه يستكين للحقّ والعدل والحكم، والمتطاول عليه، والمباين عن الجماعة ومخالف لما هو عليه عامة النّاس حقّيق بالإذلال والرد إلى الصراط المستقيم، وكذلك يأمره بتقوى الله تعالى وأن لا يستحي من الحقّ فقد قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقّ}504 فالخليفة حاكم، والحاكم حكم بالإضافة، فإذا جلس للحكم بين النّاس، يعلم أن عليه أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية الواضحة للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه وأستاره، ويفتح لهم أبواب مجلسه وأبواب قلبه، ويحسن لهم انتصابه وهيأته، ويقسم بينهم لحظه وطرفه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته، ولا يردي فيها ضعيفا لضعفه، بل يميل مع الحقّ ويجنح إلى جهته، ولا يكون إلا مع الحقّ وفي كفته، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه، موقفه هو ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان الذي قال: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}505. إنّ من أركان الحُكم العادل الذي فرضه الحكم العدل، هو ركن الشهادة وتأديتها على وجهها حيث قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}506 لذلك وجب على الخليفة وهو الحكم بالإضافة، أنّ تتجلى أمامه صفات الحكم المطلق عند الفصل بين الخصوم من استدعاء الشهود والإدلاء بما يعرفون، وهو دون شكّ صاحب فراسة في الوقوف على الحقّ واليقين من سمات الوجوه، فينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ

---

504 الأحزاب 53

505 آل عمران 30

506 البقرة 283

القضايا ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافيا، ويسأل عن مذاهبهم في الحياة، وتقلبهم في سرهم وجهرهم، والجلي والخفي من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والنزاهة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحقّ، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى، أبقاه. وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى، وأن يطالع الخليفة بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين من الرد والقبول على المحُجّة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، فيأمن في هذه السبيل كل خلل يداخله، إذ أنّ الشهادة أساس الأحكام، وإليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها أحقّ شيء بالإحكام حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والأقربّين إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا}[507] إن العدل هو نظام الوجود الكوني، وهو القانون الإلهي الذي سنّه الحكم المطلق من أجل خير الخلق ومصلحتهم بحيث لا يختلف عليه عاقلان، فالذين يذعنون للحكم العدل، ولدعوة خليفته، يكونون مراقبين لأنفسهم في الإذعان للعدل، ومراقبين للناس، في إنصاف المظلوم، ويكونون قائمين بالقسط لا لرغبة غني أو لعطف على فقير، لأن الله هو الذي جعل الغني غنيا والفقير فقيرا، وهو أولى بالنظر في حال الغني أو الفقير، ولأن الهوى هو الذي يميل بالنفس عن الحقّ فلا تتبعوه لتعدلوا، وإن تتولوا إقامة العدل أو تعرضوا عن إقامته فإن الله يعلم ما تعملون علما دقيقا، ويجازيكم بعملكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا

---

[507] النساء 135

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}508 فهذه صفات الحكم العدل يتصف بها الخليفة اتصافا نسبيا، ويعكسها أخلاقا على النّاس بحيث أنهم يتنزّهون عن شهادة الزور، وأنهم إذا وجدوا من إنسان ما لا يُحمد من قول أو فعل لم يشتركوا فيه، ويترفعوا بأنفسهم عن مثل هذه الأخلاق. ومن عدل الحكم ورحمة منه بعباده أنه قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْربّوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}509 فهذه المحرمات التي بينها الله تعالى كونه حكما مطلقا، فينبغي أن تهتموا بها وتبتعدوا عنها لا تجعلوا لله شريكا في ملكه وحكمه وإرادته، بأي نوع كان من أنواع الشرك، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله مستقبلا، لأنكم لستم أنتم الرازقين، بل نحن الذين نرزقكم ونرزقهم، ولا تقربّوا الزنا فهو من الأمور المتناهية في القبح، سواء منها ما ظهر للناس حين إتّيانه، وما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم أمر موجب للقتل، إلا إذا كان القتل بحقّ تنفيذا لحكم القضاء. أمركم الله أمرا مؤكدا باجتناب هذه المنهيّات التي تقضى بديهة العقل بالبعد عنها، فالله سبحانه وتعالى لأنه حكما قد حرم قتل قوم مشركين يكفرون بالله تعالى ويجعلون له الصاحبة والولد من اليهود والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأباح قتل مسلم فاضل قد تاب وأصلح لزنى سلف منه وهو محصن. والحكم جل شأنه جعل هذه الأمة أمة وسطا حيث قال تعالى: {وَكَذَلِكَ

---

508 الفرقان 72

509 الأنعام 151

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النّاس}510 لقد قضت مشيئة الحكم أن اختار أمة من خلقه وهداها إلى الطريق الأقوام، وجعلها أمة عدولا خيارا بما وفقها إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكون مقررة الحقّ بالنسبة للشرائع السابقة، إنها الأمة الوسط التي تشهد على النّاس جميعا، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، فتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وشعاراتهم، فتفصل في أمرها، فتقول هذا حقّ منها وهذا باطل، لا التي تتلقى من النّاس تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي شهيدة على النّاس، وفي مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على النّاس هكذا، فإن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام كونه حكما بالإضافة، هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة. وبذلك تتحدّد حقّيقة هذه الأمة ووظيفتها لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حقّ قدرها، وتستعد له استعدادا لائقا، وإنها لَلأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

إنّ الله تعالى تقدست أسماؤه وجلت صفاته هو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تكن حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجرا عظيما، فهو الذي يفصل بين عباده بالحقّ يوم الفصل ليجازي الذي آمنوا أحسن ما عملوا، والذين كفروا لهم عذاب مقيم حيث قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ إِنَّ ربّكَ

---

510 البقرة 143

فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ ربّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ}511 فقد قضى الحكم عزّ وجلّ أن الذين خرجوا على العدل والإنصاف أنهم خالدون في النّار ما دامت السموات والأرض، لا يخرجون منها إلا في الوقت الذي يشاء الله إخراجهم فيه، ليعذبهم بنوع آخر من العذاب، وأما الذين رزقهم الله السعادة فيدخلون الجنّة خالدين فيها من أول لحظة، بعد انتهاء موقف الحساب إلى ما لا نهاية، ويعطي ربّك هؤلاء السعداء في الجنّة عطاء عظيما مستديما، غير منقوص ولا مقطوع.

وربّ قائل يقول إن الخلود لأهل الجنّة فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربّك، فهذا من كرم الله سبحانه وتعالى، ولكن كيف يجوز على الله الحكم العدل أن يكون ذلك لأهل النّار حيث قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النّار وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}512 وقد علموا أنها لا تفنى أبدا فإن قيل كيف يجوز على الحكم العدل أن يعاقب على جرم منقض بعقوبة غير منقضية، قيل هو الجزاء على السواء، وكما أنه اقتصرت مدة أعمارهم على الكفر في دار الدنيا وهي حياة، وجب أن لا يقصر عنه العذاب مدة أعمارهم في الآخرة، وهي حياة أيضا، وكذلك أهل الجنّة، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فقد تفضل الحكم على خلقه بأن جعل جزاء أعمالهم بخواتيمها، فبعزته لقد أنصفنا وزادنا على النصف بهذا. لأنه من يكون كافرا جاحدا فإن التقدم في العمر والسن والتجربّة تمنحه فرصة العودة إلى الهدى

---

511 هود 106 . 108

512 المائدة 37

الصواب، ومن كان مؤمنا عاصيا يكون أمامه فرصة التوبة والإنابة، إن الله كان توابا رحيما.

الحمد لله الحكم العدل الهادي عباده صراطا مستقيما، الحاكم الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، المثيب من قدم خيرا من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال، الرقيب على ما يصدر من أفعال العباد، فيفصل بينهم بالحقّ يوم التنادي، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه والٍ. وله الحمد حيث يؤول كل شيء إلى زوال، وإن تراخى العمر وطال، فيبقى وجهه ذو الإكرام والجلال، ويبقى الحكم العدل، والرّب الذي قوله الفصل، وبيده الفضل.

7. نبي:

يقول لسان العربّ: النَّبَأُ "الخبر والجمع أنّبَاءٌ وإنَّ لفلان نَبَا أَيّ خبرا وقوله عزّ وجلّ (عَمَّ يَتساءَلُون عن النَّبَإِ العظيم) قيل عن القرآن وقيل عن البَعْث وقيل عن أَمْرِ النبي صلّى الله عليه وسلّم، والنَبِيءُ المخْبِرِ عن الله عزّ وجلّ.

وفي هذا الأمر قال العَبَّاسُ بن مِرْداسٍ

يا خاتِمَ النُّبَآءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ.. بالخَيْرِ كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُداك

إِنَّ الإِلهَ ثَنَى عليك مَحَبَّةً.. في خَلْقِه ومحمّدا سَمَّاكا"513.

في روعة الشعر ترى روعة المعنى، ومن روعة المعنى تنتقل إلى دلالة المفهوم الذي لا نتفق فيه بالتمام مع تعريف لسان العربّ للنبأ

513 لسان العرب، ج 1، ص 162.

والنبي من حيث، قوله أن النبأ هو الخبر، وان الرّسول هو المخبر، فنحن نرى غير ذلك؛ فالنبأ لم يكن خبرا، بل أنَّه نبأ بالكيفية التي عليها الحالة وليس وصفا للحالة (أية حالة أو قضية أو موقف أو قصة من القصص المنبأ بها)، لذا فالخبر هو ما يُخبر به من قِبل المخبرين، والخبر هنا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قد يكون خبرا صادقا وقد يكون خبرا كاذبا، ولهذا نقول: الخبر يمكن أن يأتي به أي مُخبرٍ ولو كان عنعنة.

إمَّا النبأ؛ فهو اليقين البيّن بعد أن يتم الإنباء به من قِبل المنبئ وليس من قبل المخبر، فالمنبئ لا يكون بالنبأ منبأ إلا إذا نُبئ مباشرة من مصدر الإنباءات العظيمة وهو الله جلّ جلاله، ولذا فالنبأ هو الذي يَنقل المنبئ له من حالة الأمية إلى حالة اليقين والعلم التام، والنبأ لا يكون إلا لنبي، ثم من بعد ذلك يكون منه نبأ عظيم لقومه أو لأمته أو لقريته أو للكافة ولذلك أتى الله تعالى اليسع النبأ كتاب وحُكما كما أتي من قبله الأنبياء أنباء ومن بعده أنبياء بأنباءٍ ورسالات خالدة عَظُمت برسالة محمّد الخاتم برسالة الإسلام للناس كافة.

إذا النبي هو المنبئ عن ربّه بنبأ عظيم، وذلك الهدف يهدف به إلى التغيير وإحداث النُقلة من الأمية إلى معرفة اليقين، قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}514، قال (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أي النبأ الذي اختلفت أخبارهم فيه لأنها لم تستند على نبأ يقين إلى أنْ جاءهم النبأ يقينا من نبي منبأ له به، حينها علموا الحقّيقة من الحقّ المطلق جلّ جلاله، ولذلك قال (عَنِ النَّبَإِ)

---

[514] النبأ 1 . 5.

ولم يقل (عن الخبر) فلو كانت الأخبار يقينا ما كانوا في حاجة لنبأٍ يقين، لذلك وصف الله تعالى النبأ بالعظيم لأنه يفوق أي خبر، فالخبر لا يُعظَّم لأنّه خبر من بشر إلى بشر، أمَّا النبأ فهو من خالق إلى مخلوق مصطفي ومجتبى (الرّسُل) ثم إلى مخلوق مستهدف بالبلاغ بالنبأ (القرى، والشعوب، والأقوام، والأمم، والكافة) ليتم الاتعاظ والهداية والاستغفار فيُتَّبع الحقّ ويُعمل به على الهداية.

والنبي يكون مُنبأ برسالة ذات شريعة وأحكام، أو يرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعوا إلى ما دعا إليه، ويرشد النّاس إلى الحقّ الذي اختلفوا فيه أو بدَّلوه، ليعالج نقصا ما طرأ على المجتمع.

النبي هو المؤمن الحقّ الذي صدَّق ثم اهتدى إلى سبيل الرشاد فاصطفاه الله نبيا مرسلا بالنبأ العظيم الذي فيه المعجزات العظام.

وعليه فالنبي هو فالمؤمن الواثق الذي لا حيِّز للظن فيه، ولهذا فالوثوق فعل يقيني، {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا}515، جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها. ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسلام، وببلوغهم إياها يوثِقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}516، أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا للخوف فيه.

قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ

[515] البقرة 125.

[516] الدخان 51.

ظَلُومًا جَهُولًا}517، روي عن ابن عباس وسعيد ابن جبير أنهما قالا: "الأمانة هي الفرائض التي أفترضها الله على عباده"518.

قال الزجاج: صفة المؤمن بالله أن يكون راجيا ثوابه، خاشيا عقابه.

وعن ابن عمر قال أتى رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال من المهاجر؟ فقال من هجر السيئات. وقال من المؤمن؟ قال: من أئتمنه النّاس على أموالهم وأنفسهم519.

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حمْلها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينا وحريصا عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربّه تعالى بحمْلها لم يُوفِّق في حمْلها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال النّاس بالباطل، وكان قول الزور متمشيا مع شهادة الزور، وكان الزنا، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أنّ الكل على هذه الشاكلة، بل هناك الأنبياء والرّسُل الذين منهم اليسع صلّى الله عليهم وسلّم، وهناك الصالحون رضي

---

[517] الأحزاب 72.

[518] لسان العرب المحيط، ج 1، ص 108.

[519] المصدر السابق، ص 108.

الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون الفاسدين، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمتزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت مصداقا لقوله تعالى: {فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأمَّا من خفت موازينه فأمه هاوية}[520].

ولذا، فالنبي هو الأمين على النبأ الذي أنبئ به ليُبيِّنه للناس المعنيين بأمره، ومن يؤمن من بعد النبأ العظيم الذي هو من عند الله عزّ وجلّ يصبح صادق الوعد والقول والفعل والعمل والسلوك؛ فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربّه في كل شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[521].

وقال أبي حامد الغزالي: "أحقّ العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة. وهذه حرفة الأنبياء والعلماء"[522].

نقول:

نحن نتفق مع هذا التعريف لأبي الغزالي الذي ربّط النبأ بالأنبياء العلماء الذين أعلمهم الله بالنبأ العظيم الذي هو المرشد لسبيل النجاة، وهو الذي به تتحقّق الهداية للحقّ العظيم الذي من

---

[520] القارعة 6 ـ 8.

[521] الإسراء 53.

[522] المقصد الأسنى، ص 49.

أجله أتي اليسع الكتاب والحُكم والنبوّة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة}[523].

بناء على ما تقدَّم علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلٌ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟ ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْله؟

نقول:

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا المؤمنون الواثقون، الذين هم متصفون بالخلائف كما هو حال الأنبياء جميعا صلّى الله عليهم وسلّم.

وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق. ولذلك قلنا أنَّ المؤمن هو: الواثق الصادق فيما يقول.

---

[523] الأنعام 86 ـ 89.

والمؤمن الحقّ هو المسلَّم بأمره، والمؤمن بالإضافة هو المسلِّم بالمؤمن الحقّ وأول المسلِّمين هم الأنبياء المصدقين المؤمنين، ولذلك فالإيمان هو التسليم، {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}524؛ فآمنَّا به تعني: سلمنا به وصدقناه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا. وبما أنَّ المؤمن لا يخاف في الحقّ أحدا، إذا أمر التسليم حقّ، ولأن أمر التسليم بالحقّ حقّ، لذا فالإيمان بالحقّ أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: (وإنّا لما سمعنا الهدى أمنَّا به) أي أصبح فعل الإيمان أمرا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقّيقة هي البيّنة، {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}525.

يقول القرطبي: "نزلت هذه الآية الكريمة في أعراب بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، في سنة جَدْبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، فكانوا يقولون للرسول صلّى الله عليه وسلّم: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يمنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا

524 الجن 13.

525 الحجرات 14، 15.

أن يتسمُّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين"526.

الإيمان خير، والمؤمن هو الخيِّر، وأول الخيِّرين الأنبياء والرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحق مِنْ ربّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}527؛ فقوله تعالى: (فآمنوا خيرا لكم) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته، ولهذا الخير ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}528، هذه الآية رسالة من الله تعالى إلى النّاس جميعا، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمّد النبي الأمي، الذي آمن بالله وكلماته وهو الذي له ملك السماوات والأرض وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقد يظن البعض متسائلا:

---

[526] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، ج 16، ص 348.

[527] آل عمران 179.

[528] الأعراف 158.

كيف يكون هو الرّسول من عند الله تعالى ويقول آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا النص يشير مباشرة لنفسه (النبي الأمي)؟

هذه الآية من عند الله تعالى، وما الرّسول إلا مكلّفا بتبليغها نبأ عظيما هي كما هيَّ دون زيادة ولا نقصان، فالله تعالى هو الذي قال النص التام لهذه الآية الكريمة، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي ولم يصف نفسه بذلك، وبهذا الوصف الرّباني يُبرئ الله سيدنا ونبينا محمّد صلّى الله عليه وسلّم من أي اتهام أو ظن، مؤكدا أنَّ الرّسالة التامة هي من عند الله وليس للرسول فيها من شيء إلا البلاغ، وبهذا أكد الله تعالى على أنّ الرّسول أمي أي لا علم له بأمر الرّسالة لو لم يُعلِمه الله بها ويُعلِّمه علمها ويُكلِّفه بالتبليغ، وهو الذي لم يعد أميا بعد أن علَّمه شديد القوى وأقرءاه الله بالأمر مصداقا لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَربّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}529، وهو الذي علَّمه الله عزّ وجلّ الكتاب والحكمة لأجل أن يعلم النّاس الكتاب والحكمة مصداقا لقوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}530.

ولهذا فمن معجزات النبي الأمي كان تعلُّمه بالأمر (كن) (اقرأ) من شديد القوى حتى أصبح هو المعلِّم للناس بما علَّمه الله به من نبأ عظيم.

529 العلق 1 . 5.

530 البقرة 151.

ولذا؛ فإنّ الرّسول وكل رسول من بعد الرّسالة لم يكن أميًّا حتى ولو كان أميا من قبلها كما هو حال سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فهو الذي بعد أن علَّمه الله أصبح هو المبيّن لِما علّمه من نبأ، فالرّسول قبل الرّسالة بحقّ كان أميا بأمرها، أمَّا من بعدها فقد علَّمه الله عزّ وجلّ بعلم الرّسالة، فالرّسول صلّى الله عليه وسلّم لو لم يعلم أنَّ الله على كل شيء قدير ما آمن به، ولو لم يعلم علم اليقين بأنه الحقّ ومنه الحقّ ما اصطفاه الله رسولا له، ولو لم يكن كذلك قادرا على حمْل ما كلَّفه بحمله ما حمِلَ الرّسالة وبشَّر بها ودعا إليها وحرَّض على ما تأمر به، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعية التي يعود إليها جميع المسلمين واتخذوه أسوة وقدوة حسنة، {وَمَا آَتَاكُمُ الرّسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}531، وقوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}532 فأنزله بعلمه الذي عَلِمهُ محمّد أولا ثم بشَّر به ثانية.

وعليه: فالذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم المؤمنون حقّا الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهم الذين لم يصاحبهم ظنا بما أمنوا به، وهم الذين لا يقولون إلا ما يفعلون، ولذلك فهم المؤمنون، ولأنّ المؤمنين هم جمع مؤمن، لذا فهم القوّة المجمَّعة بقوّة الإيمان التي بها يضمنون الأمن وهم مطمئنون مهتدون بمعرفة تامة إلى ما يجب اتباعه، وإلى ما يجب اجتنابه، وهؤلاء هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهذا الحال هو بالتمام حال أمر الخليفة، الذي آمن بالله ورُسُله وكُتبه وملائكته، أمَّا حال أولئك البعض من الذين لم

[531] الحشر 7.

[532] النساء 166.

يؤمنوا بالوحدانية الإلهية ولم يؤمنوا بجميع الرّسُل والكتب والملائكة، وخانوا الله والرّسول وأماناتهم، فهم لم يكونوا من الخليفة في شيء، والأمر الذي جعلهم من المستثنين هو عدم إيمانهم، ولكن الله بعث الأنبياء والرّسُل خليفة له في الأرض فاقتدى بهم المؤمنون الكرام والصديقون العظام فخلف من بعدهم خلف ورثوا الأرض بصلاحهم وسيكونون من الوارثين في الجنّة كما كان اليسع صلّى الله عليه وسلّم الذي آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}533.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرّسول وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}534.

في هذه الآية الكريمة نهى الله تعالى عن ثلاث خيانات:

ـ خيانة الله تعالى.

ـ خيانة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ـ وخيانة الأمانات.

---

533 الأنعام 86 ـ 90.

534 الأنفال 27.

والنهي عن الخيانة هو نهي عن ارتكاب الأفعال الفاقدة لمعاني الصدق، ولذلك فالقاعدة هي:

(قول الحقّ وفعل الحقّ).

والشذوذ عن القاعدة هو:

الكذب (خيانة قول الحقّ وفعل الحقّ واستبداله بالقول الزور والفعل الزور).

والأمانات في هذه الآية جاءت غير محددة، ممّا يستوجب تعددها إلى النهاية، فالأبوة أمانة، والأمومة أمانة، والأخوة أمانة، والعمومة وذي القربى أمانة، والجيرة أمانة، وممّارسة الحقّوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات أمانات، التعلم والتعليم أمانة، العمل والإخلاص فيه أمانة. العهد أمانة، الإيمان أمانة، الفرائض أمانة، قول الحقّ وفعل الحقّ أمانة، وغيرها من الأمانات كثير، وفي مقابلها الكثير من الخيانات، فالزنا خيانة، وشهادة الزور خيانة، الشكّ بالله خيانة، بيع الوطن خيانة، هتك العرض خيانة، أكل أموال النّاس بالباطل خيانة، إتباع المنهي عنه خيانة، وهكذا تتعدد الأمانات والخيانات على كفتي العدل إلى النهاية.

ولذلك فإنّ اسم المؤمن جلّ جلاله اسم الوثوق، الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل على صدق ما يُقال، فالمؤمن اسم عهد على الإيمان، ولذا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله. ولذا فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنه الرسوخ والثبوت على الحقّ بقوّة الحُجّة.

وعليه النبي هو من بُعث سلاما للناس ليهتدوا على يديه والبيِّنة التي بينهما وبالتي هي أحسن، وهذا الأمر ينطبق بالتمام على

سيدنا اليسع الذي بعثه الله نبيا لقومه ليُبيّن لهم الحقّ من الباطل ويهديهم لتوحيد الله وينهاهم عن الشرك به، ولذا فالنبي هو من كان سلاما على نفسه وعلى من بُعث فيهم نبيا مُرسلا، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}535.

ولأنّ النبي هو سلام من عند الله على العباد، وسلام إليهم، لذا كان اليسع نبي سلام صلّى الله عليه وسلّم يهدي للتي هي أنفع وأعظم، ولأن السلام من أسماء الله الحُسنى واليسع نبيا مستخلفا في قومه من لله تعالى إذا بطبيعة الحال أن يكون اليسع سلام، ورسول سلام من السلام المطلق جلّ جلاله.

ويقول الإمام ابن القيم في اسم السّلام جلّ جلاله قولان: "أحدهما أنّه مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى أنه ذو السلام وذو العدل على حذف المضاف، والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل أي السالم كما سمّيت ليلة القدر سلاما أي سالمة من كل شر، بل هي الخير لا شر فيه"536.

وعليه: فالسّلام الحقّ هو الله تعالى، والسلام هم الأنبياء والرّسُل الذين منهم اليسع الذي بُعث نبي سلام لقومه وهكذا يكون حال من يؤمن بالسلام ويهدي إليه، ولهذا فالسلام يرتبط بدرجة

---

[535] آل عمران 19، 20.

[536] مشرف على عبد الله منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى، الدمام، دار ابن الجوزية، 2005، ص 279.

الالتزام بما يأمر به السلام الحقّ. ولذلك السلام الحقّ جاء مطلقا بلا شروط، والسلام بالإضافة لا يتم إلا بالتزام شرطي وفقا لنص من السلام الحقّ، وهي (الشرعة) التي إن التزم بها قولا وفعلا كان الخليفة في الأرض، وإن لم يلتزم قولا وفعلا فلن يكون الخليفة، وذلك لنقصه عمّا يراد له أن يكون عليه من شِرعة، قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شكّ مِنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنَا وربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}537.

ومن آثار الإيمان بهذا الاسم الآتي:

1 ـ الله تعالى هو السلام، السالم من كل نقص وآفة وعيب وهو اسم عظيم وفي معناه قريب من صفة القدوس جلّ جلاله.

2 ـ الله سبحانه وتعالى هو المسلم على عباده وأوليائه في الجنّة قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ ربّ رَحِيمٍ}538.

3 ـ الله تعالى هو المسلم على أنبيائه ورسله لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم التامة له وتحملهم في سبيل الطاعة الشدائد، فيؤمنهم في

537 الشورى 13 ـ 15.

538 ياسين 58.

الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون، قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}539.

وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}540.

وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}541.

وقال تعالى: {لَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}542.

وقال تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}543.

4 . الأمر بإفشاء هذا الاسم وأنّه مفتاح الدخول للجنة، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ}544.

بناء على ما تقدم فإن السلام الحقّ، شرَّع شريعة تستوجب الإتباع من قبل من يراد له أن يكون الخليفة، ولهذا التزم اليسع كما التزم من سبقه ومن لحقّ به من الأنبياء والرّسُل الذين اصطفاهم الله لِيُبلّغوا رسالاته، والذين برسالاتهم آمن المسلمون، وفي مقابل ذلك كان غيرهم خوالف، ولهذا أصبح المؤمنون هم الخليفة، وأصبح غيرهم، هم الخوالف.

---

539 الصافات 79.

540 الصافات 109.

541 الصافات 120.

542 الصافات 130، 131.

543 الصافات 181، 182.

544 الحجر 45، 46.

إذا الخليفة هو من يختار بإرادة حرة طريق الجنّة ويتجنَّب كل ما من شأنه أن يؤدّي به إلى النّار. أمَّا أولئك الذين لم ينتهوا فهم الضالون الذين لن يُستخلفوا في الأرض، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}545 وقوله تعالى: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ}546.

وقد يتساءل البعض:

لماذا الانتهاء؟

نقول:

من أجل أن يعمَّ السّلام، ولذلك جميع المفسدات منهي عنها، وجميع المفسدين مطلوب منهم الانتهاء عن كل ما من شأنه أن يؤدّي إلى الفتنة، وجميع المسلمين مطلوب منهم قول الحقّ وفعل الحقّ طاعة للسَّلام الحقّ.

ولأنّ الأنبياء هم أنبياء ورُسُل سلام فمن يؤمن بهم لابد أن يكون من رُسُل السلام في الأرض التي يُراد لها أن تُعمر بالحقّ وتُصلح.

ومع أنّ السلام أمر يعمَّ النّاس إلا انّه يخصّ البعض:

ـ يعم النّاس: باعتباره حقّ عام من السَّلام الحقّ.

ـ ويخص البعض: باعتباره لن يكون إلا للذين يعملون عليه.

545 المائدة 73.

546 العلق 15.

ولهذا؛ فالسلام قوّة لا يُمكن أن يحقّقه الضعفاء. ولذلك؛ فإنّ الذين لم ينتهوا هم الضعفاء، والذين استجابوا همّ الأقوياء.

وعليه: فالسلام قوّة تحقّيق الاستقرار والأمن والعدل ولهذا، أجتبي اليسع كما أجتبي غيره من الرّسُل قوّة لتحقّيق السلام الذي هو القوّة الحقّ التي يكون الأمر بها أمر معروف والنهي عنها منكرا، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}547. وإن جنحوا للسلم تعني إن جنح الخصم أو العدو إلى القبول بإحقّاق الحقّ فلا ينبغي المكابرة وعلى المسلم أن يقبل بذلك قبل غيره، وفي مضمون وإن جنحوا أن يكون المسلمين في حالة قوّة، فالقوّة هي التي تجعل العدو يجنح إلى ما يبتغيه المسلم وهو السلام.

وصلّى الله عليه وسلّم اسم لله تعالى، فبسم الله الرحمن الرحيم تفتح أبواب النجاح وتحفظ من كل شر، ولذلك فهي الآية المفتاح، التي بها يتم التمكن من الدخول إلى والخروج من. ولهذا جاءت استجابتها بالآية الحمد لله ربّ العالمين، الدالة على ضمان النجاح للعمل الذي يؤسس على اسمه تعالى السلام، ممّا يستوجب الحمد لمن كان اسمه فاتحا لكل خير وغلقا لكل شر، فالحمد لله ربّ العالمين الحافظ من شر ما خلق {قُلْ أَعُوذُ بِربّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}548 و{قُلْ أَعُوذُ بِربّ النّاس مَلِكِ النّاس إِلَهِ

[547] الأنفال 61.

[548] الفلق 1 . 5.

النّاس مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاس مِنَ الجنّة وَالنّاس}549.

إذا النبي هو العفو الرحيم لين القلب طيب النفس المستغفر للعباد والمشاور لهم والمتوكل على الله، مصداقا لقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}550، وقال تعالى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}551، ولأن هذا هو حال الأنبياء، إذا بطبيعة الحال أن يكون النبي اليسع عفو ولين مع قومه الذين بُعث لهم بالكتاب وآتاهم بالحُكم من عند الله تعالى.

والنبي لا يمكن أن يكون نبيا إلا لأنه رشيدا وقادرا على رشاد الآخرين الذين بُعث لهم نبيا كريما.

والنبي هو العليم بما مُكِّن منه من علم من العليم المطلق وخير وسيلة لذلك الإنباء الذي لا يكون إلا من الله تعالى لنبي يصطفيه بالنبأ العظيم ويظهره على آيات من آياته العظام ويكلِّفه بهداية النّاس المراد لهم الهداية كما اصطفي واجتبى اليسع صلّى الله عليه وسلّم نبيا بالكتاب والحُكم ليهدي قومه للتي هي أحسن.

أمّا العليم بالإضافة فهو المؤقت الذي لا يبقى مهما ألمَّ من علم من علمه الواسع، ولذا فالعلم الدائم للحي الدائم والعلم المؤقت للعليم المؤقت (الخليفة).

---

549 الناس 1 ـ 6.

550 آل عمران 159.

551 المائدة 13.

والعالم بالإضافة: هو المتمكن من العلم الذي أظهره عليه العالم المطلق مباشره كما هو حال الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أو كالمؤمنين الذين اهتدوا بالعلم الذي أظهره لهم الرّسُل والأنبياء وبما تركوه لهم من علوم ومعجزات وكتب محفوظة.

والعليم بالإضافة هو الملِم إلماما تاما بالعلوم التي أظهره عليها العليم المطلق، ممّا يجعله يعلم ما لم يعلمه غيره وفي هذه خصوصية لمن يصطفيهم الله لسرٍ من أسراره وحكمة من حِكمتهِ كما هو الحال الذي اجتبى به الله تعالى سيدنا اليسع صلّى الله عليه، وكما هو حال يوسف صلّى الله عليه وسلّم مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ ربّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}552.

ولأن أمر الأسرار والحِكم التي من وراء العلم ليس هينا فيتولى الله اختيار وتفضيل من هم متهيئون لهذه المهمة الصعبة فيصطفيهم لها، ويعلِّمهم ما لم يعلموا إظهارا، فتصبح رؤاهم سابقة على حدوث الفعل، أي أن المعلومة التي تتعلق بأمرٍ سيحدث يتم اطلاع البعض عليها حتى يصبحوا أهل قدرة على الأنباء بها قبل حدوثها وإن حدثت فهم لها خير مُبيِّنٍ أو مفسِّرٍ كما هو حال يوسف الذي أخصه الله بهذه المعجزة العظيمة؛ فكان يوسف صلّى الله عليه وسلّم خير مُفسّر للأحاديث، التي علّمه العليم تأويلها. وقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) يقصد بالنعمة النبوّة التي أخص بها الله آل إبراهيم والذين جاءوا من أصلابهم إسحاق ويعقوب ويوسف وآخرين من بعدهم ومن بينهم اليسع صلّى الله عليهم وسلّم.

---

[552] يوسف 6.

قال تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}553.

يفهم من هذه الآيات الكريمات أنّ مالك الملك هو الذي فضّل الأنبياء وكان اليسع من الذين فضلوا على العالمين؛ فمالك الملك "هو المتصرف بفعله وأمره"554 وهو الذي ينفذ مشيئته في ملكه كيف شاء وكما شاء إيجادا وعدما وإبقاءً وإفناءً والملك هنا بمعنى المملكة والمالك بمعنى القادر التام القدرة، والموجودات كلها مملكة واحدة وهو مالكها وقاهرها وإنما كانت الموجودات كلها مملكة واحدة لأنها مرتبطة بعضها ببعض فإنها وإن كانت كثيرة من وجه فلها وحدة من وجه ومثاله بدن الإنسان فإنه مملكة لحقّيقة الإنسان وهي أعضاء كثيرة مختلفة ولكنها كالمتعاونة على تحقّيق غرض مدبر واحد فكانت مملكة واحدة فكذلك العالم كله كشخص واحد وأجزاء العالم كأعضائه وهي متعاونة على مقصود واحد وهو إتمام غاية الخير الممكن وجوده على ما اقتضاه الجود الإلهي ولأجل انتظامها على ترتيب متسق وارتباطها برابطة واحدة كانت مملكة واحدة والله تعالى مالكها فقط، ومملكة كل عبد بدنه خاصة فإذا

---

553 الأنعام 86 . 90.

554 أسماء الله الحسنى، ج 10، ص 11.

نفذت مشيئته في صفات قلبه وجوارحه فهو مالك مملكة نفسه بقدر ما أعطي من القدرة عليها555.

مالك الملك "هو المتصرف بفعله وأمره"556.

مالك الملك: "منْ له مُلك الدنيا والآخرة خالصًا دون وغيره"557

مالك الملك الله تعالى يملك الملك يعطيه من يشاء وهو مالك الملوك والأملاك يصرفهم تحت أمره ونهيه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع558.

مالك الملك من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته يوحي بالقدرة والعظمة والتملك المطلق، لم يرد هذا الاسم إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، إلا أن دلالته تشتمل على كل ما جاء في القرآن الكريم، وكل ما جاء يمثل ملك الله تبارك وتعالى سواء كان الملك ماديا أم معنويا، والاسم يدور في فلك إدراك العقل البشري ولا يتجاوزه، فهو في ذاته مطلق ولا يدركه إلا الله تعالى، أما العقل البشري فهو يدرك (مالك الملك) من خلال ما تقع عليه عينه، وهو لا يمثل إلا جزءا يسيرا من ملك الله تعالى.

إن هذا التشكّل للاسم يوحي بالعظمة والرهبة والانفراد والجلال، فإضافة مالك إلى الملك رسمت معلما من معالم تفرد الله تبارك وتعالى في هذا الملك العظيم في جميع خواصه وأشكّاله وصوره،

---

555 الغزالي، المقصد الأسنى، ص 141.

556 أسماء الله الحسنى – ج 10، ص 11.

557 تفسير الطبري – ج 6، ص 299.

558 الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، 62.

فالإضافة هنا أغلقت كل المنافذ التي يمكن من خلالها تقييد ملك الله تبارك وتعالى وجعله ضمن أطر ضيقة يمكن تحديدها أو رسم صورتها أو الاقتصار على صفة واحدة تكون الأبرز بين باقي الصفات، فلو قال مالك الرحمة أو مالك المغفرة أو مالك السماوات والأرض، لكان الاسم لا يعبر إلا عن جانب واحد من جوانب عظمة وقدرة وجلال الله تبارك وتعالى. إلا أن وروده في قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[559] يتسم بالخصوصية الشديدة لهذا اليوم، وهو يوم القيامة، لان في هذا اليوم تتجلى فيه صورة المالك العظيم من خلال ما يحدث يوم القيامة من وقوف الخلائق وحضور الملائكة والأنبياء وحصول عملية الحساب بكل تفاصيلها، ففي هذا اليوم يظهر للخلائق كمال ملكه ودوامه وعدله وحكمته، وذهاب كل الأملاك وبقاء ملكه العظيم، فإضافة مالك إلى يوم الدين اتسمت بأبعاد عديدة لم تقتصر على جانب واحد بل على جوانب متنوعة ومتعددة، وهذه الجوانب كلها تتعلق بإظهار (مالك الملك). فضلا عن ذلك أن الإضافة فيها تخصيص لا يستطيع أي معاند أن يجادل فيه، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[560]. ففي يوم القيامة لم يعد هناك مجال لإنكار ملك الله تبارك وتعالى أو التغاضي عن ذلك، لان الإنسان حينها يكون مسلوب الإرادة، وأمام أهوال لا يستطيع فعل شيء تجاهها، بينما لو كانت الإضافة بأمر دنيوي حاصل في هذه الحياة لاستطاع المعاند المجادل أن يجادل مراء كما جادل النمرود إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في الإحياء والإماتة مع أنّ ظاهر الأمر أنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يرد بالإحياء والإماتة

[559] - الفاتحة 4

[560] - غافر 16

ما عناه النمرود القتل أو عدم القتل، إنما أراد وهب الحياة من الأساس أو سلبها.

ويوضع مالك الملك ضمن الصفات التي تتحقّق فيها صفة القدرة لله تعالى وهي (القوي، والمتين، والقادر، والمقتدر، والواجد، والعزيز، والمقيت، والملك، والوارث).

ويرد اسم (مالك الملك) في كتب اللغة مظهرا جوانب عدة تتمحور حول عدة معاني تثير في تشكّيلاتها ملكية الله تعالى العظيمة، ضمن اطر معرفية تقول أنّ الملك الأوّل عام والثاني خاص561. لأنّه لا يكون مالكا للشيء، إلا وهو يملكه، وقد يكون ملكا للشيء ولا يملكه، كما يقال: ملك العربّ. وملك الروم، وإن كان لا يملكهم وقد يدخل في المالك ما لا يصح دخوله في ملك. يقال: فلان مالك الدراهم، ولا يقال: ملك الدراهم. فالوصف بالمالك أعم من الوصف بالملك. والله تعالى مالك كل شيء وقد وصف نفسه بأنه: (مالك الملك) يؤتي الملك من يشاء. فكل ملك مالك، وكل مالك ليس ملكا، وإنما قال تعالى (مالك الملك)، لأنه تعالى يملك ملوك الدنيا وما ملكوا إلى جانب ما يملك بالمطلق سبحانه جلّ جلاله، ولذا فهو يؤتي الملك فيها من يشاء. فأما يوم الدين، فليس إلا ملكه، وهو ملك الملوك يملكهم كلهم: "وقد يستعمل هذا في النّاس، يقال: فلان ملك الملوك، وأمير الأمراء، يريد بذلك، أن من دونه ملوكا وأمراء، ولا يقال: ملك الملك، ولا أمير الإمارة، لانّ (أميرا) و(ملكا) صفة غير جارية على فعل، فلا معنى لأضافتهما إلى المصدر"562.

---

561 – مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ج 1 ص 250

562 – الفروق اللغوية ج 1 ص 474

إنّ أسلوبية العام والخاص في هذا الاسم ترسم عظمة وسلطان الله تعالى من خلال جمع الاسم (مالك) الذي لا يمكن استعماله كصفة من صفات البشر مع لفظة (الملك) التي هي الحقّ الدائم لله تعالى563، فلذلك قال الله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}564 فالملك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والمِلكُ كالجنس للمُلكِ فكل مُلْك مِلْكٌ وليس كلُّ مِلْك مُلْكا. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}565، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}566، وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}567.

يتصل اسم الله تعالى (مالك الملك) بجانب مهم من جوانب التوحيد الخمسة التي تشمل كل أبواب التوحيد في القرآن الكريم وهي:

الجانب الأوّل: إفراد الله تعالى في الخلق بمعنى أن الله وحده هو الذي خلق كل ما نعلم وما لا نعلم، إذ يقول تعالى: {قُلْ مَنْ ربّ

[563] – المفردات في غريب القرآن ص 475

[564] – التغابن 1

[565] – الفرقان 3

[566] – يونس 31

[567] – الأعراف 188

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}568 وكل شيء هنا تشمل الإنسان والسموات والأرض والأنعام والغيث والزرع والرياح وغير ذلك كثير فلا يحصى. إذ ورد الخلق في آيات عدّه منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}569 وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}570.

الجانب الثاني: إفراده تبارك وتعالى في الملك بمعنى أن الله تعالى هو المالك الحقّيقي لخلقه، إنه القول الحقّ، وهذا الجانب الذي يتصل باسم الله تعالى (مالك الملك) مبني على الجانب الأول، فطالما أن الله تعالى هو الخالق إذن هو المالك، ولا يصح ملك غيره، ولنتدبر هذه الآيات الكريمة، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}571، وقوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

568 – الرعد 16

569 – البقرة 29

570 – البقرة 164

571 – المائدة 120

شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}572، وقوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}573. وأما ما يملكه غير الله تعالى في الظاهر، فهو أولا لا يخرج عن ملك الله تعالى، لان لله ما في السموات وما في الأرض، فالمالك هذا في حقّيقته مملوك لله، ثم أن هذا الملك الذي بيدي الخليفة هو إنما جاء بأمر الله تعالى وتسخيره وتخويله، يقول تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}574، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}575. وأما المعاند لهذه الحقّيقة، حقّيقة ملك الله تعالى لكل شيء، وان ملك الخليفة في هذه الأرض إنما هو بأمر الله تعالى وتسخير منه، فسينكشف ضلاله يوم القيامة يوم يقول الله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}576 وملك الله سبحانه وتعالى لكل ما في السماوات والأرض يترتب عليه الجانب الثالث والرابع من جوانب التوحيد وهما:

الجانب الثالث: إفراد الله تعالى في الحكم والتشريع والأمر والنهي، لأنه هو المالك الخالق ومن يخلق بالتأكيد يملكن ومن يملك

---

[572] – الفرقان 2

[573] – فاطر 13

[574] – الجاثية 13

[575] – الأنعام 94

[576] – غافر 16

لاشكّ انه هو الذي يحكم ويتحكم، فهذا الجانب قائم على الجانبين الأولين، فلا يحقّ لأحد غير الله تعالى أن يحكم ويتحكم، خلق الله تعالى الذين يملكهم وكل شيء يحيط بهم، قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}577، وهنا نحن مع يوسف عليه الصّلاة والسّلام حين يضربّ ضربّته الأخيرة الحاسمة فيبين لصاحبيه في السجن لمن ينبغي أن يكون السلطان، ولمن ينبغي أن يكون الحكم، ولمن ينبغي أن تكون الطاعة، هل هي للخليفة أم للذي خلق الخليفة وأوكل له مهمة تنفيذ الأحكام في الأرض بأمر الله تعالى؟ وهذا يترتب عليه الجانب الرابع.

الجانب الرابع: إفراد الله تعالى بالعبادة والمقصود الامتثال الكامل لحكم الله تعالى وأمره وهذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله، فبما أن الله تعالى هو الخالق خلق كل شيء، وهو المالك ملك كل شيء، وهو الحاكم الذي حكم كل شيء، فلمن أن تكون العبادة بعد ذلك أيجوز أن تكون لغير الخالق والحاكم والمالك؟، فهذا خلاف المنطق والعقل قبل أن يكون خلاف التشريع والقرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}578، وقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ

---

[577] - يوسف 40

[578] - الأنبياء 25

أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}579 ويكفي أن نعلم أن هذا الجانب اعتبره القرآن الكريم غاية الخلق فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}580 .

الجانب الخامس: إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك لله تعالى في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يجوز أن نصف أو نسمي غير الله تعالى باسم من أسمائه أو صفة من صفاته على وجه الحقّيقة، إذ يقول تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}581، ولذا (مالك الملك) اسم وصفة في الوقت نفسه، لكن الصفات في القرآن الكريم على أقسام عدة لا نستطيع فهم (مالك الملك) إلا بالتعريج على نوعين من الصفات:

أ . صفات اقترنت بأسمائه تعالى وهي الأسماء الحسنى التي تدل على صفات معينة لله تعالى، فالأسماء التي تدل على الرّبوبية والخلق والعلم والقدرة والرحمة والعظمة كلها أسماء اشتقت من الوصف فهي أسماء وصفات.

ب . صفات تحمل معاني الصفات المتقدمة غير أنها لم تأت بصيغة الاسم وكأنها جاءت مؤكدة لهذه الأسماء كالأسماء التي تدل على الرّبوبية والخلق مثل (ربّ العالمين) و(الخلاق) والاسم الذي نحن بصدده (مالك الملك)، فهذه الأسماء جاءت معانيها في صيغ أخرى، يقول تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

579 - النساء 36

580 - الذاريات 56

581 - الأعراف 180

عَلِيمٌ}582، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}583، وقوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}584، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}585.

ورد أسم (مالك الملك) في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}586 إن ورود هذا الاسم في هذه الآية العظيمة رسم ملمحا معرفيا يرتكز ضمن تشكّيلات عديدة اشتملت عليها الآية، إذ يمكن أن نستعرض ما ورد في هذه الآية وفق معطيات عديدة تنم عن جوانب عديدة إلا أنها تلتقي في منعطف واحد هو تجليات الملك الذي تشربّت به الآية الكريمة، فضلا عن ذلك أن اسم الله (مالك الملك) جاء في بداية الآية ثم تبعه بعد ذلك نسق معرفي اشتمل على كل الخصائص والصفات التي تحيل عليه، وهذا النسق اشتمل على عرض قدرة الله تبارك وتعالى، فلو تدبرنا الحديث بعد اسم الله تعالى (مالك الملك) لوجدنا

582 - البقرة 29

583 - البقرة 107

584 - الحج 56

585 - أل عمران 156

586 - أل عمران 26 - 27

أنه يرتكز على الحركة التضادية أو الفعل ورد الفعل، فكل حدث يجسده فعل أو اسم مرتبط بفعل يعقبه فعل أو اسم مرتبط بفعل يخالف الأوّل ممّا شكّل مجموعة من الثنائيات التضادية تتمحور حول عدة نقاط منها:

1- الملك – العدم:

أوّل ثنائية تشكّل سياق (مالك الملك) في هذه الآيات تتعلق بصفة قريبة جدا من اسم الله تعالى (مالك الملك)، وهو الملك الذي هو في حقّيقته موضع مُلك الله تعالى في السماوات والأرض وكل الكون، وهو بأمر الله تعالى يهبه لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء، لكن السؤال هنا هل الملك الذي يهبه الله تعالى للخليفة مساويا أو مشابها لملك الله؟ والحقّيقة أنما هو ملك ظاهر يتصرف فيه الخليفة عن ضوء أمر الله تعالى، وليس له أن يتصرف به كتصرف الله تعالى، وهنا نتذكر قصة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام مع الملك النمرود حينما حاول الملك النمرود أن ينازع الله تعالى في ملكه حين حاجه النبي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بأول صفة من صفات المالك وهي الإحياء والإماتة، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}587 هنا يرتسم لنا مشهد من مشاهد الجرأة والتجاهل والعناد والمحاج، بطله ملك طغى وبغى ممّا حمله على أن حاج إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في ربّوبية الله تعالى، فزعم أنّه يفعل كما يفعل الله تعالى، فقال إبراهيم (ربّي الذي يحيي ويميت) أي: هو

587 - البقرة 258

المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأنّ الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون إلى الآخرة، فقال ذلك المحاج: (أنا أحيي وأميت) ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنّه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنّه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حُجّة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: (فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق) أي: عيانا يقر به كلّ أحد حتى ذلك الكافر (فأت بها من المغربّ) وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوّة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بهت الذي كفر) أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحقّ ويغالبه، فإنّه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[588] بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحقّ والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرّب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال.589 نحن هنا أمام وقفة عميقة إذ أن هذا الإنسان أعطاه الله تعالى الملك أي وهبه من نعمه فما كان تصرفه، هل ارتقى إلى مرتبة الخلافة أم نزل إلى درجة الكفر؟، إذ ادعى انه يستطيع الإحياء والإماتة، وقد علم سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام أن هذا الملك الظاهري إنما

---

[588] البقرة 258.

[589] – تفسير السعدي ج 1 ص 111

يجادل مراء فلم يلتفت إلى قوله أنا أحي وأميت، إنما أتى له بصفة من صفات (مالك الملك) التي لا يستطيع ردها وهي حركة الشمس بين المشرق والمغربّ التي قال عنها الله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}590 وهنا بهت الملك وظهر زيف ملكه القاصر عن تحريك أي جزء في هذا الكون، إنما هو ملك بحسب ما يسخره الله تعالى له وليس ملكا حقّيقيا أو مطلقا.

وإتيان الملك ونزعه لا يملكه إلا الله تعالى فعلى مر الزمن يتبدل الملوك ويتغيرون ويأتي غيرهم وكل هذه التقلبات تكون وفق مشيئته تعالى، فهو الذي يملك الإتيان والنزع، فمن ذلك قوله تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}591 فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل ممّا يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}592 في هذه

---

590 - يس 38 - 40

591 - الدخان 25 - 29

592 - الزخرف 51 - 56

الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملؤة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}593 فقصة فرعون تمثل أنموذجا واضحا لـ(مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تخلل هذه القصة عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل تفاصيلها.

2- العزّة – الذل:

والسؤال الذي يطرح نفسه ما علاقة (مالك الملك) بالعز والذل؟ وتبدو الإجابة يسيرة، لان من بيده كل شيء يستطيع أن يعطي من يشاء بغير حساب ممّا يجعله عزيزا، أو يستطيع أن يمنعه من ملكه أو من شيء من ملكه فيكون ذليلا، ولاحظ كيف أن الصيغة أتت فعلية مضارعة (وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) للدلالة على اختلاف النّاس بين العز والذل، إذ يقول تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}594 وقوله تعالى: {وَضَربَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

[593] - يونس 90 - 92

[594] - أل عمران 140

وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}595 أما قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَربٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آَمِنِينَ فَقَالُوا رَبّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}596 هنا القرآن الكريم يقص أخبار المهلكين والمعاقبين في صورة تتمحور على تشكّيلات متعددة لكن أبرز ما يسمها أنها تتكئ على آثار واضحة المعالم ترى بالعين، فتكون للتصديق والموعظة أقربّ، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ) والآية التي وردت في النص القرآني يستنطق فيها ما أدرَّ الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكّروه، والنعمة التي كانوا عليها تتمثل في جنتين، جنة عن اليمين وأخرى عن الشمال، والثمار تمثل أقواتهم، فضلا عن ذلك أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها، والأمن الدائم الذي يتمتعون به ممّا جعل تجارتهم رائجة وعامرة. إن هذه النعمة لم تتوفر لعدد كثير من النّاس في وقتهم، إلا أن هذه النعمة لم تدم لان أسباب الدوام فقدت فلابد لها من الزوال بأمر الله تعالى، ذلك أنهم أعرضوا عن المنعم وعن عبادته ووصل الأمر بهم إلى التمني بأن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا. (وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بكفرهم بالله

595 - النحل 112

596 - سبأ 15 - 19

وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم. الذي حول النعمة التي كانوا عليها إلى تلف وخراب في صورة تنطق بعدالة ربّ العالمين تجاه هؤلاء الكفرة الجاحدين لنعمته.

ولا نتصور أنّ العزّ والذل اللذان هما بيد (مالك الملك) مقصوران على الأمور الحسية المادية كما ذكرنا قبل قليل، بل أن العزّة والذل يكون بالإيمان والكفر، فالمؤمن عزيز وان كان فقيرا، والكافر ذليل وان كان غنيا، إذ يقول تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ العزّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}597، وهذه الآية نزلت في مكة والمسلمون بأضعف حال وأشد عازة، فأين العزّة إذن إنها عزة الإيمان وتوحيد الله تعالى والثبات على القيم والمبادئ، ولاحظ كيف أن الله تعالى يعلمنا أن نكون أذلاء مع بعضنا البعض أي الخليفة مع الخليفة الآخر بينما يكون عزيزا مع الكافر والمشرك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}598.

3- الليل – النهار:

أوّل ما يتبادر إلى الذهن ما علاقة اختلاف الليل والنهار ودخول أحدهما بالآخر باسم الله تعالى (مالك الملك)؟ وتبدو الإجابة مرتبطة بأشكّال التوحيد التي ذكرناها وقلنا فيها أن الله تعالى

---

[597] - المنافقون 8

[598] - المائدة 54

هو الخالق جلّ جلاله، والخالق يكون هو المالك، وعليه فالتصرف في كل الكون يكون بيده، ومن أشكّال التصرف في الكون مظاهر الحياة المختلفة التي تدل على ملكه لكل شيء، ولنتدبر هذه الآيات من سورة يس، إذ يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}599 فكل هذه الحوادث الكونية تشير إلى ملك الله تعالى لكل ما في الكون، لأنها تتحرك بحسب أمره تعالى، ويتكرر ذكر الليل والنهار لان المشاهدة لهما تحدث يوميا، وهذه الثنائية ترتبط بالثنائية التي بعدها.

4- الحي – الميت:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}600، النواة أو الحبة بعدما تزرع أو تغرس في البيئة الصالحة للحياة تنفلق في موتها فتخرج منها النبتة دليل الحياة القابلة للمشاهدة والملاحظة، ومن بعد حياة النبتة، لابدّ لها من الموت حيث لكل بداية نهاية، وهنا يخرج الميت من الحي، أي لو لم يكن الحي ما كان الموت، ولأنّ الموت فعل متحقّق بالقوّة، فالبعث من بعدها حياة دائمة.

وهنا صورة قرآنية يجسدها مصطلح (الخروج) تعتمد تقابل التضاد المتمثل في مشهد خروج الميت من الحي وما يضاده من

599 - يس 36 - 40

600 - الأنعام 95

خروج الحي من الميت، هذا الخروج الدال على قدرة إلهية مطلقة على الشيء وضده فالحياة والموت "يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل"601. كما أن الطبيعة بما فيها من صور خروج الحياة من الموت، وخروج الموت من وسط الحياة خير تمثيل لدلالة الخروج هنا، يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}602، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}603.

وفي مجال أخر بعيد عن المحسوسات تنسحب دلالة مصطلح الخروج إلى مجال المعنويات، في إطار التدليل على عمل الله تعالى في بعث الحياة المتمثلة بالإيمان وهو الأرفع والأسمى من الحياة الحسية، وأخرج الإنسان من الموت المتمثل بالكفر، يقول تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}604 فمصطلح الخروج هنا دار في إطار بعث الحياة المعنوية الإيمانية، والانتقال بالإنسان من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأذن الله تعالى، فهو حياة من نوع آخر، وبالدلالة نفسها

---

601 – في ظلال القرآن ج 1 ص 355

602 – الأنعام 95

603 – يونس 31

604 – البقرة 257

قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}605 وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}606 وقوله تعالى: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}607.

إذ إنّ إخراج الحي من الميت أو إخراج الميت من الحي، بمعنى إعطاء الحياة لمن يشاء وسلبها عمن شاء، لا تكون إلا لمن بيده مقاليد الأمور الذي يستطيع أن يجعل لكل اجل كتاب، ولا يكون ذلك إلا لمن يملك كل شيء، وليس كل شيء ظاهريا بل جواهر الأشياء وحقّائقها التي تحيلها أمواتا أو تبقيها أحياء، فالتراب مثلا أو الأرض يمكن أن تكون للخليفة كما نرى في حياتنا اليومية، لكن لماذا لا يستطيع الخليفة أن يخلق من الخليفة كائنا حيا أو ينبت شيئا من غير أمر الله تعالى؟ ذلك أنّ ملك الخليفة للأرض ملك ظاهر يتعلق بسطح الأرض، أما جوهر وظيفة الأرض في هذا الكون وهي إمداد الحياة بعوامل البقاء فلا يملكها إلا الله تعالى، ولذلك يستطيع أن يجعلها حية أو ميتة، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}608 وقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا

605 – المائدة 16

606 – إبراهيم 5

607 – الطلاق 11

608 – السجدة 27

وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}609وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النّاس وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}610.

أمّا (خرج) في القرآن الكريم نجد أنها تدور في إطار التدليل على تشكّيل الحياة وبعثها في محاور متباينة ومتكاملة معا، بحيث يفضل في النهاية إلى تأكيد قضية القدرة الخالقة من كلّ الجوانب وعلى كل المستويات.

ففي مجال بعث الحياة البشرية، يقول تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ}611، فالإخراج هنا جاء للتدليل على بعث الحياة في مجال بشري، إذ أن دلالة (أخرجكم) تتجه نحو الولادة التي تمثل بعثا جديدا للحياة وتشكّيلا مستمرا لمفرداتها. وبالدلالة نفسها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}612 وقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}613 وفي مجال التدليل على قدرة الله على بعث الحياة في

---

609 – البقرة 22

610 – البقرة 164

611 – النحل 78

612 – غافر 67

613 – الطارق 7

الطبيعة متمثلة بالنبات النامي، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}614 نلاحظ تكرار مادة (خرج) ثلاث مرات (فأخرجنا) مرتين و(نخرج) مرّة واحدة، بدلالة بدء جديدة لحياة متجددة في نبات ينمو ويثمر ويتكاثر، مع ملاحظة استخدام أسلوب الالتفات في (أخرجنا) من الغيبة إلى التكلم، للتنبيه على عظمة الفعل وتأكيد اختصاصه بالله تعالى. كما أنّ هذا التنوع في صيغ مادة (خرج) فيها إشارة إلى تنوّع وتلون أشكّال النباتات النامية.

5- الثنائية المتفرقة:

ثنائية واحدة في هذا السياق وردت بشكّل منفصل، فهي تتشكّل من قوله تعالى: {بِيَدِكَ الْخَيْرُ}615، و{وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}616، وعلى الرغم من أن هذه الثنائية غير مرتبطة من حيث السياق الخاص، إذ الخير بمعناه العام هو كل رزق الإنسان، وبما أنه بيد الله تعالى فشيء طبيعي أن يكون الرزق بيد الله تعالى، وأن الخير بيده من الأساس، ولهذا قال: {وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وترد لفظة البقاء في حديثنا عن (مالك الملك)، فالبقاء دال على حياة بلا فناء، ولا يوجد كائن حي في الكون كله لا يعرف

---

614 - الأنعام 99

615 آل عمران 26.

616 آل عمران 27.

الفناء، فدلالة البقاء في حقّيقتها تشير إلى الموت من وجه أخر، إذ يقول تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}617، فالآية تقرر صراحة أن الفناء جزء من كيان كل كائن حي، وان البقاء لله وحده، الحي الذي لا يموت، وكل شيء يتعلق بالذات الإلهية يتصف بالحياة الباقية التي لا تعرف الفناء، يقول تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}618، فالآية الكريمة حقّقت المفارقة بين كل ما عند البشر وما في الكون كله، وبين ما عند الله، فما عند البشر مصيره الفناء بعد الحياة، وما عند الله باق إلى أن يشاء الله تعالى، فرزق الله يصفه القرآن الكريم بالبقاء، يقول تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}619، والحياة الآخرة عند الله هي الباقية، يقول تعالى: {وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}620، وحتى عذاب الآخرة يستمد بقاؤه من بقاء الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآَيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}621، وفي سياق يجمع القرآن الكريم بين الحياة الفانية، وبين الحياة الآخرة الباقية، فيقول تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}622، فكل سبب من أسباب الدنيا يحمل الفناء في

---

617 - الرحمن 26 - 27

618 - النحل 96

619 - طه 131

620 - الأعلى 17

621 - طه 127

622 - القصص 60

داخله ولا بقاء له، وكل ما يتعلق بالآخرة يحمل البقاء في وجوده، لاتصاله بالله تعالى، الباقي بعد فناء الخلق كلهم، فالآية الكريمة حقّقت المقابلة بين دلالة الفناء متمثلا بالحياة الدنيا ودلالة البقاء متمثلا بما عند الله تعالى من حياة، فالبقاء في الدنيا محال، فهو وان دل على الحياة فانه يدل على الموت من وجه أخر.

أمّا دلالة اسم الله تعالى (مالك الملك) فإنها توحي بالبقاء الدائم، من ذلك أن الأملاك في الدنيا تقترن بأصحابها، لكنها لا تدوم لان أصحابها في عداد الأموات، لأنهم أنفس وكل نفس نهايتها الموت، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّار وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}623 وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}624 فدلالة الموت توحي أنّ كلّ ما هو موجود على الأرض سوف يذهب ويتلاشى ولا يبقى منه شيء، وهذا ما سيتحقّق في يوم القيامة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}625 هذا مشهد من مشاهد الآخرة العظيمة، فبعد أن يجتمع النّاس جميعا في صعيد واحد، لا يخفي منهم شيء، يقول الله تعالى: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) إنها الإجابة القاطعة من قالها قال الحقّ المطلق،

---

[623] - أل عمران 185

[624] - الزمر 30

[625] - غافر 16

فالله الواحد القهار، هو المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. (الْقَهَّارِ) لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه. فخطاب (مالك الملك) اتسم بنبرة التحدي للأصوات التي علت في الدنيا وتفاخرت بما ملكت ونسيت (مالك الملك) وأصرت على الكفر والعناد، فكل الأملاك تزول ويبقى ملكه العظيم الدائم سبحانه جلّ جلاله لا إله إلا هو كل شيء هالك ويبقى وجهه ذو الجلال والإكرام.

إنّ القراءة للتاريخ البشري تمدنا بسلسلة طويلة ممن أنعم الله تعالى عليهم من ملكه، ومن بينهم النبي سليمان عليه الصّلاة والسّلام الذي انفرد عن غيره من الأنبياء بما أعطاه الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآبٍ}[626] يتجلى هنا كرم الباري عزّ وجلّ في منح النبي سليمان عليه الصّلاة والسّلام ملكا لم يحصل عليه احد، إذ يدلل هذا الملك على عظمة وجلال صاحبه، فالعطاء هنا ليس طبيعيا متعارفا عليه من قبل بني البشر، فهو يمثل حالة خاصة أرادها تعالى أن تكون للنبي سليمان عليه الصّلاة والسّلام، وقوله تعالى: (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) صورة واضحة لكن

---

[626] - ص 34 - 40

الشخصيات فيها غيبية ممّا تحمل دلالات كثيرة في إعطاء صورة مهيبة لهذه المكرمة، فالشيطان صورة غيبية لا يمكن تصورها، إلا إنها وردت في القرآن الكريم من باب بث الرعب في نفوس المخاطبين، إذ يقول تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ}627. وهذه المكرمة استمرت حتى على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقد ورد في الحديث النبوي أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ أَوْ كُلُّكُمْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ {ربّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا628.

أمّا المتجبرون والطغاة فكان لهم نصيب وافر من ملك الله تعالى، لكن هذا الملك سرعان ما يزول نتيجة أفكارهم وأعمالهم التي حولت ملكهم إلى ذكرى من ذكريات التاريخ، فمن هؤلاء قارون، إذ يقول تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القوّة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى

627 - الصافات 62 - 68

628 - صحيح مسلم ج 3 ص 147

عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قوّة وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[629]، هذه الآية تتحدث عن شخصية مهمة من شخصيات التاريخ، حتى أصبحت مضربّا للمثل بما أوتي من مال، فقارون من بني إسرائيل الذين فضلوا على العالمين، وامتن الله تعالى عليهم بما أمنن به، فكانت حالتهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه وطغى، بما أوتي من الأموال العظيمة، إلا أن القرآن الكريم ذكر الأموال العظيمة ثم ذكر بعدها مفاتيح خزائنه في صورة توحي بعظمة الأموال التي كان يملكها، فإذا كان حال المفاتيح بهذا الثقل فكيف تكون خزائنه؟ أما موقف قومه فلم يكن موقف المتفرج بل كان موقف الناصح والمحذر له، إذ بينوا له أن هذه الأموال هي من الطرق الموصلة إلى الآخرة (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) وان هذه الأموال ليس كلها تتصدق بها، بل استمتع بدنياك بما يرضي الله تعالى (وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وابتعد عن التكبر وارتكاب المعاصي (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة. ثم كانت العقوبة وهي الخسف، فقد اختص هذا الشكّل من الموت في القرآن

[629] - القصص 76 - 82

الكريم بقارون المتكبر لترابط واضح بين تكبره وتعاليه ودلالة الخسف، وخَسَف الله به الأَرضَ خَسْفا أَي غابَ فيها[630]، والخسف يشبه الزلزال العظيم الذي يضربّ الأرض ثم يحدث فيها شق كبير فيسقط فيه كل ما هو موجود على سطح الأرض، فيموت كل ما دخل فيه إلا ما شاء الله، فعقاب قارون كان متناسبا مع جرمه.

ولقد هدد الله تعالى في كتابه العزيز الظالمين بعقوبة الخسف، فقال تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا}[631]، فالسياق في إثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين سواء في البر أو البحر، لكن لما كان البر أكثر إشعارا بالأمان من الماء واستبعادا للهلاك ذكره تعالى تأكيدا لقدرته على إهلاك الظالمين في أي جانب كان البر أو البحر فهما على السواء بالنسبة لقدرته تعالى، وفي قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}[632]، يلحظ في هذه الآية الكريمة مقابلة بين السماء والأرض، أظهرت قدرت الله تعالى العظيمة، فمن في السماء هو الله تعالى يقابله من في الأرض، وفي هذا إشارة إلى عظيم القدرة إذ لا يحتاج تعالى أن يكون في موضع الإهلاك ليكون قادرا على الإهلاك كعادة النّاس، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون بلا أسباب موصلة لذلك إن شاء.

ويلاحظ دقة استعمال الخطاب القرآني للصيغ الفعلية في سياقات الخسف، إذ ورد الفعل الماضي في مواضع تتحدث عن

---

[630] - لسان العرب ج 9 ص 67

[631] - الإسراء 68

[632] - الملك 16

خسف حدث وانتهى كقوله تعالى عن قارون: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}633. أما الصيغ الفعلية للمضارعة فجاءت في مواضع تتحدث عن حكم عام له تعالى متجدد في كل زمان كما قال تعالى: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}634 فالفعل المضارع (يخسف) يعطي دلالة التجدد في هذا الحكم والاستمرارية له.

أمّا الغرق فكان مع فرعون، إذ يمثل هذا الشكّل صنفا من أصناف الموت صورة العقاب والهلاك الجماعي لأمة كاملة، ذلك أنه جاء في الخطاب القرآني عقابا لقوم نوح عليه الصلاة السلام وقوم فرعون، ويمثل كل منهما أمة كافرة بذاتها.

والغرق في اللغة: "الغَرَقُ الرُّسُوب في الماء ويشبّه الذي ركبه الدَّيْن وغمرَتْه البَلايا يقال رجل غَرِق وغَريق وقد غَرِقَ غَرَقا وهو غارِقٌ"635 ورد هذا الشكّل من أشكّال الموت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة في اثنين وعشرين موضعا، ودلالته في هذه المواضع "كلها على اختلاف صيغها، فعلا ومصدرا واسم مفعول. ومن الغرق بمعناه الأول القريب، بصريح سياقها في اليم والبحر والموج، أو في قوم موسى والكفار من قوم نوح"636 قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا

[633] - القصص 81

[634] - النحل 45

[635] - لسان العرب ج 10 ص 283

[636] - التفسير البياني ج 1 ص 110

كَذَّبُوا الرّسُل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}637. الغرق هو البلاغ في الشيء إلى غايته بحسبه، فإن كان في الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبُعد قعره، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض638، ويلاحظ أن هنالك ربّطا بين الغرق والخسف وذلك لان كليهما موت بالاختناق وانقطاع النفس بسبب الغور في باطن البحر أو الأرض.

والآيات السابقة كما نلاحظ تربّط بين هلاك فرعون وقومه وقوم نوح عليه الصّلاة والسّلام "فلما أخبر الله تعالى أنه دمر آل فرعون تدميرا أخبر بأنه أغرق قوم نوح، وكل من الفعلين (دمر) و(أغرق) يُعين الآخر في بيان هول العقوبة ونوعها، فأما (دمرناهم) فإعلام بعقوبة الفناء التام العام لفرعون وجنوده، وأما (أغرقناهم) فإخبار بنوع العقوبة وتخصيصها وهي الغرق، وكلا الفئتين أبيدت غرقا، فتماثلت العقوبتان باتحاد الذنب وهو تكذيب الآيات والرّسُل"639.

ففائدة الفعل (أغرقناهم) هو تكرار معنى الإهلاك بالتدمير وبيان نوعه. ويلاحظ أن الآيات السابقة ولأنها جاءت لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين، عمد الخطاب القرآني إلى حذف كثير من تفاصيل القصتين اللتين تتحدثان عنهما موجها السياق نحو شكّلية الإهلاك وقوته، كما نلاحظ ذلك من قوله تعالى: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ

637 - الفرقان 35 - 37

638 - البقاعي ج 1 ص 90

639 - أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ص 19

تَدْمِيرًا}640 إذ حذف من السياق دعوة موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام لقومهما، والأحداث التي جرت بينهما وبين فرعون، ووجه السياق مباشرة بعطفه بالفاء الدالة على التعقب السريع إلى النتيجة النهائية وهي التدمير غرقا، وهو غرق السياق الأول لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة في إهلاك الكافرين. وبالمعنى نفسه ورد قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}641.

إنّ استعمال (الغرق) بصيغة المصدر الدال على الثبات المطلق والحدث المجرد يرسم لنا صورة مخيفة لعظم الماء الذي غمر فرعون وجنوده، وكان هذا الغرق راسخ لفرعون وجنوده وهو نوع خاص بهم عقوبة لهم على كفرهم، وعمّق هذه الصورة مجيء الفعل أدرك قبل فعل الغرق والذي يدل على بلوغ أقصى الشيء. وهو يؤذن بأنّ الغرق دنا منه تدريجيا بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنه لم يُظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلبه في الكفر642. ومعنى هذا الكلام أنّ الله تعالى لم يقبل توبته لأنّه قالها بعد أن غرق وكأنه قالها في نفسه تحت الماء، ولعلنا نلمح من لفظ أدرك تشخيصا للغرق، وكأنّه وحش مخيف يجري وراء فرعون وهو يحاول الخلاص منه!

---

640 - الفرقان 36

641 - الفرقان 37 - 40

642 - التحرير والتنوير ج 7 ص 60

وبعد الغرق وذهاب فرعون ومن على شاكلته تتجلى صورة (مالك الملك) الدائم الباقي، إذ يقول تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}643 فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل ممّا يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}644 في هذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنّه ملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملؤة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها، قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}645 فقصة فرعون تمثل أنموذجا واضحا لـ(مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تخلل هذه القصة

---

643 - الدخان 25 - 29

644 - الزخرف 51 - 56

645 - يونس 90 - 92

عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل تفاصيلها.

ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوّة والمتانة والقدرة والعزّة والغنى. وقد تجلى ذلك في عقاب الأمم السابقة، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ ربّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قوّة أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ ربّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}646. هذه الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم عليه الصّلاة والسّلام، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين، فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ ربّكَ وَإِنَّهُمْ

---

[646] - هود 74 - 81

آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}647 هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنّه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقّق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}648، وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}649. أما قوم يونس عليه الصّلاة والسّلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}650 إنّ قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصّلاة والسّلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربّعين صباحا، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.651 فصورة العذاب المتحقّقة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحقّقة عند قوم يونس، ممّا يدلل في كلا الأمرين أنّ أمر الله تعالى نافذ كما يشاء في تحقّيق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له جلّ جلاله.

647 - هود 76

648 - هود 82 - 83

649 - الحجر 74 - 75

650 - يونس 98

651 - الدر المنثور ج 5 ص 269

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقّوق، ولهذا أن توزيع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلى ما يملكه الميت، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}652 وقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}653 إلا أنّ ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه الله تعالى للكل، بان لهم الحقّ في الأملاك، إلا أن كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولابدّ له من زوال، إمّا ملك الله تعالى فهو دائم لا يزول، إذ تتضح الصورة العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها ولا يبقى إلا هو (مالك الملك) جل حلاله، يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}654.

---

[652] - النساء 8 - 11

[653] - الفجر 19

[654] - غافر 16

أمّا الحديث عن الوراثة من باب أنّ الله تعالى جعل الخليفة يرثه في الأرض، فهذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أراده الله تعالى للخليفة، إذ يقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}655. هذه من وعود الله تعالى لعباده الصادقين المخلصين بأن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في تدبيرها، والتصرف يكون بإقامة شرع الله تعالى في أنفسهم وفي غيرهم، وهذا يدخل ضمن نطاق الأمانة التي قال عنها تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}656.

أمّا من ناحية الحاجة فان كل المخلوقات بحاجة إلى ملك الله تعالى، وهذا الملك يتمثل في كل شيء يكون السبب في دوام الحياة، من ذلك الهواء فهو سرّ من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن للكائنات أن تعيش، فضلا عن ذلك فهو يعد سببا رئيسيا للحركة والتنقل، فالطائرات لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل أنواعها لا يمكن لها التحليق دون وجود الهواء، أما الماء فهذا سر عجيب، فهو أصل الحياة، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا

655 – النور 55

656 – الأحزاب 72

فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}657 وبالماء يحي الله تعالى الأرض، فيسوق إليها المطر، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}658. فضلا عن ذلك أن كثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه، فهي بحاجة له من اجل الاستمرار في الحياة.

مالك الملك، يملك مالكي الملك والملك، ويتضح الأمر هذا من خلال عملية الخلق، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس اعْبُدُوا ربّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}659، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}660 والخلق يستدل به على المالك، فالله تعالى هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالى، فضلا عن ذلك أن الله تعالى يملك ما تملكه هذه الأنفس سواء أكان الملك ماديا أم معنويا، لان أصل ما يملكونه هو من عند الله تعالى (مالك الملك)، وبذلك يتأطر هذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكلّ أبعادها وحيثياتها. إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

---

[657] - الأنبياء 30 - 31

[658] - السجدة 27

[659] - البقرة 21

[660] - فطر 11

يَسْتَهْزِئُونَ}661 هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم بما فيه من شدة وهول، فالخطاب هنا على سبيل الفرض والتقدير، لو كان لهم ما في الأرض جميعا، أي لو تحقّقت الملكية الحقّيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب، ما قبل منهم، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}662 فهنا المعادلة المفترضة لم تتحقّق، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة، والله تعالى يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون، وهنا نرجع إلى قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}663 الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلى أي مرجعيات، إلا إلى مرجعية واحدة هي أن ملك الله تعالى ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة.

إنّ لفظة (الملك) التي يبنى عليها اسم (مالك الملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك الله تعالى، فهي لم تقتصر على الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا الملك، ومن بين مظاهر (مالك الملك) الآتي:

1- الرزق:

---

661 - الزمر 47 - 48

662 - الشعراء 88 - 89

663 - الفاتحة 4

هذه المفردة تكررت في النص القرآني ضمن سياقات كثيرة تدلل بمجملها أن الرزق هو بيد الله تبارك وتعالى يتصرف به كما يشاء، ومن خلال هذا التصرف تتجسم الملكية المتحقّقة في ذات الله تعالى، فمن المواضع التي ورد فيها الرزق قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[664] تشكّلت هذه الآيات في بدايتها من عنصر مهم يمثل أحد الأماكن المهمة في مزاولة العبادة ألا وهو المسجد، ثم بعد ذلك جاء ذكر الزمن المتمثل فيه وقت العبادة، وقد خص الله تبارك وتعالى هذين الوقتين لشرفهما، ولهذا نجد أن أذكار الصباح والمساء تقدم ذكرهما على باقي الأوقات في ذكر الله تعالى، وهذه الأعمال لا يقوم بها إلا رجال اتسموا بخصائص وصفات مهمة فهم (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وهذه الأعمال رغم كل ما فيها فهي لا تشغلهم عن عبادة الله تبارك وتعالى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه، نجد أن نسق الآية الكريمة كله اشتمل على وصف لعباد الله اتسموا بصفات يريدها الله تبارك وتعالى ويحث عليها، فكان ختام الآية بالرزق (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فالرزق هنا مفتوح غير مقيد ففيه زيادة عن الاستحقّاق، وهذا الأمر يتعلق بكمال قدرة الله تبارك وتعالى، ونفاذ مشيئته في توزيع الرزق بين العباد. هذه صور من صور الرزق التي بينها الله تعالى جاءت بعد

---

[664] - النور 36

وصف للعباد بصفات لا تليق إلا بالعابد الطائع، بينما هناك صورة أخرى مغايرة رسمتها آية كريمة وانتهت أيضا بان الله تعالى بيده الرزق، إذ يقول تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}665 هذه الآية رسمت صورة واضحة عن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، وبرغم كل الصفات التي اتسم بها هؤلاء تبقى قضية الرزق فيها إطلاق، بمعنى أنها لا تقتصر على أحد من الخلق فهي لهم جميعا وهذا بطبيعة الرزق الدنيوي فهو للمؤمن وللكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}666. أما الرزق الأخر المتمثل برزق القلوب من العلم والإيمان والمحبة، والتعلق بالله ومحبته والخشية منه، فالله تعالى يعطيها إلا لمن أحبه. ومن أحبه الله دخل في رضوانه الذي هو مبلغ عظيم.

الرزق هو بمثابة الحياة والموت لكل الخلق، ومن يملك الرزق يملك الحياة والموت، إلا أن الله تعالى لم يقطع الرزق عن العاصين والكافرين، بل جعل رزقهم كرزق الذين أمنوا من أجل إعطائهم فرصة للتدبر والتفكر، فضلا عن ذلك يكون شاهدا عليهم ولتسقط كل الحجج الواهية التي يتمسكون بها في الكفر والعصيان.

إنّ إحدى صور الرزق تتمثل من خلال عملية الزرع بما تمرّ فيها من أطوار ابتدأت من وضع الحبة في الأرض إلى الحصول على الثمر، إن هذه العملية لا يملكها الخليفة وان ملك الأرض وما عليها، فهي من ملك الله تبارك وتعالى، فهو الذي ينبت الحبة حتى تصبح ثمرا يستفاد منه، ومالك الإنبات يعرض قصة تتحدث عن

---

665 - البقرة 212

666 - الإسراء 20

عظمته في العطاء، إذ يقول: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قوّة إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}667

ضربّ الله تعالى للمشركين المستكبرين مثلا برجلين جعل لأحدهما بستانين من أعناب محفوفتين بالنخل وفي خلالهما الزر وع، وكل ما فيهما مثمر، فضلا عن ذلك أن الأنهار تخترقهما، بعد عرض ما في الجنتين يبدأ حوار بين الرّجلين، إذ يقول صاحب الجنتين وهو في حالة الافتخار والجدال: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا) هنا بداية الكفر والتمرد والتجبر، فهو يرى أن ما أمامه من خير ونعمة هي دائمة لا تزول، وان هذا الملك دائم له، وهنا تجلى فيه الغرور الذي يقوده إلى الهلاك، ففكره متقوقع على فكرة الدوام وهي محالة لانّ كل ما في الكون هو ملك لله تعالى، فهو بيده كل شيء يعطي ويأخذ وينبت ويهلك ويتلف.

---

667 - الكهف 32 - 42

ويتأرجح الرزق بين ثنائية البسط والقدر، وهذا التأرجح نابع من مشيئة الله تعالى "والبسط: مستعار للكثرة وللدوام. والقَدْر: كناية عن القلة"668. ومن ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}669، وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}670، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}671 إن آلية التوزيع هذه تنم عن التملك القائم لله تعالى الموحى بالملك الطلق، فضلا عن ذلك أنّ هذا التوزيع يتبعه الصلاح الذي يريده تعالى وهذا بطبيعة الحال يكون وفقا لعلمه العظيم.

2- الإتيان بخلق جديد:

الخلق صورة من الصور الدالة على (مالك الملك)، إلا انه لا يتسم بالثبات بمعنى أن الخلق يمرون بأطوار حددها الباري جلّ جلاله، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}672. هذا هو التدرج الطبيعي للخلق من البداية إلى النهاية المتحقّقة

668 - التحرير والتنوير ج 7 ص 369

669 - الرعد 26

670 - العنكبوت 62

671 - سبا 36

672 - الحج 5

بالموت، إلا أنّ الله تبارك وتعالى عمد في خطابه إلى المؤمنين إلى استعمال صيغة الخلق ضمن الاختيار الأمثل للخلق المطيعين له، إذ وصفهم بخلق جديد يحبهم ويحبونه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}673 هذه الآية ترسم ملمحا معرفيا يتصل بصفة من صفات الله تعالى وهي انه تعالى غني عن العالمين، ذلك أن الارتداد عن دين الله لن يضر إلا من يرتد، وبذلك ينحصر الضر بالمرتد، وهذا يدخل ضمن إطار الضعف الذي يتسم به بني ادم، لان عملية الارتداد تنبع من أصل فكري محدود ممّا يضع صاحبها في نهاية تتناسب مع فعل الارتداد. وتتجلى قدرة الله تعالى في الإتيان بقوم فيهم صفة تسمو على كل الصفات إلا أن اجل صفة فيهم أن الله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وتصل درجة الحب مرتبة عظيمة، فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم : "إِنَّ اللَّهَ قَال مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَربّ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَربّ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ674 فضلا عن ذلك أنهم (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم،

673 - المائدة 54

674 - صحيح البخاري ج 20 ص 158

وقربّ الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله (أعزة)، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوّة وَمِنْ ربّاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}675 وقال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}676، فالغلظة والشدة على أعداء الله ممّا يقربّ العبد إلى الله، فهنا تتأصل المحبة التي يريدها الله تبارك وتعالى من خلال الغلظة والشدة، فضلا عن اللين الذين يكون في الدعوة إلى الله تعالى، وكلا الأمرين يتسمان بمحبة الله تعالى. إن فعل القدرة هذا لا يستطيع أحد أن يفعله إلا ملك الملوك، فالإتيان بالأقوام يتسم بالتحدي والتهديد لكل العاصين، وهو باب ينم عن جلال الله تعالى وقدرته وعظمته في ملكه.

3- الضر والنفع:

الضر والنفع من الثنائيات التي وردت في النص القرآني في كثير من المواضع، يقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ

---

675 - الأنفال 60

676 - الفتح 29

كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}677، وقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}678 السياق في هذه الآيات يدور حول الإنسان في قضية مهمة تحدد توجهه العقائدي، فبعد تعرضه إلى ضر لا يفكر في أي شيء إلا الله تعالى داعيا له ليكشف ما به من ضر، وبعد كشف العذاب نسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكّر لربّه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، كما زُيّن لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، زُيّن للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به. وهنا اتضحت ثنائية الضر والنفع من خلال وجود الضر ورفعه، فلا يستطيع أحد أن يرفع الضر إلا مالك الملك، فهو بيده الضر والنفع، ومن الأمثلة الشاخصة في هذا المضمار قصة سيدنا أيوب عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}679. إنّ النبي أيوب عليه الصّلاة والسّلام كان ذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقّت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاثَ في يوم واحد، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبْتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر. وتلقى رثاءَ أصحابه لحاله بكلام عزيز

---

677 - يونس 12

678 - النحل 53 - 54

679 - الأنبياء 83 - 84

الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالا أكثر من ماله وولدت له زوجه أولادا وبنات بعدد من هَلكوا له من قبلُ680. إنّ هذه القصة رسمت بريشة عكف صاحبها على الانتظار ليرى ما يفعله صاحب الضر وإن كان نبيا، فكانت النتيجة أنه صبر صبرا صار مضربًا للمثل عليه الصّلاة والسّلام، فبعد دعائه كشف الله تعالى عنه الضر وأعطاه أكثر ممّا كان عنده.

ويأتي الحديث عن الضر والنفع من خلال إفراد الله تعالى بالعبادة وعدم عبادة غيره، إذ يقول تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}681، ومعنى (لا يملك ضَرّا) لا يقدر عليه، وحقّيقة معنى الملك التمكّن من التّصرف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التّصرّف في الأشياء بدون عَجز682 والضر والنفع يكون وفق مشيئة الله تعالى وإرادته، فضلا عن ذلك انه يدخل في الأمور الغيبية، إذ يقول تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}683 هذه الآية تؤكد ملكية الله تعالى لهذا الأمر بوصفه أمرا يدخل ضمن الأمور الغيبة التي لا يعلمها إلا هو جلّ جلاله، لذلك ورد في سياقات عديدة في النص القرآني منها قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

---

680 - التحرير والتنوير ج 9 ص 195

681 - المائدة 76

682 - تفسير التحرير والتنوير ج 4 ص 263

683 - الأعراف 188

يَسْتَقْدِمُونَ}684، وقوله:{ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}685.

4-الرياح:

الرِّيحُ نَسِيم الهواء وكذلك نَسيم كل شيء وهي مؤنثة وجمعها رِياحٌ686، وفي التنزيل يقول تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}687 وتمثل الرياح صورة من صور ملك الله تعالى، وهذا الملك هو بيده ويصرفه كيفما يشاء فهو مالكه، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}688وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكُّرُونَ}689 تمثل الرياح علامة من علامات رحمة الله تبارك وتعالى، فحركة الرياح تمثل البشارة بسقوط المطر فهي تثير السحاب وتجمعه ثم بعد ذلك يبدأ المطر بالنزول، إن هذه العملية بكل تفاصيلها بدأ من حركة الرياح إلى نزول المطر، تمثل دليلا واضحا على المتصرف العظيم في هذه الرياح، وكيف يسيّرها كيفما يشاء إلى أي جهة شمال جنوب شرق غربّ، يختار المكان الذي يريده لغاية

---

684 - يونس 49

685 - الجن 21

686 - لسان العرب ج 2 ص 455

687 - أل عمران 117

688 - الأعراف 57

689 - الروم 46

هو يعلمها، فتكون الرياح طوع أمره، وتكون هي السبب في الحياة على الأرض، يقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}690، ترسم هذه الآيات العظام صورة الحياة التي أوجدها الله تعالى من خلال مراحل متتابعة كل واحدة تفضي إلى الأخرى، فتكون النتيجة هي الحياة للأرض وكل ذلك يحقّقه (مالك الملك)، البداية تكون بإرسال الرياح التي تثير السحاب الذي يمده ويوسعه الله تعالى كيفما يشاء، ثم يتحول ذلك السحاب إلى كسفا ثخينا قد طبق بعضه فوق بعض، فيكون السحاب نقطا صغيرة متفرقة، لا تنزل جميعا فتفسد ما أتت عليه، فبعد رؤية هذه الصورة المشاهدة يبشر العباد بعضهم بعضا بنزوله وذلك لشدة حاجتهم إليه، فهو ضرورة مهمة لاستمرار الحياة، وبشرتهم هذه جاءت بعد يأسهم لتأخر وقت مجيئه. وبعد نزول المطر تكون الأرض متسمة بالحياة، فاهتزت وربّت وأنبتت من كل زوج كريم.

هذه الصورة المتحقّقة أمام عين العباد هي من قدرة الخالق جلّ جلاله، والتي تحيل إلى صورة أخرى ترددت في النص القرآني وهي إحياء الله تعالى للأموات، إذ يقول تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}691، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

690 - الروم 48 - 50

691 - يس 12

وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}692.

5- إرسال الرّسُل:

إن إرسال الرّسُل يمثل مظهرا مهما من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزا كبيرا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذبين، إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}693، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}694. النص القرآني هنا يحمل في طياته كثيرا من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرّسُل وكل ما يملك ممّا نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلى في هذا الأمر الذي تشكّل فيه مظهران:

المظهر الأوّل: إنّ إرسال الرّسُل لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أمّا المظهر الثاني: فإنّ إرسال الرّسُل يتضمن أمورا لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

---

692 - الأحقّاف 33

693 - البقرة 151

694 - النساء 64

وإرسال الرّسُل شمل الأقوام التي كفرت بالله تعالى، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}695، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صبّارٍ شكّورٍ}696، وقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}697.

إنّ إرسال الرّسُل لم يتوقف طول الفترة الزمنية المتصلة من خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام إلى مبعث نبينا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، فبرغم تكذيب الرّسُل وقتلهم في بعض الأحيان كما فعل اليهود مع يحيى عليه الصّلاة والسّلام، إلا أن إرسال الرّسُل لم يتوقف بل استمر من أجل إصلاح الأرض الذي هو الهدف المنشود من إرسال الرّسُل في الحياة الدنيا.

ولعل إرسال الرّسُل خلق قصصا مختلفة تتحدث كل واحدة عن سمات وخصائص الأقوام المختلفة، من حيث ذنوبهم المختلفة،

---

695 - الأعراف 59 - 62

696 - إبراهيم 5

697 - المؤمنون 44 - 48

وصورة العقوبة التي كانت لهم، فدلالة (مالك الملك) أيضا تجلت في العقوبة التي وقعت على الأقوام الذين رفضوا دعوة أنبيائهم، فلا أحد يملك العقوبة إلا الله تعالى، فتحديد العقوبة وتنفيذها لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، إذ يقول: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[698].

فلم يكن هذا العذاب إلا بعد أن استنفد الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام كل الوسائل في سبيل إقناع هؤلاء الكفار الجاحدين، فلا يبقى لهم أي حُجّة على الله تعالى يوم القيامة، لان الحجج والبراهين الدامغة كانت أمامهم على أيدي رسل الله تعالى، ولهذا نجد أن الخطاب الموجه لهم في الآخرة يبنى على ما كان في الدنيا، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}[699]. هذا الخطاب تقريع من الله تعالى لأهل النّار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم،

[698] - العنكبوت 38 – 40

[699] - المؤمنون 105 – 111

كيف تفعلون ذلك وقد أرسلت لكم الرّسُل، ومعهم كتبي وقد بينت فيها لكم الحلال من الحرام كالشمس الساطعة، فتسقط هنا كل الحجج، لان الله تعالى قال: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجّة بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}700 فضلا عن ذلك أن طلب العودة إلى الدنيا معناه الاعتراف بذنوبهم التي ارتكبوها، ويتردد مثل هذا الخطاب في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحقّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ ربّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِين وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النّار وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

6- الأمر والنهي:

الأمر والنهي من الأسس التي بني عليها هذا الكون من آدم عليه الصّلاة والسّلام إلى قيام الساعة، وبعد قيام الساعة ينتهي العمل بهما وتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة الحساب التي وعد الله

700 - النساء 164 - 165

تبارك وتعالى خلقه من خلال رسله والكتب التي أنزلها، والحساب يكون وفق للأسس التي وضعت في الدنيا، وهنا نبدأ من النهاية وليس من البداية، فالنهاية هي عملية الحساب المتحقّقة والتي يرسم من خلالها نهاية الخلق إما إلى الجنّة، حيث يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}701، وإمّا إلى النّار، حيث يقول تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}702 وهذا الحساب المتحقّق يبنى وفق مرجعيات متحقّقة في الدنيا، وهي إرسال الرّسُل والكتب التي أنزلت معهم، وعملية الحساب هذه لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، ومن يملك الحساب لابد وأن يملك أسسه التي يستند عليها في المحاسبة، ولهذا نجد أنّ حساب الآخرة يتسم بصيغ تحيل إلى الدنيا، قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آَيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}703، وقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ وَمَنْ

---

701 - البقرة 82

702 - البقرة 39

703 - الأنعام 130

نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}704. فضلا عن ذلك أن الأمر والنهي ينظم الأمور الدنيوية والأخروية وهو ما يعرف بالحدود التي أوجدها الله تبارك وتعالى في أحكامه، والحَدُّ الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أَحدهما بالآخر أَو لئلا يتعدى أَحدهما على الآخر وجمعه حُدود705. والحدود وردت في سياق الأحكام الشريعة التي تنظم حياة الخلق وتوجهها توجها صحيحا يتسم بالعدل والحقّ، فمن القضايا المهمة قضية توزيع الميراث، وهي من الأمور الشائكة التي يتخللها كثير من التفرعات، إلا أن القرآن الكريم أدارها بطريقة واضحة تعطي كل ذي حقّ حقّه، من ذلك قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ

---

704 - يس 60 - 68

705 - لسان العرب ج 3 ص 140

يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}706 هذا التنظيم لمال الميت والعمل به يدخل ضمن الطاعة والعصيان لله تعالى، ممّا يترتب على ذلك الثواب والعقاب، فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي فلابدّ له من دخول الجنّة والنجاة من النّار. (وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون. (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فقد رتب الله تعالى دخول الجنّة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النّار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنّة بلا عذاب. ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النّار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النّار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها707.

والحدود تحدد قبول الفرض أو عدمه من خلال الالتزام بشروط معينة، ومن هذه الحدود قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ

706 - النساء 11 - 14

707 - تفسير السعدي ج 1 ص 170

وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}708. هذه الآيات الكريمة تحدثت عن أحد أركان الإسلام وهو صوم شهر رمضان، هذا الركن يمثل أحد العبادات التي تقربّ العبد إلى الله، وطبيعة العبادات أنها تتسم بضوابط تحدد من قبل الله تعالى، والتي يكون على أساسها قبول العبادة أو رفضها ممّا يترتب على ذلك الثواب أو عدمه، فكانت الحدود هنا هي تحريم الأكل والشربّ والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات، فكان النهي هنا في قوله تعالى: (فَلَا تَقْرَبُوهَا) الذي هو أبلغ من قوله: "فلا تفعلوها " لأن القربّان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، فضلا عن ذلك أن كفارة الفطر أيضا تكون ضمن الحدود التي حددها الله تعالى.

الأمر والنهي من المفردات المهمة في قاموس الخليفة، فبهما يحاول زرع الخير في الأرض من خلال تبصير الخلق بأحكام الله تعالى، فضلا عن ذلك أنه يرتكز على قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"709.

7- العدل:

العدل من الأحكام المهمة التي مثلت الشغل الشاغل لكل الأنبياء الذين بعثهم الله تبارك وتعالى، فبه تستقيم الحياة ويأخذ كل ذي حقّ حقّه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ

708 - البقرة 187

709 - صحيح مسلم ج 1 ص 167

إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}710، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}711، والعدل من صفات (مالك الملك)، والعدل، هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعامل الخلق في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقّا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة وذلك كنفع النّاس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره. وإقامة العدل يعد من الأمور المهمة التي لا يقبل فيها أي استثناء فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ محمّد سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"712. يتشكّل هذا الحديث والآيات التي سبقته ضمن دائرة العدالة التي أراها الله تعالى فهي ترسم الطريق الحقّ للمسلمين بغية الحصول على مرضاة الله تعالى.

---

710 - النساء 58

711 - النحل 90

712 - صحيح البخاري ج 11 ص 294

العدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقّه وفي حقّ عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقّوق كاملة موفورة بأن يؤدّي العبد ما أوجب الله عليه من الحقّوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقّه وحقّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام. أما قوله تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}713 يعطي الله تعالى من يشاء ذرية من الزوجين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيما بلا نسل، وهنا تتضح أمور في غاية الأهمية هي أن الله تعالى قادر على أن يعطي الجميع ذكورا وإناثا إلا أن المنع هنا بالعطاء يعود إلى أمرين الأول علمه والثاني قدرته، والعلم والقدرة لا احد يتدخل بهما إلا هو تعالى إذ يمكن القول انه تعالى عليم بمن يستحقّ كل نوع من هذه الأنواع قدير على ما يريد أن يخلق، وفي كل الحالات لابد من قول ما قالته مريم عليها السلام في قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}714.

ويدخل العدل ضمن الأمور المهمة التي تعد من الركائز الأساسية للدين الإسلامي، فقد أمر الله تعالى بالعدل مع العدو والصديق إحقّاقا للحقّ، وحرّم الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده وأمر بالأمانة والصدق، وحرم الخيانة، وأمر ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء، والمشاركة في الأعمال الخيرية، وأمر

[713] - الشورى 49 - 50

[714] - أل عمران 37

بالإحسان إلى كل شيء حتى الحيوان، فقد حرم الله تعذيبه، وأمر بالإحسان إليه.

النبي

اليسع من السنّة

النبي اليسع عليه السّلام من أنبياء الله المفضّلين، وقد بُعث إلى الأراميين بسوريا وكذلك إلى بني إسرائيل، وهناك من يرى بعثته قبل اليأس، وهناك من يراها من بعده.

قَالَ ابْن إِسْحقّ: حَدثنَا بِشْرٍ أَبُو حُذَيْفَةَ، أَنْبَأَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ "كَانَ بَعْدَ إِلْيَاسَ الْيَسَعُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهَاجِ إِلْيَاسَ وشريعته حَتَّى قَبضه الله عزّ وجلّ إِلَيْهِ ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَالْخَطَايَا وَكَثُرَتِ الْجَبَابِرَةُ وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فيهم ملك عَنِيدٌ طَاغٍ، وَيُقَالُ إِنَّهُ الَّذِي تَكَفَّلَ لَهُ ذو الكفل إِن هُوَ تَابَ وَرجع دَخَلَ الجنّة فَسُمِّى ذَا الْكِفْلِ"715.

قَالَ محمّد بْنُ إِسْحَاقَ هُوَ الْيَسَعُ بْنُ أَخْطُوبَ.

وَقَالَ الْحَافِظ أَبُو الْقَاسِم ابْن عَسَاكِرَ فِي حَرْفِ الْيَاءِ مِنْ تَارِيخِهِ: الْيَسَعُ وَهُوَ الْأَسْبَاطُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ شُوتَلْمَ بْنِ أَفْرَاثِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ.

وَيُقَالُ هُوَ ابْنُ عَمِّ إِلْيَاسَ النَّبِيِّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَيُقَالُ كَانَ مُسْتَخْفِيًا مَعَهُ بِجَبَلِ قَاسِيُونَ مِنْ مَلِكِ بَعْلَبَكَّ ثُمَّ ذَهَبَ مَعَهُ إِلَيْهَا فَلَمَّا رُفِعَ إِلْيَاسُ خَلَفَهُ اليسع فِي قومه ونبأه الله بعده716.

---

715 قصص الأنبياء، 2 ص 252.

716 المرجع السابق ص 252.

وقيل له يَسَعُ لِسَعَةِ عِلمه، أَو لسعْيه في طلب الحقّ وطاعته717.

وقد روي أنّ اليسع قال لمن معه: أيّكم يكفل لي أنْ يوم يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، ويكون معي في درجتي، ويكون بعدي في مقامي؟ قال شاب من القوم: أنا. ثمّ أعاد فقال الشاب: أنا، ثمّ أعاد فقال الشاب: أنا، ثمّ أعاد فقال الشّاب: أنا، فلما مات قام بعده في مقامه.

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطا وَكُلّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}718 وقال تعالى في سورة ص: {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ}719

ولهذا فهو من ذوي الفضل، وهو من الأخيار، إنّهما صفتان من أعظم الصّفاتان وذلك لأنّهما يحتويان صفات أخرى من ورائهما صفات عظيمة.

وهناك من يزعم أن اليسع هو إدريس، وليس كذلك؛ لأنّ إدريس –عليه السّلام– هو جد نوح –عليه السّلام– بينما اليسع من أبناء يعقوب، وقد أرسله الله إلى بني إسرائيل720.

717 بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 6 ص 79.

718 الأنعام 86.

719 ص 48.

720 دعوة الرّسُل عليهم السلام، ص 395.

اليسع نبيا رشيدا:

تميز اليسع منذ صغره بالرّشيد، والحفظ، وكان ينصح قومه، ويبيّن لهم خطأهم وضلالهم، فكرهوه، وطارده اليهود ليقتلوه، فآوته آم إلياس -عليه السّلام- وكان اليسع مريضا، فدعا له إلياس بالشفاء، فشفاه الله تعالى[721].

ولأنّ اليسع رشيدا منذ نعومة أظافره؛ فهو بلا شكّ هو من الأخيار قبل رشده ومن بعده حتى أصبح رسولا يدعون إلى توحيد المعبود الله جلّ جلاله.

ولأنّه رشيد؛ فهو يعرف ما يجب ويتّبعه ويدعو إليه، ويعرف ما لا يجب؛ فيتجنّبه وينهى غيره عنه. ولكن ماذا يعني أنّ اليسع رشيدا؟

أقول:

إنّه من استمدّ صفة رُشده من الرّشيد الأعظم عزّ وجلّ، والرّشيد اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدلّ على مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرّشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى الصواب والحقّ والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق، كما بيّنا ذلك في مواضع كثيرة، فلمّا ثبتت أدلة الخلق على أنّ لها خالق؛ فهو دليل على أنّ الخَلق لم يتركوا هملا، وإنّما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كلّ

---

[721] المرجع السابق، ص 396.

حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرّشيد جلّ جلاله فقد جاء في لسان العربّ من أَسماء الله تعالى: "الرّشيد هو الذي أَرْشَد الخلق إِلى مصالحهم أَي هداهم ودلّهم عليها، وهو الذي تنساق تدابيره إِلى غاياتها على سبيل السداد من غير إِشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد"722، فهو عزّ وجلّ أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تدابيره؛ وهذا يعني أنّه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلغ الرّسُل، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرّشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

الله سبحانه وتعالى رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنى فهو رشيد بقربّه وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيره، ورشيد بكونه حيا وقيوما، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيدا فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيدا مثل قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}723 وهو الرّشيد الحيّ لنفسه لتحقّيق ما نسب إليه ممّا لا

[722] لسان العرب، ج 3، ص 175.

[723] المعارج 6، 7

يتصف به إلا من شرطه أن يكون حيا قيوما حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}724 لقيامه على كل حال نفس بما آتاها من رشاد، وهو الواجد لما طلب فلحقّ، فلا يفوته هاربٌ كما لا يلحقّه في الحقّيقة طالب، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إله إلا هو الصمد حيث قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}725 الذي يُلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا، والتوكل عليه هو طريق الرشاد، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالى: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}726 فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ولهذه القدرة نطلب منه الرشاد، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه، والظاهر الباطن لنفسه، ظهر فما زال ظاهرا أو عن خلقه بطن فما يزال باطنا، ولذلك يطلب منه الرّشيد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهو البر أبدا بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده لأنه رشيد، وهو التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم ودنياهم، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرّشيد، فهذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل

724 البقرة 255

725 الإخلاص 1، 2

726 البقرة 148

أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لابدّ أن يدخلها القلة والكثرة فلابدّ أن يعمها العفو فإنه لابدّ من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد، وهو المقسط بما أعطى بحكم التقسيط حيث قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}727 وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق، وهو الغنيّ عن العالمين والمغني لهم، من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئا فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولابدّ من وجه به يتميز المثل عن مثله، ولا يتميز إلا بالإرشاد، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به ممّا هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة ورشاد اقتضاه علمه في خلقه، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة، وهو الرّشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من

---

727 الحجر 21

كونه آخذ بناصية كل دابة، وهو الصبور برشده على ما أوذي به حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}728 فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك وإنما أخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة على أنّه رشيد لجميع أنواع خلقه729.

وهذا الخلق الذي ينقسم إلى هذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كل واحد منهم في إرشاد الرّشيد له وفق مشيئة الله تعالى وإرادته التي أرادها لخلقه بحكمته واحدا بعد الآخر، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عمن أطاع أو عصى، فالله سبحانه وتعالى أرشد وأمر بالرّشيد كونه رشيدا، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه الله لخلقه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأما من أبى فلا يلومنّ إلا نفسه، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصّلاة والسّلام بيده وأسكنه الجنّة مع زوجه وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته حيث قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}730 لقد أرشد الله آدم عليه الصّلاة والسّلام وزوجه إلى العيش في جنة النعيم بأن اسكنه هو وزوجه جنة الخلد يأكلان منها ما يشاءان أكلا هنيئا وافرا من أي مكان ومن أي ثمر يريدانه، ولكن الله ذكر لهما شجرة معينة وحذرهما الأكل منها وقال لهما: لا تدنوا من هذه الشجرة ولا تأكلا منها، وإلا كنتما من الظالمين العاصين، وإذا فعلا

728 الأحزاب 57

729 طرق حديث الأسماء الحسنى، ج 1، ص 108.

730 البقرة 35

ما نهاهما عنه كانا بعيدين عن الرشاد، لقد نهى الله تعالى آدم عليه الصّلاة والسّلام عن تلك الشجرة وهو نهي إرشاد وتوجيه كانت فيه مصلحة لآدم وزوجه حتى لا تبدو لهما سوءاتهما وهذا إرشاد إلى الستر، والنهي يكون عادة ما يتوجه إلى أكثر من اتجاه، فمنه ما يكون نهي تأديب، ومنه ما يكون نهي تحريم، وقد جمع هذا النهي الجانبين معا، ولم نجد شيئا قد نهي عنه إلا بحقّ، وذلك أن ضرره راجع إلى بعده عن سبيل الرشاد فإن سبيل الرشاد مستقيم إلى الله تعالى لذلك فإن الله تبارك وتعالى أمر نبيه عليه الصّلاة والسّلام بالدعوة إلى الرشاد حيث قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}731 ومن زاغ فإنما يزيغ عن طريق الهدى وسبل الرشاد الذي أمر به الله تعالى، فالاستقامة تقربّ العبيد إلى الله والطاعة تجعله رشيدا، وأنّ الله تبارك وتعالى دعا آدم إلى دار الخلود وأعلمه طريق الرشاد، لذلك فقد بين الرّشيد جل شأنه لآدم عليه الصّلاة والسّلام طريق الرّشيد بأسلوب المنع والنهي لما فيه من خير له ولزوجه، فوجدنا النهي على ضربّين: منه نهي تأديب، ومنه نهي تحريم، فمن ترك الأدب انحط عن درجته، ومن وثب على التحريم سقط في التهلكة، ورحمة من الله الرّشيد فقد أرشد آدم عليه الصّلاة والسّلام مرة أخرى ليتوب عليه حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}732، وهذه التوبة أصلها الرجوع إلى الرّشيد بعد أن علم وعرف ضرر الذنب الذي أبعده عن الرشاد الذي يكمن فيه الخير له ولذريته، لذلك استشعر الندم بفوات ذلك النعيم الذي كان فيه، وما من طريق إلى النجاة إلا

731 يوسف 108

732 البقرة 37

الترك والتدارك والعزم على عدم العودة إلى المعصية بأن يسلك طريق الرشاد الذي أمر به الرّشيد جل شأنه وطريق تحصيل الرّشيد وتكميله إنما هو بترك المعاصي لما فيها من ضرر الابتعاد عن الرشاد، لذلك كانت التوبة رجاء العفو عن الذنب والمغفرة ابتغاء العود إلى السبيل الذي أمر به الرّشيد الحكيم، فقد عرَّف الله تعالى حقّيقة التوبة لآدم عليه الصّلاة والسّلام بأنه ابتعد عن طريق الرشاد، فلابدّ أن يعرف ماهية التوبة ويتمكن بفعلها من تدارك ما بدر منه، وذلك بأنّ نبهه على المعصية الواقعة منه على وجه صار آدم عليه الصلاة السلام عند ذلك من التائبين المنيبين العائدين إلى الرّشيد، وأنه تعالى عرفه وجوب التوبة وكونها مقبولة لا محالة على معنى أن من أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا ثم ندم على ما صنع وعزم على أن لا يعود فإنه قد أخذ بنصيبه من رشاد الرّشيد الذي يهدي إلى صراط مستقيم، وأحس آدم عليه الصّلاة والسّلام هو وزوجه بخطئه وظلمه لنفسه ولزوجه وندم على الابتعاد عن الرّشيد، فألهم الله تعالى آدم كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فتقبَّل الله منه وغفر له، فحين تلقى آدم عليه الصّلاة والسّلام الكلمات من الله الرّشيد استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها فكان بذلك من الراشدين، وهنا يجدر بنا القول أنّ آدم عليه الصّلاة والسّلام هو أول خليفة يستخلفه الله تعالى في الأرض فقد جعل رشاده وإرشاده سنة للخلفاء من بعده، فالخليفة رشيد بالإضافة في قوله وعلمه وعمله، أمّا في قوله فإنه لا يتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الرّشيد وطريق الخير والسداد وسبل الهدى والرشاد، وأمّا في علمه فإنه أوتي من العلم الرّشيد ما لم يؤتَ غيره مثله وذلك لنقاء قلبه وصفاء ذهنه وطيب سريرته فقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية، فالقلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقّها وأصلبها وأصفاها، فقلب الخليفة أضاء بالرّشيد من الإيمان

ذلك أنّ مصباح نور الإيمان في قلبه، كالشجرة المباركة، وهي شجرة الوحي والإلهام المتضمنة للهدى ودين الحقّ، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد الخليفة نورا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحقّ والحكمة والرّشيد قبل أن يسأل، ثم يبلغه بمثل ما وقع في قلبه وينطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه طريق الرشاد وسبيل الهدى الذي أمر بهما الرّشيد، فهما يتصادقان ويتوافقان في قلبه، فهذه علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون فهي في صدره كما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}733، فهنا نتبين من هذه الآيات الاختلاف والفروق بين الرشاد والغي، حيث اشتملت عليه أكمل اشتمال، فإنّ النّاس قسمان: أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الرّشيد أمر به الرّشيد جلّ شأنه وبعث به أنبياءه ورسله ومن هؤلاء يكون الخليفة، وأنّ كل ما عارضه فشبهات تشتبه على من قل نصيبه من العقل والعلم فيظن أنّه حصل له شيء ينتفع به، فهو كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ

---

[733] النور 40

اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}734، فلا هم في علمهم إلا من أهل الخوض الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم فلذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون حيث أضاء لهم نور الرّشيد المبين، فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتمتعون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، بعيدين عمّا بعث الله تعالى به أنبياءه ورسله من الحكمة وفصل الخطاب الذي يهدي إلى الرشاد، فتركوا ما أمر به الرّشيد جل شأنه واتبعوا الغي والضلال ورضوا به واطمأنوا إليه وقدموه على الرّشيد الذي يكمن فيه الخير والفوز بالدنيا والآخرة، لأنّ في صدورهم كبر أوجبه لهم إتباع الهوى واسترسالهم في غيّهم يعمهون. وأمّا الخليفة وأهل الهدى ودين الحقّ، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح والطريق الرّشيد والسبيل السديد، الذين صدقوا الله في ما أرشدهم إليه، ولم يعارضوا الرّشيد والهدى بالشبهات، وأطاعوه في أوامره، ولم يضيعوها بالشهوات، وكانوا صادقين في رشدهم وإرشادهم لذلك خصهم الله تعالى بقوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}735 وهذا لصدق رشادهم بما علموا، وأما عمل الخليفة فيكون خالصا لوجه الله تعالى، داعيا إلى سبيله، فيكون بذلك من العمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، بنور الإيمان الصادق الذي يقذفه الله في قلب الخليفة، مع العمل الصالح الذي أرشد إليه وبما يحمل من العلم النافع، فكلما اتسع العلم انشرح الصدر واتسع، فالخليفة يبذل ما بيديه من العلم النافع الدال على

734 النور 39، 40

735 المائدة 119

العمل الصالح ولا يكتم منه شيئا لأنّه من الراشدين، فهو يسدي الإحسان إلى الخلق بأنواع الإحسان والنفع لهم بما يمكن لهم رشدهم لأنه رشيد، وهو برشده أشرح النّاس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا لما تمتع به من اليقين في رشده الذي اهتدى به إلى الحقّ ودعا بهذا الرّشيد إليه.

وأمّا سبب ابتعاد بعض الخلق عن الرّشيد والفضيلة فلا يخلو من أمور هي: إمّا أن تكون نقصا في أصل أخلاقه وعجزا مركبا في طبعه يتقاعس به عن تحصيل القوّة وجمع الإرادة التي يتوصل بها إلى الرّشيد كالذي تضعف عزيمته أمام الشهوات فيترك الفضيلة ويتبع الرذيلة وبهذا يكون قد عمد إلى مخالفة سنة الله في خلقه، فإذا رأى طريق الرّشيد لا يتخذه سبيلا وإن رأى طريق الغي يتخذه سبيلا، وإما أنه يؤجل طلب الرّشيد وهو يدرك حقّيقته ولكن لانشغاله بأمور يظن أنه بعد فراغه سيسعى إلى الرشاد فلا يجد هاديا يرشده، فيدركه الأجل ويكون من الهالكين، وإما أن يكون مصابا بعقله فلا يميز بين الغي والرشاد فذاك مرفوع عنه القلم، وإما أنه غير عاجز عن ذلك فعلم الرّشيد وسعى إليه وانعقدت نيته على ذلك فلم يمهله عمره من ساعته فقد وقع أجره على الله لما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}736 حيث أنّ الهجرة إلى الله ورسوله هي إتباع طريق الرشاد، وإما أن يتفق له مربّ ومعلمٌ مضل فيضله عن الطريق، فقد غوى وما رشد، وأما أن يكون ترك الرّشيد واتبع الغي والضلال من جهة نفسه لا من جهة شيء ممّا ذكرنا وذلك هو

---

736 النساء 100

المتوعد بالعذاب، فمن أزاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريق الرشاد، يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}737، وأكثر من ذلك ضلالا وغيا من وعى الرّشيد وعرف الحقّ وعلم السبيل وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا فيكون قد استبدل الرّشيد بالغي والهدى بالضلال فما له من رشيد. وأحوال الخلق ومراتبهم في الإقبال على الرشاد والابتعاد عنه إنما يكون على أنواع أيضا فمنهم من له المعرفة بما يجب أن يفعل ليسلك طريق الرشاد وله مع ذلك قوّة العزيمة على العمل به، ومنهم من له المعرفة في طريق الرّشيد وليس له قوّة العزيمة على إتباعه، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه، لأن العلم يكون شر من الجهل عندما يعلم العالم ولا يعمل بما يعلم، ومنهم من ليس له المعرفة والعلم لكن له قوّة العزيمة، فهذا متى انقاد لأهل العلم والمعرفة وعمل بقولهم أصبح من الراشدين، ومن النّاس من يقول لا نستطيع أن نميز بين الرّشيد والغي وإذا عرض لنا أمران لا ندري في أيهما الرشاد، فلينظر أيهما أقربّ إلى هوى نفسه فليخالفه، لأن الرّشيد في مخالفة الهوى والصبر على المكاره، وليس لمن قل صبره عن الهوى حظ من بر ولا نصيب من رشاد، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها الهدى، ويدفع عنها الغي، كان ذلك من سوء اختياره، وبعيدا من الرشاد حقّيقا بالضلال. ولذلك فإن التفهم في الخير زيادة ورشد، وإن الرّشيد من رشد عن الغي، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكون مصيبا، وإن المعجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئا، وإنه من لا ينفعه عقله في الدلالة على الرّشيد كمن لا عقل له، فالرّشيد من يختص بإصابة

---

737 طه 56

المقصود من الخير الذي يكون له ذخر الدارين في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالرّشيد أيضا يجب أن يكون راشدا ومرشدا، أي راشدا في قوله وعلمه وعمله، ومرشدا إلى القول والعلم والعمل، لأنّ الله الرّشيد أضفي عليه من هذه الصفة فوجب عليه أن يكون راشدا ومرشدا، لذلك كان الخليفة رشيدا بالإضافة لأنه لم يحتفظ بهذا الرّشيد لنفسه وإنما استخدمه في إرشاد الآخرين إلى طرق الهدى ومنابع الخير والفوز العظيم في إرشاد الرّشيد من الخلق للخلق كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}738؛ فهنا الإرشاد إلى تجارة عظيمة تنجي من اتبع الرّشيد من عذاب شديد الألم، وهذه التجارة هي أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتُجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك الذي يرشدكم إليه خير لكم إن كنتم تعلمون، وهذا الإرشاد له ثمن وهو أن تؤمنوا وتجاهدوا في سبيل الله كي يغفر لكم ذنوبكم، ويُدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة في جنات عدن، وذلك نتيجة الرشاد وهو الفوز العظيم، وعلى هذا فالخليفة هو أحقّ النّاس بالدعوة إلى الرشاد لأنه رشيد فيعلم مكامن الرّشيد ونتائجه وثوابه وأجره، فالله سبحانه وتعالى رشيد بأن أرشد الخلق إلى طرق الهدى والصلاح فأرسل أنبياءه مرشدين، فهم مبشرون بجنة عرضها السماوات والأرض ومنذرون بنار جهنم التي أعدت لمن حاد عن طريق الرشاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى،

738 الصف 10، 12

وما من نبي إلا أرشده الرّشيد جل شأنه بحكمته إلى طريق الهدى والصلاح والتقى ليكون ذلك سببا لخير الخلق ومدعاة للنجاة ورحمة لهم ورأفة بهم حيث قال تعالى: {تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}739 فيؤتيه رشده ليرشد الخلق لما فيه خيرهم وصلاحهم لأنّ الله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه وحرمه بين عباده لذلك كان حقّيقا على الله تعالى أن يكون رشيدا ومرشدا وراشدا لأنّه نفي الظلم عن نفسه جلّ جلاله فآتى الرّشيد لخلقه ليكون حُجّة على من ترك الرشاد واتبع سبيل الغي والضلال وكان من الذين قال فيهم جل شأنه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرّشيد لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}740 فالله تعالى منع الرّشيد عن هؤلاء وصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق، أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب بغير وجه حقّ، فإن رأوا آيات الله التي تدل على صدق المرسلين الراشدين أعرضوا عنها كبرا وطغيانا وكفرا، لذلك فإن شاهدوا طريق الهدى وسبل الرشاد لا يسلكوه، وإن شاهدوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه سبيلا لهم مبتعدين عن الرّشيد الذي أمر به الرّشيد الحكيم. والله سبحانه مع كونه رشيدا فهو يمنع الرّشيد أيضا عن أولئك الذين يتطاولون في الأرض ويتكبّرون عن قبول الصواب بغير الحقّ مخالفين الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه لذلك استحقّوا طريق الضلال لأنهم صدوا عن الرشاد وغفلوا عن الاهتداء به.

[739] آل عمران 108

[740] الأعراف 146

والرّشيد هو نقيض الضلال، وهو الذي يصيب وجه الأَمر والطريق الصحيح والسبيل الواضح الذي ليس فيه غيٌّ ولا عوج بحيث يرشد إلى الجادة الواضحة وطريق النجاة في الدين والدنيا ممّا يترتب عليه الصلاح والهداية للذي يأخذ في طريق الرّشيد وسبيله فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضوا عليها بالنواجذ"741 وإنما جاء الأمر في التفضيل بإتباع الخلفاء لما هم عليه من الرّشيد الذي اتبعوا به هدى الله تعالى وهدى رسوله عليه الصّلاة والسّلام، وهو معقول تأكيد النبوّة وتأكيد الرّسالة الرّاشدة من الحكيم الرّشيد بأن الذي جاء من الله تعالى هو الصراط الحميد الذي يهدي إلى الرّشيد، فكانت النبوّة مخالفة للملك حيث جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، وقد أجمعت الأمّة على ذلك، ومعنى هذا هو إخراج الخلق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود، بأن سنّ الله لهم الرّشيد في إتباع الخليفة لما تمتع به من صفة الرّشيد بالإضافة فكان رشيدا ومرشدا.

لقد بعث الله أنبياءه بالهدى والرّشاد وأضفي عليهم من الرّشيد ما يمكّنهم من إرشاد خلقه إلى ما أمر به الله تعالى من الخير والبر والنفع الذي فيه رشدهم ونجاتهم من الشر والغي والضلال فقد قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ

741 مشكل الآثار للطحاوي 3، 183

عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}742 لقد أرسل الله تعالى نوحا إلى قومه وجعله رشيدا مرشدا فقال لهم: إني محذركم من عذاب الله، ومبين لكم طريق النجاة والرشاد الذي أمر به الرّشيد الحكيم لما فيه من صلاح وهدى فجاءهم يوم عيد لهم وكانوا يعبدون الأصنام ويشربّون الخمور ويواقعون النساء كالبهائم من غير ستر فنادهم ودعاهم إلى الرّشيد ففزعوا من صوت الحقّ ثم استمروا في غيّهم بعيدين كل البعد عن طريق الهدى وسبيل الرشاد، ثم نسبوا نوحا عليه الصّلاة والسّلام إلى الجنون وكذبوه، ولكونه رشيدا فقد احتمل كل أنواع الأذى من قومه ذلك أن الرّشيد حليم وحكيم وصبور وشكور لذلك لم يطلب منهم إلا أن يتبعوا الرّشيد الذي أرسل به، وأول الرّشيد هو التسليم بالوحدانية لله تعالى وذلك لخوفه عليهم وحرصا منه على نجاتهم، ولأنّه رشيد فقد بذل كل جهده في دعوتهم وأفنى عمره في نصحهم وإرشادهم مخافة أن يحل عليهم ما هو أعلم به منهم، ألا وهو عذاب أليم في الدنيا وخلود في نار جهنم في الآخرة، ولقد اتضحت صفة الرّشيد في نوح عليه الصّلاة والسّلام بما كان يصدر من قومه من سفاهة وابتعاد عن طريق الرشاد، فعلى الرغم من نبوته كانوا يقولون: ما نرى إلا أنك بشر مثلنا، فليس فيك ما يجعل لك ميزة خاصة، وفضلا يحملنا على الإيمان بأنك رسول من عند الله، وما نرى الذين اتبعوك من بيننا إلا الطبقة الدنيا منا، وما نرى لكم من فضل علينا، بل إنّا نعتقد أنكم كاذبون فيما تزعمون، فنوح عليه الصّلاة والسّلام مكث في قومه ألف عام إلا خمسين وهو يدعوهم إلى الحقّ وسبل الخير، فأية حكمة وأي رشد وأي هدى هذا الذي أتاه الله حتى صبر كل هذا الصبر على السفيه

[742] هود 25، 28

والمتكبر وأراذل النّاس ممن كانوا يستهزؤون ويسخرون ممّا كان يدعوهم إليه، فلولا الحكمة البالغة التي أيده بها الحكيم، والحلم العظيم الذي امتن عليه به الحليم العليم، والهدى الذي هداه إليه الهادي الكريم، والرّشيد الذي منحه إياه الرّشيد جل شأنه وعزت قدرته، لما كان رشيدا ومرشدا لقوم لا يفقهون، فهو لا يريد منهم جزاء ولا شكورا إلا إتباع سبيل الهدى والرشاد وما يطلب على ذلك من أجر إلا من الرّشيد الذي أوكله بإرشاد قومه حيث قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}[743] ويا قوم، فهو لا يطلب على تبليغ رسالة ربّه من أجل إرشادهم مالا ولا أجرا، وإنما يطلب جزاءه من الله، وما هو بطارد الذين آمنوا بربّهم عن مجلسه ومعاشرته لأنهم أرشدوا إلى الحقّ ولأنهم سيلاقون ربّهم يوم القيامة، فيشكونه إليه إن طردتهم لفقرهم أو أبعدهم عن سبيل

---

[743] هود 29 . 37

الرشاد، غير أن قومه يجهلون ما يصح أن يتفاضل به الخلق عند الله بين من هو راشد إلى الحقّ وبين من هم في الغي والضلال يعمهون، فمن لم يأت إلى طريق الرشاد وسبيل الخير لا أحد يستطيع منع عقاب الله عنه، فهو لأنه رشيد ولأنه رسول، فلا يقول عنده خزائن رزق الله يتصرف فيها كما يشاء، فيجعل من يتبعنه غنيا ولا يقول إنه يعلم الغيب، فيخبرهم بما اختص به علم الله، بحيث لا يعلمه أحد من العباد، وكذلك فهو ليس ملك ردا على قولهم: ما ذاك إلا بشر، ولا يقول عن الذين يحتقرونهم إن الله لن يؤتيهم خيرا إرضاء لرغبات الذين أبوا إلا الضلال والغي والابتعاد عن الرّشيد، لأنّ الله وحده هو الذي يعلم ما في أنفسهم من إخلاص، فإنّه إن قال لمن اتبعه ما يحب أصحاب الغي والضلال خرج من الرّشيد إلى غيره من الصفات التي لا تليق بمن أرشده الله وجعله رشيدا في نفسه ومرشدا لغيره، فهذه صفة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، فالمبتعد عن الرّشيد لا يرى نور الهدى مهما تحاول معه من النصح والإرشاد، فهم لا يرون الدعوة إلى الرشاد إلا جدلا لا طائل من ورائه، لذلك ضاقوا ذرعا بهذه الدعوة حتى ملّوا منها ولم يعودوا يحتملوا إرشاد الرّشيد لهم وما كان منهم إلا أن قالوا، فأتنا بهذا العذاب الذي تهددنا به، إن كنت صادقا في أن الله سيعذبنا إذا لم نؤمن لك. غير أنّ نوحا عليه الصّلاة والسّلام كونه رشيدا وهاديا وحكيما أجابهم بأن هذا الأمر بيد الله وحده، فهو الذي يأتيكم بما يشاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنّه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولأن الله الرّشيد يرشد من يشاء إلى صراطه المستقيم كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}744 فلم ينفعهم

[744] الجن 21

نصحه لمجرد إرادته الخير لهم، إن كان الله يريد أن يضلوا لعلمه وتقديره فساد قلوبهم حتى صارت لا تقبل الرّشيد، وهو سبحانه ربّهم، سيرجعكم إليه يوم القيامة، ويجازيهم على ما كانوا يعملونه، ثم إن الله الرّشيد أرشد نوحا عليه الصّلاة والسّلام إلى أن يصنع الفلك لأنهم مغرقون، وأرشده لأن يحمل معه من كل زوجين اثنين من أجل استمرار الحياة حتى لا تهلك جميع الحيوانات والبهائم، وهذا الإرشاد لا ينحصر في نوح عليه الصّلاة والسّلام ومن آمن معه، وإنما هو من عموم الخصوص، أي أنّه خص به نوحا عليه الصّلاة والسّلام، وعمومه يشمل من يأتي بعده من ذرية البشر دلالة على إرشادهم بما يفعلون إذا نزلت بهم النوازل أو أحاطت بهم الكوارث، فهذا سبيل رشد للخلق جميعا، وكذلك فالله تعالى آتى إبراهيم رشده وصلاحه وهداه ليكون مرشدا، لقد آتى الله الرّشيد إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رشده من قبل وكان به عالما بفطرة الله التي فطره إيّاها على الرّشيد والاسترشاد حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السماوات وخالق العباد، فإبراهيم عليه الصّلاة والسّلام رأى كوكبا فقال هذا ربّي ثم تبين له أنه ليس بإله فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربّي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين فتبين له أنه ليس بإله فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء ممّا تشركون وهذا إشارة إلى الرّشيد الذي أتاه الله من قبل بدء أمر نبوته حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالحقّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ ربّكُمْ ربّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}745. فالله سبحانه وتعالى هو الرّشيد الذي أرسل الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام راشدين ومرشدين للبشرية يبينون لهم طرق الهدى وسبل الرشاد، بالعدل والحقّ ليأخذوا بأيدي النّاس إلى الرشاد بما أرشدهم الله تعالى، فما أحل الله تعالى من شيء إلا وفيه رشد للخلق، وما حرم عليهم من شيء إلا وفيه رشد لهم أيضا، وما نهى عن شيء أو أمر بشيء إلا وفيه الرّشيد والصلاح والهدى والاستقامة، وأول ذلك هي العبادات إذ ليس هناك عبادة إلا وفيها خير النّاس وصلاح أمرهم فالصّلاة الكاملة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لأنها تقوي الإيمان بالله تعالى وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه وهذا كله من الرشاد، وإذا تعمق هذا الشعور الإيماني في قلب الإنسان فإنه يتكون لديه الوازع الديني الذي يدفعه إلى الفضائل ويردعه عن الرذائل، وبالتالي يكون حكما على تصرفاته وسلوكه في هذه الحياة وهذا معنى إرشاد العبادة، ولقد فهم قوم شعيب عليه الصّلاة والسّلام دعوته إلى هذه المزية من مزايا الصلاة فذكروا ذلك له بأسلوب من السخرية والإنكار وذلك فيما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرّشيد}746 فقوم شعيب عليه الصّلاة والسّلام ينكرون عليه أن أمرهم بالصلاة لله تعالى التي تمنعهم من السجود للأوثان ومن التصرف في أموالهم بما لا يرضي الله تعالى وبعبارة أخرى أنهم رفضوا سبيل الرشاد وقد كانوا يطففون في المكاييل والموازين ويبخسون النّاس أشياءهم، ومن مفهوم السياق العام للحوار الذي دار بين

---

745 الأنبياء 51، 58

746 هود 87

شعيب عليه الصّلاة والسّلام وبين قومه أن الصلاة التي كان يؤدّيها هي التي تدفعه إلى منعهم ما يفعلون، وهي بالتالي كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنها تأمر بالمعروف والرّشيد الذي أمر به الرّشيد، فالأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام راشدون بما هداهم الرّشيد إليه، وهم حلماء كرماء أصحاب قلوب صافية وأخلاق عالية ونفوس مطمئنة، وهذه الصفات يتحلى بها الخليفة كونه رشيدا ومرشدا، ومن خلال ما ذكرنا نتبين أن الرّشيد أيضا صاحب نفس مطمئنة، وهذا الاطمئنان يعود إلى رشده على الرغم ممّا يلاقي من منازعات وخصومات وطموح من أصحاب الغي والباطل، ليثبوا بغيهم وضلالهم على رشده وحكمته، لذلك فالرّشيد بالإضافة حكيم حليم راجح العقل صائب الرأي كامل النفس، لأن في تكميل النفس المطمئنة اكتساب الرّشيد لها وإبعاد الغي عنها، وهذا ما يستوعب أضعاف العمر كما رأينا، فكيف إذا كان العمر قصيرا، وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا من شأن النفس الأمّارة بالسوء السادرة في الغي والبعيدة عن الرّشيد، ومتى تكررت المساوئ على تلك النفوس انتقلت إلى القلوب وتطرقت إلى اللسان، وانتشرت في المحافل، والتفت بها بعضهم إلى بعض وهذه مكسرةٌ للهيبة، وقلة الهيبة رافعة للحشمة، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة، والوثبة غير مأمونةٍ من الهلكة، وما يخلو الخليفة من طامع راصد يناوئ الحلم بالجهل والهدى بالضلال والرّشيد بالغي، وليس ينبغي للخليفة الحازم أن يظن أنّه لا ضد له ولا منازع، وقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب، وهنا أعظم ما يكون الخليفة رشيدا في استيعاب أهل الغي بمبادرتهم بالرشاد الذي أمر به من الرّشيد الجليل، ويسلم أمره للذي أرشده ولسان حله يقول اللهم هذا الجهد، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرّشيد، أسألك الأمن

يوم الوعيد، والجنّة يوم الخلود، مع المقربّين الشهود، والركع السجود فما ينبغي للخليفة إلا أن يكون أهلا بما استخلفه الله فيه.

والرّشيد يرشد إلى الرّشيد الذي هو نقيض للغي ومنافٍ له، ذلك أن الغي يؤدّي إلى الضلال، والضلال يؤدّي إلى التهلكة، لذلك فإن الله تعالى أمر بالرّشيد ونهى عن الغي والضلال والتهلكة حيث قال تعالى: {أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}747 فسبيل الله تعالى هو الرشاد وهو متعدد الأسباب والأبواب فمنها ما يكون ببذل النفس، ومنها ما يكون ببذل المال، فإن ترك ذلك إنما هو الابتعاد عن الرّشيد والاقتراب من الغي المؤدي إلى الهلاك، وعلى هذا فهو أمر من الله بأن يتبع الخلق سبيل الرّشيد الذي أمر به الرّشيد بإحسان وإتقان، فإنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه ويتقنه حتى يكون رشيدا، ومن أمثلة الرّشيد التي لابدّ من التوجه لها بعقل واع إرشاد الأم للحنو على وليدها والوليد لمعرفة أمه ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى عن موسى عليه الصّلاة والسّلام {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ

---

747 البقرة 195

وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[748].

كان قَتادة يقول، في معنى ذلك (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى): قذفنا في قلبها. وحيًا جاءها من الله، فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة، أن أرضعي موسى[749].

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي) هناك أراء في الفترة التي بقي فيها موسى عليه الصّلاة والسّلام مع أمه فهناك من يقوا بعد ميلاده بأربّعة أشهر وذلك حال طلبه من الرضاع أكثر ممّا يطلب الصبيّ بعد حال سقوطه من بطن أمه، وهناك من يقول: بعد ميلاده أُمِرت أن تلقيه في اليمّ بعد ولادها إياه، وبعد رضاعها[750].

فها هو الرّشيد الخبير يوحي إلى أم موسى بالرشاد حين خافت على وليدها من القتل أن تقذفه في اليم ويرشد أعداءه لالتقاطه، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب وهذا من إرشاد الله لآل فرعون في التقاط هذا الطفل ليكون لهم عدوا ولغيرهم مرشدا وعاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا ولم يشعروا أنّه الذي سيذهب بملكهم، وذلك بسبب إرشاد امرأة فرعون التي جعلت هذا الطفل قرة عين لها ولزوجها ومنعتهم من قتله لأنهم سوف ينفعهم باتخاذه ولدا لهم، بعد أن أخطأ الذبح هذا الغلام، وكان من إرشاد آسية امرأة فرعون أنها كانت أمّا للمساكين ترحمهم

---

[748] القصص 7 ـ 13

[749] تفسير الطبري، ج 19، ص 519.

[750] المصدر السابق، ج 19، ص 519.

وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي فاستحياه فرعون وأرشد إلى محبة هذا الطفل وألقى الله محبته عليه، ثم إن الله تعالى أرشد أمه بأن ترسل أخته في أثره عن بعد فكانت تمشي جانبا وتنظره اختلاسا، ثم أرشد الله الطفل إلى ثدي أمه حيث كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم، فالله تعالى حرم عليه المراضع، تحريم منع، لا تحريم شرع وهو منعه من أن يرضع ثديا غير ثدي أمه، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك، فأرشد الله أخته إليهم كي تدلهم على من يرضعه فقبلوا ذلك منها، فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يُعلله شفقة عليه، وهو يبكي ويطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنتِ منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيبة الريح، لا أُوتَى بصبي إلا قَبِلَني، فدفعه إليها وأجرى عليها مؤنة الرضاع، وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبيا رشيدا ومرشدا، لأن الرّشيد حفظه بعناية إلهية كونه مكلفا بإرشاد غيره. وطرق الرّشيد من الرّشيد لا تنقضي أوقاتها ولا تنقطع أسبابها في كل وقت وحين، أما ترى الجنين في بطن أمه كيف تجلت فيه حكمة الرّشيد جلّ جلاله حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[751] فإذا أردنا أن نعرف رشد

[751] المؤمنون 12، 14

الرّشيد ونقف عليه من قربّ علينا أن ننظر إلى أصل تكوين الخلق من البشر وما هو منّا ببعيد، فإنه من دلائل الرّشيد، القدرة الموجبة للإيمان بالله الرّشيد، فإنه خلق الإنسان من خلاصة الطين، ثم خلق نسله فجعله نطفة من ماء فيه كل عناصر الحياة الأولى التي تستقر في الرحم، وهو مكان مستقر حصين منيع، ثم صيَّر هذه النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دما، ثم صيَّر الدم بعد ذلك قطعة لحم، ثم صيرها هيكلا عظميا، ثم كسى العظام باللحم، ثم أتمّ خلقه فصار في النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقا مغايرا لمبدأ تكوينه، فتعالى شأن الله في عظمته وقدرته، فهذا الخلق لا يشبه أحدا في خلقته وتصويره وإبداعه، ثم توّج ذلك كله بالعقل الذي هو مستودع الرشاد الذي ميزه به عن جميع مخلوقاته، فهو الدلالة الواضحة على رشد الرّشيد لما أنْ كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار المحبّة له، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنّه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم، إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ وأرشده لذلك، فإذا كبر واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الرشاد، فابتعاده عن الرّشيد بَعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه الرّشيد، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته بإرشاده إلى طرق الرزق وأسباب العيش، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة

جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإرشاد الله تعالى وتسليط الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب الراشدين من خلقه الذين اختصهم بالرشاد، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق على الطفل واحدا والآن المشفق عليه جميع من أرشدهم الرّشيد إلى الشفقة والرحمة والمودة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجا، فإذا رأوه يتيما سلط الله داعية الرحمة على واحد من هؤلاء الراشدين أو على جماعة منهم حتى يأخذونه ويكفلونه، وبسبب من رشد الراشدين الذين اختصهم الرّشيد بهذا الفضل العظيم، فقد انتشرت الفضيلة واندحرت الرذيلة وعم الخير وانحسر الشر، لأنّ الرّشيد أوتي من الحكمة وفصل الخطاب وحسن المعاملة ما يستطيع به أن يقف طودا منيعا في وجه الغي والضلال الذي هو نفسه يرشد إلى الشر، ولذلك كان الخليفة رشيدا بهذه الصفات التي اختصه بها الرّشيد جل شأنه، ومن هنا كان الخليفة أيضا علما تشخص إليه الأبصار وتطمئن إليه القلوب مهتدية بهديه ومستنيرة برأيه ومسترشدة برشده، فهو الضامن لصواب الرأي والثقة في القول والعلم والعمل.

وأمّا إرشاد الرّشيد الجليل للملائكة فهو أعظم من أن نحصيه في ما نتناول من صفة الرّشيد، ولكنّنا سنأخذ غيضا من فيض من الأدلة الواضحة الدلالة على إرشاد الملائكة ورشدهم، لاسيما أن الملائكة الكرام يختلفون في صفة خلقهم عن الإنس والجن بأنهم خلقوا راشدين، بإرشاد الله تعالى لهم فيما كلفوا به من عبادة وتسبيح وتنزيه، وقيامهم بأمر الله فيما كلفوا به من أمور لا يستطيعها

أحد من الإنس أو الجن لذلك عندما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}752 لم يذكر من ضمنهم الملائكة ليس استثناءً من العبادة لله تعالى، ولكن استثنائهم من الذكر مع الإنس والجن دليل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، على العكس من الجن والإنس، فإن منهم المطيع ومنهم العاصي على الرغم ممّا أمروا به، ولذلك فهم لا يأكلون ولا يشربّون بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}753 فالملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربّون ولا يتناكحون ولا يتوالدون وإنما أرشدوا للطاعة والعبادة، لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربّع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد"754 صوتت حتى كادت أن تتكسر وتقع من شدة ثقل الملائكة عليها، وحقّ لها أن تصوت لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهو إيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر وإن لم يكن ثم أطيط وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة الله عزّ وجلّ، وهذه الأدلة جميعها بأنهم راشدون في طاعة الله. فالله تعالى هو الرّشيد الذي أرشد الملائكة إلى ما أمروا به من الرشاد

[752] الذاريات 56

[753] هود 69، 70

[754] سنن الترمذي، ج 8، ص 288

وأول رشدهم أنهم كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}755 فالرّشيد الذي أبدع البشر وخلقه من طين يابس، له صوت إذا نقر عليه، فهو متغير اللون وله صورة حيث أمر الله تعالى ملائكته إذا أكمل خلق الإنسان ونفخ فيه الروح التي هي ملكه عزّ وجلّ وبهذه النفخة العلوية فرق بينه وبين سائر الأحياء، وشرّفه على سائر المخلوقات ومنحه خصائصه الإنسانية، حيث تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلا للاتصال بالله، أن يقعوا بوجوههم ساجدين له تحية وإكراما، وتعظيما ومهابة لقدرة الله على الخلق، ولأنهم راشدون سجدوا جميعا خاضعين لأمر الله، فالسجود هنا ليس سجود عبادة، وإنما هو سجود تحية للمخلوق وإذعان للخالق طاعة لأمره، لأنّ العبادة لله وحده، وبهذا هداهم الله إلى رشدهم في الامتثال للأمر.

ولو كان من باب الموازنة بين الملائكة وبعض بني البشر في مجال الرّشيد الذي آتاه الرّشيد لخلقه، فهل أن بعض البشر أكثر رشدا من الملائكة وهذا أمر فيه كثير من الحذر عندما نتناول رشد الرّشيد لخلقه، ولكننا لا نخرج عن النصوص التي جاءت من خلالها الدلالة القطعية التي تنفي الاجتهاد والإدلاء بالرأي، ووجه التفصيل في ذلك أن سجود الملائكة لآدم تعظيما وتكريما، هذا من جانب ما أمر به الرّشيد لإرشاد الملائكة للسجود، ومن جانب آخر أن الملائكة منزهون عن الخطأ، وآدم عليه الصّلاة والسّلام انصاع لوسوسة الشيطان وعصى أمر ربّه حيث قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ

755 الحجر، ج 28، ص 30

وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنّة فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَعَصَى آدَمُ ربّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}756.

وأمّا تعليم آدم عليه الصّلاة والسّلام، للملائكة الأسماء كلها فهو نوع خاص من الرّشيد حظي به من الله الرّشيد، ونحن نرى أنّ موازنة المفاضلة بالرشاد لا تقوم بين مخلوقين مختلفين في الأعراض والصفات فالله سبحانه وتعالى اختصّ جبريل عليه السلام من بين الملائكة وجميعهم لم يرتكب معصية، غير أن نصا قطعيا يثبت فضل بعض البشر على الملائكة وبهذا يثبت فضل رشدهم حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}757 والملائكة من جملة العالمين وأن طاعات الأنبياء على قهر دواعي النفس أشق وعبادة الملائكة على موجب طباعهم أسهل والأشق أفضل ونسأل الله العفو عن الزلل فإن قال قائل إن للملائكة في مقابلة عمل البشر صفات فاضلة يضمحل فضل العمل في حقّها، نقول هذا الادعاء ممّا لم يقبل في حقّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، وأما تقديم الملائكة على غيرهم من الخلق فيما ذكر معهم من خلق الله تعالى في الآيات من أنه تقديم الأفضل على الفاضل في باب اللغة، وبهذا يفضلون غيرهم من الخلق كونهم أكثر رشدا، فالأمر هنا ليس كذلك على ما نرى، وإنما هو التسلسل في علم الإلهيات والغيبيات وصولا

---

756 طه 116 . 122

757 آل عمران 33، 34

إلى اليقينيات وستجدني مضطرا لذكر عدد من الشواهد القرآنية ليتضح الأمر، فقد قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}758 فسياق الآيات جميعها يبدأ بلفظ الجلالة للذات الإلهية، ثم يأتي بعد ذلك ذكر الملائكة، وسبب تأخر ذكر جبريل عليه السلام عن ذكر الملائكة، ليس هنا من باب تقديم الأرشد على الرّشيد، وإنما هو من باب ما سبق ذكره في الغيبيات، لأن جبريل عليه السلام معروف ومعلوم للبشر أكثر من غيره من الملائكة الكرام، قال تعالى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}759، وهنا تأخر ذكر الملائكة عليهم السلام عن اليوم الآخر لأنه أكثر غيبية منهم وكذلك في قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}760، فآخر ما جاء ذكره هم أولو العلم لأنهم آخر السلسلة في التدريج الذي ذكرناه من الأعلى إلى الأدنى، فكانت شهادة الله تعالى لنفسه بالألوهية والتفرد والوحدانية والرشاد كافية، ولكن الذين اتصفوا بالرّشيد شهدوا لله بهذا الحقّ، وهو توحيد الله الذي هو أعلى درجات الرشاد، حيث شهدت الملائكة قبل أولي العلم بذلك والرّسُل من بعدهم قد وحدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلا فإن الرّسول ما أشرك قط بسبب أنه رشيد وهو من أولي العلم، فقال شهد الله والملائكة وأولو العلم ولم يقل وأولو الإيمان، فرتبة العلم المحاط بالإيمان قوّة ترسخ الحقّيقة في النفس فتكون مع العليين، وفي هذا السياق الذي نتناوله بين الرّشيد والإرشاد، فشهادة الله من

758 البقرة 98

759 البقرة 177

760 آل عمران 18

الرّشيد، وشهادة الملائكة وأولو العلم ومن ضمنه وأولهم الرّسُل هي من قبيل الإرشاد من الرّشيد المطلق وتصبح رشيدا بالإضافة، وأولو العلم يدخل ضمنهم الأنبياء والأولياء والخلفاء، وعلى الرغم من أن العلم أعلى درجة من الإيمان، إلّا أنّ الإيمان شرط للشهادة، إذ لا يمكن لغير المؤمن أن يشهد شهادة الحقّ، وشهادة الحقّ دليل على الرشاد، ومع هذا فهناك كثير من المؤمنين ولكنّهم من غير أولي العلم، ومع ذلك فهم راشدون كونهم أرشدوا إلى الإيمان، ورشد النبوّة الذي هو مقام القربّة من الرّشيد أكثر وأعظم من رشد الأفراد، فرشد الأفراد دون رشد نبوة التشريع والوحي، ولكن الخليفة يترفع عن الأفراد متصلا بسلسلة الرّشيد كونه من أولي العلم، وهي في المنزلة عند الله من الدرجة الثانية بعد الملائكة، وكذلك يكون رشد الخليفة على مستوى البشر أيضا في الدرجة الثانية بعد الأنبياء لقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[761] فمن يطع الله ورسوله فهو رشيد لا محالة، وأول الراشدين هم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ويأتي بعدهم الصدّيقون في المنزلة عند الله لأنه خصهم بالرّشيد من لدنه وهم المشار إليهم بالخلافة للسر الذي وقر في صدورهم من الرّشيد، فليس ما بين النبي والخليفة من رجل أكثر من الخليفة رشدا لأنّه من الصديقين، ومن الأولياء الراشدين أيضا، الشهداء رضي الله عنهم، فقد تولاهم الله وأرشدهم إلى الشهادة وهم من المقربّين وهم من أهل الرّشيد لأنهم ببذل أنفسهم وأرواحهم شهدوا شهادة الحقّ، فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم راشدون عن حضور إلهي وعناية أزلية فهم الموحدون

[761] النساء 69

وشأنهم عجيب وأمرهم غريب والإيمان فرع عن هذه الشهادة فإن بُعث رسول وآمنوا به أغنى هؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء الراشدون، ولهم الأجر التام يوم القيامة وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم الله عليهم في قوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرّسول فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[762]

اختلف في معنى: الصديقين، فقال بعضهم: "(الصديقون)، تُبَّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقّوا بهم، والصدِّيقين هم المصَّدِّقون، والصديق"، أن يكون معناه: المصدِّق قوله بفعله، و(الصالحين) هم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته"[763].

وفي تسمية الشهيد قولان:

أحدهما: لقيامه بشهادة الحقّ، حتى قتل في سبيل الله.

والثاني: لأنه يشهد كرامة الله تعالى. في الآخرة.

وأما الصالحون فجمع صالح وفيه قولان:

أحدهما: أنّه كل من صلح عمله.

والثاني: هو كل من صلحت سريرته وعلانيته.

وأمّا الرفيق ففيه قولان:

أحدهما: أنّه مأخوذ من الرفق في العمل.

---

[762] النساء 69.

[763] تفسير الطبري، ج 8، ص 530.

والثاني: أنّه مأخوذ من الرفق في السير"764.

وعليه لولا قوله وحسن أولئك رفيقا الحقّنا هؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هذه الآية فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرّسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين فإنهم يشوشون على المؤمنين إيمانهم وهؤلاء الأعداء الذين تعمهم هذه الآية هم العلماء، والشاهد ليس برسول فلابد أن يتأخر فلم يبق إلا أن يكون في الرتبة التي تلي الصديق فان الصديق أتم رشدا من الشهيد لأنّه صديق من وجهين:

الوجه الأوّل: من وجه التوحيد.

والوجه الثاني: من وجه القربّة.

فالرّشيد من الرّشيد إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لأمر أراده تعالى، والرّشيد يجده المؤمن في قلبه ولا يقدر على دفعه، فالرّشيد من الخلق من آمن عن دليل يرسّخ الرّشيد في قلبه ويقينه بإيمانه أن الرّشيد المطلق إنّما هداه إلى هذا الرّشيد ليس لنفسه فقط، وإنما ليكون رشيدا ومرشدا أيضا، ويلزمه تبيين ما أعطي من الرّشيد الذي جاء به حتى يفهمه للآخرين، وهو أن يخاطبهم بالتأسي والرفق واللين، لأن حاجة الخلق إلى معرفة أسماء الله وصفاته من أعظم الحاجات، فكانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه، ولهذا كان ذكرهم لأسمائه أيضا أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه، ومن اللطائف في هذا المجال أن الرّشيد جل شأنه أرشد الخلق لمعرفة أسمائه وصفاته بطرق كثيرة ومختلفة تهدي إلى الرّشيد، فالقرآن الكريم مرشد إلى الرّشيد، فالحمد لله الذي امتن

---

[764] النكت والعيون، ج 1، ص 311.

على عباده بنبيه المرسل صلّى الله عليه وسلّم وكتابه المنزل حيث قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}765 حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور، ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير، لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد، هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين حيث قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرّشيد فَآَمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرِبّنَا أَحَدًا}766، فكل من آمن به فقد وفق ورشد ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز، وهكذا أرشد الله تعالى فريقا من الجن ليستمعوا القرآن ويبلغوا قومهم فكان أمر هؤلاء أن اهتدوا إلى الرّشيد وكانوا راشدين ومرشدين، إذ أنهم أهل لذلك ففتحت لهم أبواب الهدى وذللت لهم سبل الرشاد، وبما أن الجن نوع خاص من الخلق أقربّ بصفاته إلى الملائكة منه إلى الإنسان فقد ضربّ الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى إفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقّهم ورشادا لهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين

---

765 فصلت 42

766 الجن 1، 2

الذي أرشده فالتزم رشده، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين، ويبغض الآخر واسمه إبليس فأرشده الله الرّشيد ولكنه أبى، وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ ربّكَ بِالحقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}767 وقال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}768 وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}769 فالله تعالى أنكر عليه عصيانه بعد أن دله على طريق الرشاد بقوله: ما منعك عن تعظيم آدم وقد أمرتك به؟ أجاب إبليس في عناد وكبر: أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنّار أشرف من الطين فكان بذلك من الغاوين الذين ضلوا سبل الرشاد، فجزاه الله على عناده وكبره بطرده من دار كرامته، وأهبطه من جنة الخلد، بعد أن كان في منزلة عالية، فما ينبغي له أن تتكبر وتعصى فيها، فخرج منها محكوما عليك بالصغار والهوان بعد أن ترك سبيل الرّشيد، ولحقّده على آدم وحسده له، بسبب الحكم عليه بالغواية والضلال، أقسم ليضلنّ بني

767 النحل 102

768 غافر 15

769 الأعراف 12، 18

آدم ويصرفهم عن طريق الرشاد، متخذا في ذلك كل وسيلة ممكنة من أجل إغوائهم، والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة والرشاد، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في الحياة له مثال، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يقدم له الطعام وينظف فناء منزله وكان له عبدان فلا يستخدم للتنظيف إلا من هو أقل منزلة من الآخر، ولا يفوض حمل الطعام الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه وأرشدهما للحقّ، فالله تعالى رشيد في تدبيره وأموره وشؤون خلقه، فهو جل شأنه يعطي الرّشيد حينا ويعطي أسباب الرّشيد حينا آخر، ويجمع بين الاثنين فيعطي الرّشيد وأسبابه لمن يشاء من خلقه، فإن رشده تارة يتم بأمور لا مدخل لنا فيها، وتارة يتم بنا فإننا أيضا من أفعاله، فقدرتنا وعلمنا وعملنا ورشدنا وسائر أسباب حركاتنا في التعبير هو فعله الذي رتبه الرّشيد ترتيبا تصدر منه الأفعال الرّشيدة، إلا أننا لا نرى إلا أنفسنا فنظن أن ما يظهر علينا في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك نضيفه إلى أنفسنا، وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تقدير الرّشيد الحكيم، ولكنهم ربّما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الخليفة الرّشيد الذي أوتي من الرّشيد ما لم يؤتى لغيره، إلا العارفون والعلماء الراسخون الراشدون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، وإنما بيقين القلوب وطرق الهدى وسبل الرشاد التي تفضل بها الرّشيد على خلقه كي يسلكوا طريق الرّشيد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرّشيد اتخذوه

سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية فكانت إجابة الحقّ إياهم حين دعوه ونهاية طريقهم إلى ما فرحت به نفوسهم، فالله تعالى برشده يؤلف بين قلوب الراشدين كي يجمعهم على الحقّ والعدل والصدق، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وأرشدهم إلى أمور الخير وسبل الهدى وطرق الرّشيد وسلط الأنس والمحبة عليهم بالرّشيد فيما بين الخلق حيث قال تعالى: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}770 فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربّة متجاورة ورتبوا الأسواق وسائر أصناف البقاع ممّا يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك ممّا يؤدّي إلى الصدام والصراع والتناحر والتقاتل، فالله تعالى بحكمته وعلمه وكونه رشيدا، اختار الخليفة الرّشيد وأمده بالقوّة والعدة والأسباب وألقى هيبته في قلوب النّاس حتى أذعنوا له لأنّه رشيد، والرّشيد هدى الخليفة وأرشده إلى طريق إصلاح العباد حتى رتبوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت إرشاد الخليفة ورشده، كما يتعاون جميع أعضاء البدن، وينتفع بعضها ببعض. فالراشدون هم المصلحون لأنفسهم ولغيرهم في نشر الخير وحفظ العدل بين الخلق، فعرفهم برشده الحقّ من الباطل، ولولا رشده لهم إلى الخير والعدل والحقّ ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدهم إليه من إصلاح الدين، والله سبحانه وتعالى رشيد، أرشد الأنبياء بالملائكة،

---

[770] الأنفال 63

وأرشد الخلفاء بالأنبياء، وأرشد الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقربّ الذي لا واسطة بينه وبين الله، وعلى هذه السلسلة من الرّشيد المتصل إلى الرّشيد الحكيم كانت مشيئة الرّشيد، فالأنبياء يرشدون الخلفاء، والخلفاء يرشدون العباد إلى ما يهديهم إلى الحقّ، والملائكة يرشدون الأنبياء حتى يعود كل ذلك إلى الرّشيد الذي هو ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من الرّشيد الحكيم الهادي، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[771] لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنّه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[772] فإن تكلمنا فبإذنه بسطنا القول، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا، وهكذا الحال في الدار الآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الحقّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى ربّهِ مَآبًا}[773] إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأننا في كل لحظة نحن نحتاج إلى الرّشيد الذي يرشدنا على الصلاح ويدلنا على الهدى، كي نستطيع أن نصلح أمور حياتنا ومعاشنا ومن أجل ذلك فقد أوجد الله تعالى كل ما في العالم للإنسان وأرشده إليه ونبه عليه بقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

[771] العنكبوت 69

[772] إبراهيم 34

[773] النبأ 38، 39.

الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}774 فالله سبحانه وتعالى مهد الأرض بقدرته، وبسط رقعتها ليسهل على الخلق الرشاد والإقامة فيها والانتفاع بها، وجعل من السّماء وأجرامها وكواكبها كالبنيان المشيد، وأمد خلقه بأسباب الحياة والنعمة وهو الماء الذي أنزله من السماء فجعله سببا لإخراج النباتات والأشجار المثمرة التي أرشد خلقه إلى فوائدها ومنافعها، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}775 فالرّشيد جل شأنه أرشد السحاب بإنزاله من جهة السماء ماء منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وإلى هذا الشجر أرشد الأنعام لتأكل منه، وأرشد النّاس إلى ألبانها ولحومها، وإلى الأصواف والأوبار والأشعار التي ينتجها كل نوع من هذه المخلوقات، ثم أرشد الخلق إلى الفائدة ممّا ينبته هذا الماء الذي ينزل من السماء من الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي فيها حياة النّاس ومعاشهم، إن في إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية للرشد لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون كيف أرشدوا إلى هذه الأشياء في القدرة التي أوجدتها، وقد أرشد الخالق عزّ وجلّ كل مخلوقاته لما خلقت له فسخر الليل إذ جعله مهيئا للنوم والراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، وأرشد الشمس في مسارها ودورانها وما تمد الأرض بالدفء والضوء، وأرشد القمر في فلكه ومساره ودورانه

---

774 البقرة 22

775 النحل 10، 12

شكل يختلف عن الشمس لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله تهتدي في الظلمات ويرشد الذي يضل الطريق في البر والبحر، إن في ذلك لعلامات وأدلة لقوم يجب أن يكونوا راشدين بما وهبهم الله من عقل يدرك هذه الأشياء، ثم أن الله سبحانه وتعالى أباح للخلق الانتفاع بما أرشدوا إليه حيث قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[776] فالله سبحانه وتعالى لم يحرم الزينة التي خلقها لعباده وأرشدهم إليها، إذ كيف يحرم الله الحلال الطيب من الرزق الذي أرشد عباده إليه بهديه، فهذه الطيبات نعمة من الله ما كان ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا في الدنيا، لأنهم يؤدون حقّها بالشكر والطاعة، ولكن رحمة الله الواسعة شملت الكافرين والمخالفين في الدنيا الذين علموا الرّشيد ولم يتخذوه سبيلا، وستكون هذه النعم خالصة يوم القيامة للمؤمنين الراشدين خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم. لقد أرشد الله الإنسان إلى هذا الرزق الذي خلقه له وكل ما حصل عليه الإنسان من فائدة إما في غذائه أو في دوائه أو في ملابسه ومشموماته ومركوباته، وزينته والالتذاذ بصورته، أو رؤيته والاعتبار به، وباستفادة علم منه والاقتداءِ بفعله فيما يستحسن منه، والاجتناب عنه فيما يستقبح منه، فقد نبه الله تعالى إلى منافع جميع الموجودات وأرشد إليها، واطلع الخلائق عليها إما بألسنة الأنبياء عليهم الصلاة السلام، أو بإلهام الأولياء والخلفاء والصالحين رضي الله عنهم، وكما أنَّ حقّ الإنسان أن يعرف رشد الحيوانات في ذواتها فيرشد إليها في المطاعم والملابس والأدوية، فحقّه

[776] الأعراف 32

أن يرشد إلى أخلاقها وأفعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن، واجتناب ما يستقبح منها، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في إرشاد النحل فقال: {وَأَوْحَى ربّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَممّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[777] فألهم الله النحل أسباب حياتها، وأرشدها إلى وسائل معيشتها، بأن تتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها الرّشيد للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وأرشدهم أن في هذا الشراب غذاء ودواء، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل، فنبه على أن الإنسان حقّه أن يقتدي بالنحل ويسترشد به مراعاة لوحي الله عزّ وجلّ، فكما أن النحل لا يتخطى وحي الله في تحري المصالح التي هي من طباعه التي أرشده الله إليها، كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختيارا بما أرشد إليه، وعلى هذا الأساس كان الخليفة مهتديا طائعا لله ربّ العالمين بما أرشده به وما أرشده إليه.

ومن أعاجيب الإرشاد ما جاء ذكره في القرآن الكريم عندما بعث الله تعالى الغراب ليرشد الإنسان العاقل، وذلك ما أخبر به عزّ وجلّ من خبر ابني آدم، حين قربّا قربّانا فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه، فقال عندما هم به من قتله، وعند إمساكه عنه، والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي

[777] النحل 68، 69

وَإِثْمِكَ}778 فلولا أن للغراب فضيلة وأمورا محمودة، وآلة وسببا ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب النّاس، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك، فأخبر أنه مبعوث، وأنه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير وأرشده ليرشد الإنسان ما يجب عليه فعله في أمور يجهلها، فاختصام ابني آدم وقتل أحدهما للآخر، وإرشاد أحدهما للخير والآخر للشر حيث أخبر بذلك قوله تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}779 الذي أرشد للخير منهما لم يقاوم أخاه ولم ينازعه بسبب هداه واستقامته ومعرفته لسبيل الرشاد الذي بينه الرّشيد له كي يحتمل الآخر الذنب وينال جزاءه، والذي اتبع الغي والضلال فيما اقترفه من ذنب بابتعاده عن طريق الرّشيد في ارتكاب فعلته بقتل أخيه فاستحقّ أن يكون في الآخرة من أهل النّار، وذلك جزاء عادل من الله الرّشيد لكل ظالم. فقد سهَّلت له نفسه أن يخالف فطرة الرّشيد وأن يقتل أخاه، وقتله، فصار في حكم الله من الخاسرين، إذ خسر رشده فخسر إيمانه وخسر أخاه، بعد قتله أصابته حسرة وحيرة، ولم يدر ما يصنع بجثته، فأرسل الله غرابا مرشدا ينبش تراب الأرض ليدفن غرابا ميتا، حتى يُعَلِّم ذلك القاتل كيف يستر جثة أخيه، فقال القاتل مستشعرا وبال أمره وما ارتكب من جرم، متحسرا على جريمته بأنه أعجز من أن أكون مثل هذا

---

778 المائدة 29

779 المائدة 29، 31

الغراب فيستر جثة أخاه، فصار من النادمين على جرمه ومخالفته دواعي الفطرة الرّشيدة.

ومن إرشاد الرّشيد أيضا ما جاء عن النملة التي أرشدت قومها لدخول مساكنهم حتى لا يحطمهم جنود سليمان عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}780 حتى إذا بلغوا وادي النمل قالت هذه النملة يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم، لكيلا يميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم فأرشدت قومها إلى النجاة وخلصتهم من الهلاك بما أوحى إليها خالقها الرّشيد كما أوحى إلى غيرها من المخلوقات من أمثالها كالنحل والعنكبوت، ثم أن سليمان عليه الصّلاة والسّلام تفقد ما حشر الله له من الجند حيث قال تعالى: {تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}781 وتَعَرَّفَ جنوده من الطير فلم يجدوا الهدهد، فتعجب وقال: مالي لا أرى الهدهد، أهو بيننا ولم يقع عليه نظري، أم هو غائب عنا ليس بيننا، وتوعد به عذابا شديدا يردعه، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيما إلا أن يأتي بحُجّة بيّنة تُبرر غيابه عنه، وكان الهدهد قد مكث في مكان غير بعيد، ثم جاء إلى سليمان عليه الصّلاة والسّلام يقول له: قد أحطت علما بما لم يكن عندك علم به، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن به، فأرشد

---

780 النمل 18

781 النمل 20، 22

الهدهدُ نبي الله إلى شيء لم يكن يعلمه، ولذا فمهما أتي الإنسان من العلم فلم يؤتى منه إلا قليلا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}782 ولوجود قوم لا يسجدون لله، وسليمان عليه الصّلاة والسّلام مكلف بإرشادهم، فأرشده الهدهد إليهم كي يرشدهم بأن أرسل لهم كتاب يدعوهم فيه إلى الرّشيد مع الهدهد الذي أرشده الله حيث قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فأنظر مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}783 فأراد أن يختبر رشد الهدهد ويتحرى صدقه فأرسله بكتاب يوصله إلى تلك المرأة وقومها، ووصل الكتاب إليها فجمعت أشراف قومها، وذوي مشورتها وأخبرتهم الخبر أنه أيها الملأ إني قد وصل إليَّ كتاب عظيم الشأن، ثم تلت الكتاب عليهم قائلة: إنه من سليمان وإنه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم الذي يفيض برحمته دائما على خلقه، فكانت المرأة رشيدة في فعل ما يجب عليها فعله من المحافظة على حياة قومها وهدايتهم ورشدهم بعد أن فوضوا أمرهم إليها، فهي لم ترمِ بهم إلى التهلكة وإنما أخذت بأيديهم إلى طريق النجاة حيث قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ

782 الإسراء 85.

783 النمل 23، 31

سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ ربّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}784 فلما رأت الآيات التي تهدي إلى سواء السبيل وطريق الرشاد استمسكت بها ودعت قومها إلى ذلك فكانت من الراشدات وكان قومها من الراشدين، وهذه المسألة سلسلة من الرّشيد المتبادل بين مخلوقات الله فيما أرشدهم إليه. واسترشاد الإنسان بمخلوقات أخرى لا يعني انتقاصا من قيمته أو علمه أو عقله، فعلى مستوى البشر نجد أن الصغير يسترشد بالكبير، والجاهل يقتدي بالعالم، ومن ليس له خبرة، يأخذ من أصحاب التجاربّ، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أشياء لا يكون لجنس البشر، وإنما اختص بها الله تعالى خلقا آخر لدلالة القدرة، بمعنى أن هذه المخلوقات التي لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان من العقل، فالإنسان بحاجة إليها، وبعبارة أدق فالإنسان بحاجة إلى الخلق الرّشيد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه لما خلق إليه، فعلى الرغم من تفاوت النّاس واختلافهم، فإن الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث أنّها مصنوعة بالحكمة الرّشيدة، وعلى ذلك نبه الله تعالى حيث قال: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}785 بحكمة الله تعالى في خلقه وإرشاد كل خلق لما يتناسب مع طبيعة ذلك الخلق، ومختلفة من حيث أن كل نوع يختص بفائدة، وكل نوع وأن اختلف فما من شيء أكثر اختلافا من النّاس، كما قال الله تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}786 أي طورا بعد طور وتارة بعد تارة وأنّ الإنسان على حالة منافية لما هو عليه بالكلية وهو أنه يعلم أن الله تعالى خلقه وقدره تارات أي مرات،

---

784 النمل 44

785 الملك 3

786 نوح 14

حالا بعد حال من عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم أنشأه خلقا آخر فان التقصير في توقير من هذه شؤونه في القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن رشيد عاقل، وقال تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ ربّكَ خَيْرٌ ممّا يَجْمَعُونَ}787 فالله تعالى برشده تولى تدبير الخلق معيشتهم لعجزهم عن ذلك، وفضل بعضهم على بعض في الرزق والجاه، ليتخذ بعضهم من بعض أعوانا يسخرونهم في قضاء حوائجهم، حتى يتساندوا في طلب العيش وتنظيم الحياة وما يتبعها من سعادة، لأن الرفع والخفض هما من سنة الرّشيد لاستمرار الحياة حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}788 فالله سبحانه وتعالى برشده جعل خلفاء من الأمم لأجل عمارة الكون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في الكمال المادي والمعنوي لمن أخذ في أسباب الرّشيد، وكذلك ليختبر الخلق فيما أعطاهم من النعم، هل يرشدون إلى شكرها، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفته بالمعنى العام لأنه يخلف من سبقه، وليس بالمعنى الخاص المقصود بالخلافة، والخلافة بالمعنى العام هو أن الله جعل كل واحد من بني آدم خليفة ربّه في الأرض وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا وهي صفات جزئية قياسا للخالق عزّ وجلّ، فمن أخذ بها فقد رشد، ومن تركها وابتعد عنها فقد ضل وغوى، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخلق في الهدى والضلال، والرّشيد والغي،

787 الزخرف 32

788 الأنعام 165

لذلك قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبّكَ لَجَعَلَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبّكَ}789 فلو شاء الله تعالى لأرشد جميع الخلق إلى الخير ولجعل النّاس على صراط مستقيم، مطيعين الله بطبيعة خلقتهم، كالملائكة، فلو كان ذلك كذلك، لكان الخلق غير هذا الخلق، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه بين لهم سبل الهدى وطرق الرشاد وتركهم مختارين، لذلك فلا يزالون مختلفين في كل شيء، حتى في أصول العقائد، كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، ممّا لا يجوز الخلاف فيه، تبعا لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم، يتعصب كل فريق لرأيه، وما ينبغي هذا لمن بين له الله تعالى طرق الرشاد، لكن الذين رحمهم الله لسلامة فِطَرِهم، فإنهم اتفقوا على حُكم الله فيهم، فآمنوا بجميع رسله وكتبه واليوم الآخر عندما سلكوا ما بيّن لهم من الرّشيد ما هم أهل له فاتبعوه، وهكذا اقتضت مشيئة الرّشيد وحكمته في نظام الخلق فمنهم شقي وسعيد، ولو أنّهم أخذوا بما أمروا به لكان خيرا لهم، إذ أنّ الإنسان بحاجة إلى الرّشيد في أموره كلها، وبحاجة إلى من يدله على الرّشيد في المأكل والملبس وكثير من أحوال الدنيا وأمورها حتى في اختيار مستلزمات حياته اليومية، وفي تفضيل طعام على آخر، أو شراب على غيره كما قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}790 فالأرض ذاتها فيها عجائب الرشاد ما لا يخفي على عاقل مدرك، ففيها قطع من الأرض يجاور بعضها بعضا، وهى مختلفة التربّة مع ذلك، بعضها قاحل، وبعضها خصب، وإن اتحدت التربّة، ففيها حدائق مملوءة

---

[789] هود 118، 119

[790] الرعد 4

بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنّها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن في هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله لمن له عقل يفكر به كيف أرشدت هذه العناصر التي شكلت الثمار إلى أشكالها وطعومها وألوانها ففي الثمر شكلا وقدرا وطعما ورائحة فمنها بياض وسواد وصغير وكبير وحلو ومر وحامض وجيد ورديء، وذلك أيضا ممّا يدل على الصانع الحكيم الرّشيد، وقدرته في إنبات الأشجار بالثمار المختلفة الأصناف والأشكال والألوان والطعوم والروائح مع اتحاد الأصول والأسباب، فهذا لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار رشيد، لأنّه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس أن لا يختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد، فكل هذه المخلوقات التي أبدعها الخالق إنما هي لحاجة مخلوق آخر يرشد إليها، ويرشد إلى جنسه أيضا ليستطيع العيش، ودلائل الرّشيد من الرّشيد الحكيم لا تنقضي في الكائنات من نبات وحيوان وإنسان، النبات من الذي أرشده لاختيار العناصر التي تجعل نوعا منه حلوا والآخر حارا والآخر حامضا وهذا بلون وذاك بآخر، فهذه وغيرها من دلائل رشده التي تثير في النفس إجلال الرّشيد ولم يفطن إليها الكثير ولم يدرك كنهها إلا من تحلى بروح صافية وعقل مستنير وقلب مفعم بالنور وهذا كله في المستحقّ لخلافة الله الرّشيد ولا أدل وأوضح من قول ربّنا في كتابه العزيز حيث يرشد إلى هذا المعنى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}791 فمن الذي أرشد كل صنف من النبات لاختيار المواد التي تلائم نوعه من حيث الشكل واللون والفائدة، لا إله إلا الله الذي أرشد الكل إلى ما فيه الفائدة له ولغيره، فهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف، فأخرج من النبات شيئا غَضّا طريا، ويخرج منه حبا كثيرا بعضه فوق بعض، ومن طلع النخل عرا جين يخرجها محملة بالثمار سهلة التناول مختلفة الشكل واللون والرائحة والفائدة، ويخرج الله الرّشيد كذلك بالماء جنات من الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ما هو متماثل الثمر في الشكل وغير متماثل في الطعم والرائحة ونوع الفائدة. وهنا دعوة تأمل كيف أرشد الله هذه العناصر إلى تشكيل هذه الثمار المختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة، وهي نظرة في تدبير الرّشيد وما في ذلك من اعتبار في تكوين ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة؟ إنّ في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحقّ ويؤمنون به ويذعنون له، فالراشدون هم الذين يستجيبون للرشد من خلال التأمل في خلقه المتنوع المتباين، وهم المتخلقون بأخلاق الهدى واستبيان سبل الرشاد وهذا من الدلائل على كمال إرشاد الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، وهذه الدلائل هي أيضا نعم بالغة في الرّشيد والتأمل والاعتبار وهي إحسانات كاملة، فالكلام إذا كان دليلا من بعض الوجوه، وكان إنعاما وإحسانا من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيما، وعند هذا يظهر أنّ المشتغل بإرشاد الخلق إلى طريق الحقّ لا ينبغي أن يعدل عن هذا السبيل في تبين الرّشيد من الدلائل التي بثها الله في مخلوقاته، فهي آيات دالة على وجود

---

[791] الأنعام 99

الرّشيد القادر الحكيم وتوحيده، فإنّ حدوث الأجناس المختلفة والأنواع من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث رشيد قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته ممّا يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، ولا يفطن إليها إلا ذو عقل رشيد، ذلك أنّ الكمالات على المستوى الإنساني هي إرشاد الخلق بعضهم لبعض بما تفاضلوا به ممّا أنعم الرّشيد على البعض منهم بالرّشيد، والحكمة المقتضية لذلك هو أن الإنسان لما كان غير مكتفٍ بتفرده في بقائه، فإنّ أوّل ما يحتاج الإنسان إليه ما يواريه وما يغذيه، وليس يجد ما يواريه مصنوعا، ولا ما يغذيه مطبوخا، كما يكون لكثير من المخلوقات الأخرى التي أرشدت إلى طعامها، بل هو مضطر إلى إصلاحهما، وإصلاح ذلك يحوجه إلى آلاتٍ غير مفروغ منها، والإنسان الواحد لا توصل له إلى إعداد جميع ما يحتاج إليه ليعيش العيشة الحميدة، فلم يكن بُدٌّ للناس من تشارك وتعاون، فأرشد كل قوم إلى صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الأخرى ليقتسموا الصناعات بينهم، فيتولى كلٌّ منهم صنفا من الصناعات فيتعاطاه باعتزاز، كما قال الله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}792 فاقتضت حكمة الرّشيد أن تختلف ألسنتهم وأشكالهم وألوانهم وقواهم وهممهم وأعمالهم، فيكون كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، فتكون معايشهم مقتسمة بينهم، كما بيناه في الآيات المتقدمة. والاختلاف الحاصل بين النّاس إنما هو من رشد الرّشيد، فالنّاس إذا اعتبر اختلاف أغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وإن كانوا في الظاهر مختارين، وقد أشار النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى ما يتعلق من المصلحة

792 المؤمنون 53

بتباينهم واختلاف أحوالهم وطبقاتهم فقال: "لا يزال النّاس بخير ما تباينوا، فإذا استووا فذاك حين هلاكهم"793.

والرّشيد هو من الرّشيد الذي يوجه العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}794 وهو الرّشيد اللائق به وبأمثاله من الرّسُل الكبار وهو الرّشيد الكامل ونعني به الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية، فالرّشيد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ومحركة إليها، فالإنسان الذي يملك مالا على سبيل المثال واستطاع أن يحفظه وينميه في الطرق المشروعة التي أحلها الله تعالى، ولكنه مع ذلك يبذر، وهذا التبذير هو مضيعة لبعض المال فهو لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته، بل لقصور هدايته عن توجهه لما أرشد إليه، وحتى يكون رشيدا فيجب أن يكون كما قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}795 فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره، ولكنه لم يعطَ الرّشيد، فالرّشيد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد فهو توجيه الرّشيد إلى صوب المطلوب واتجاهه من أجل إصابة الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجردها لا تكفي، بل لابدّ من هداية محركة للتسديد

793 شعب الإيمان للبيهقي، ج 19، ص 84

794 الأنبياء 51

795 الإسراء 29

نحو الرّشيد، والرّشيد لا يكفي، بل لابدّ من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات والجوارح حتى يتم المراد ممّا انبعث عليه الرّشيد، والرّشيد أيضا هو تنبيه الرّشيد ليستيقظ ويتحرك نحو السداد، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، ومن هنا يكون التأييد للرشيد الذي أرشد فكأنه جامع لأسباب الرّشيد، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من الداخل ومساعدة أعضائه من الخارج، وهذا مل يقربّه من العصمة، وهي عبارة عن عناية إلهية تسبح في الباطن، فيقوى بها الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر كما كان حال يوسف عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[796]وهنا نتبين رشد يوسف عليه الصّلاة والسّلام عندما عزمت امرأة العزيز أن تخالطه ونازعته نفسه إليها، لولا أن رأى نور الله الحقّ نصب عينيه قد استضاء به، ولم يطاوع ميل النفس، وارتفع عن الهوى، فامتنع عن المعصية والخيانة وثبت على طهره وعفته. فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير ومن ملك ذلك كان من الراشدين، فالذين يتبصرون في آيات الله تعالى طالبين منها التمييز ما بين الخير والشر لعلهم يرشدون أي يسلكون طريق الرّشيد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرّشيد اتخذوه سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية فإن الله يمكنهم من أسباب الخير ويهون عليه الشدائد ويرفع عنهم الأمور المحرجة ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة ومن الغيّ إلى الرّشيد كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

[796] يوسف 24

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}797 فالذين بذلوا جهدهم، واحتملوا المشقة في نصرة في التبصر سوف يرشدون إلى طريق الهداية والخير والحقّ، والمجاهدة غض البصر وحفظ اللسان وخطرات القلب ويجمعها كلها الخروج عن العادات البشرية، فمن أعطي ذلك كان من المستخلفين الراشدين، ولا يتوقف الرّشيد على خلق دون خلق، فالله سبحانه وتعالى قال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}798 ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان وجميع المخلوقات على السواء في الهدى والرشاد الذي أراده الخالق، فكيف كان الحيوان مرشدا للاختراع فيما يعمل ممّا لا يستطيعه الإنسان، حيث يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون إرشاد الرّشيد لها، وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب، فالله تعالى هو المتفرد بالخلق ومتفرد بإرشاد خلقه الذي خلقه، فإن انفراد الله سبحانه بخلق الخلق وأعماله وحركات لا يخرجها عن كونها مقدورة لهذا المخلوق أو ذاك على سبيل الاكتساب والإرشاد، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا وهدى كل مخلوق إلى رشده، إن الخالق عزّ وجلّ لا تنقضي عجائبه في إرشاد خلقه ممّا كبر منها أو صغر، وممّا عظم منها أو هان وضعف فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}799 فبيتها أوهن البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء ولكن مع هذا على ما نسج

---

797 العنكبوت 69

798 طه 50

799 العنكبوت 41

فله حقّيقة وانتفاع فلو رأينا العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدنا رشدا قد يعجز المهندس في صنعته، فهي إنما تطلب موضعين متقاربّين، بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها، ثم تلقي لعابها على الجانبين، فإذا أحكمت المعاقد ورتبت القماط والركائز اشتغلت باللحمة، فيظن الظان أنّ نسجها عبث، وإنّما هي شبكة للبعوض والذباب والحشرات، وإنها إذا أتمت النسيج انزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر، وتقف في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها، واستعانت على قتلها بلف الخيط عليها، وهذه الصنعة أرشدها المرشد جلّ جلاله إليها، أفلا ننظر إلى حكمة الرّشيد الذي أرشدها وعلمها وفهمها. فها هي عجائب المخلوقات على نفسها ترشد الغافلين إلى باب الرّشيد وهم عن التبصر بعيدون.

الفضل صفة اليسع من ذي الفضل:

ولأنّ النبي اليسع من الأنبياء المفضّلين من ذو الفضل جلّ جلاله؛ فهوى على المكانة والرّفعة المرموقة، ذلك لأنّ فضائل الله لا تحصى ولا تعدّ ومهما تصوّرنا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كيف هي فضائل أو ماهي؟ ستضل فضائل ذو الفضل غير قابلة للقياس كونها من إعمال المعجزات التي لا تكون إلّا على أيدي الأنبياء الكرام الذي من بينهم النبي اليسع عليهم صلوات الله وسلامه.

ونحن نبحث في فضائل الله على نبيّه اليسع عليه السّلام ارتئينا البحث في صفة الفضل التي لا تستمدّ إلّا من ذو الفضل وهو الله

تعالى، وهو مصدر كل فضل، وهو المعطي دون انتظار مقابل، فمن فضله كان بعباده رءوف رحيما وكان لِما خلق رزّاقا كريما.

فذو الفضل اسم من الأسماء الله الحسنى التي سمى بها نفسه جلّ جلاله مصداقا لقوله تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[800].

فقوله تعالى: (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي صاحب الفضل الواسع الذي لا يساويه فضل مهما تعدّد.

وجاء الفضل معرَّفا للتخصيص والتحديد فهو لم يكن فضلا مجهولا أو نكرةً، بل هو الفضل الذي من عند الله، ولهذا لا فضل للمقارنة مثل فضل ذو الفضل العظيم.

فإذن قوله تعالى: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) تدلّ هذه الآية الكريمة على ما في نفوس الكافرين والمشركين من حسد وحقّد على الذين آمنوا، فهم لا يحبون الخير الذي أفاض به ذو الفضل على الذين أسلموا وجوههم إليه واحدا أحدا. ولأنّه ذو الفضل العظيم فقد مدَّ أهل الخصوص الذين منهم النبي اليسع بالخيرات الحسان حتى وصفوا أنّهم من الأخيار الكرام، ولذا فإن ذو الفضل العظيم لا ينتظر من أحدا رأي ليؤتي من رزقه لمن يشاء أو لم يؤته. إنّه مالك الملك والأمر يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممّا يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[800] البقرة 105.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}801 وقال تعالى: {إِنَّ ربّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}802.

إذا لو لم يكن ذو الفضل العظيم ما كان له أن يؤتي الملك والرّزق لمن يشاء بغير حساب؟

بدون شكّ إيتاء الملك والنبوّة والحكمة والرّزق والعلم والسلطان لا يكون إلا من ذو الفضل العظيم جلّ جلاله. قال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ ربّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}803.

في مضمون هذه الآية الكريمة تنبيه على أنّ الإيمان بالله لا فرق فيه سواء أكان في رسالة موسى أو عيسى أو محمّد أو الذين سبقوهم من الأنبياء والرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا فمن آمن بأيّ من الأنبياء السّابقين عليه أن يؤمن برسول الكافة محمّد عليه الصّلاة والسّلام وبرسالة الإسلام الخاتمة وألا يكون من المشركين أو الضالين.

وقوله (إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ) أي الهداية باتباع الرّسول والرّسالة الخاتمة هو الهداية التي هي من عند الله فلا يحقّ الاعتراض أو

801 آل عمران 26، 27.

802 الإسراء 30.

803 آل عمران 73، 74.

الاحتجاج، أي لا يحقّ للمخلوق أن يحتج أو يعترض على مشيئة الله واصطفائه للأنبياء والرّسُل، ولذا فالمؤمنون لا يفرّقون بين أحدا من رسله مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}804، وقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}805.

وقوله (أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ) أي أن لا دين حقّ إلا من الحقّ تعالى، ولهذا الرّب واحد والدين واحد وإن تعدد الأنبياء والرّسُل؛ فالدعوة واحدة لواحد أحدا لا شريك له.

ولأنّ الأمر كذلك فلماذا إذا الاعتراض والاحتجاج والكفر والشرك؟ نعم إنّه لا مبرر حقّ لذلك ولذا يفترض أن تعم الفرحة كل الذين سبق لهم أن آمنوا بالنبي أو الرّسول السّابق للاحق من بعده.

وقوله: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) تعود هذه الآية على سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام ليقول أنّ ما آتاه من الله تعالى هو من فضله تعالى، ومن ثمّ فالفضل يستوجب الحمد والشكّر، وبخاصّة لمن عمّه الفضل العظيم، ليكون رسولا بالكتاب الحكيم للنّاس كافّة.

---

[804] آل عمران 84 . 86.

[805] البقرة 285.

ولأنّ الأنبياء والرّسُل يصطفون من الله اصطفاء؛ فكيف للبعض كفرا وشركا لا يعقلون! أم على قلوب أقفالها؟ قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}806.

وجاء قوله (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) لأن الله يصطفي الرّسُل والأنبياء اصطفاء؛ فالأمر فيه اختصاص بالرّحمة والفضل لمن يشاء من عباده الصالحين كما شاء فضله على النبي اليسع عليه السّلام.

ولأنّ الأمر بيده تعالى فلماذا إذا الكفر والشّرك وعدم الطاعة لله ذو الفضل العظيم؟

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}807، من غير شكّ من يتقي الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ويحفظه من كلّ مكروه وسوء ومكر وكيد إنّه على كلّ شيء قدير.

---

806 محمّد 23 . 29.

807 الأنفال 29، 30.

إذا ما هو الفضل العظيم؟

الفضل العظيم لا يحصى ومنه:

. اصطفاء الأنبياء

. تفضيل البعض على البعض حقّ وبيّنة.

. جعل الأنبياء والرّسُل الكرام أسوة حسنة.

. إيجاد المخرج من كلّ ضيق.

. الحفظ من كلّ مكروه وسوء.

. المكر بمكر الماكرين.

. كيد الكائدين.

. الرزق من غير احتساب.

. إيتاء العلم.

. إيتاء الملك.

. إيتاء الحكمة.

. إيتاء السلطان.

. منح القوّة والقدرة في دائرة الممكن.

. نعمة العقل.

. الخلق في أحسن تقويم.

. نعمة السمع والبصر.

ـ نعمة التدبّر والتفكّر والتذكّر.

ـ نعمة الاستغفار.

ـ نعمة التوبة.

ـ نعمة الطّاعة.

ـ نعمة الإيمان.

ـ الإسلام.

ـ نعمة الصبر.

ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ الأمر بالعدل.

ـ الإحسان بالوالدين.

ـ عدم التفريق بين أنبيائه ورُسُله.

ـ التراحم بين النّاس.

ـ أغاثه الملهوف.

ـ قول الحقّ وفعل الحقّ.

ـ الجزاء بالجنّة.

قال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[808]. قوله (سَابِقُوا) جاءت

[808] الحديد 21.

للجمع غير المحدد أي سارعوا أيها النّاس (إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ) توجب لكم نيل المغفرة منه وتحقّق لكم الفوز بالجنّة التي أعدت للذين آمنوا بالله ورُسُله عليهم الصّلاة والسّلام (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)، وهذه المغفرة والجنّة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) أي أن المغفرة والفوز بالجنّة هما الفضل من ذو الفضل العظيم يؤتيه لمن يشاء ولهذا الجنّة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[809].

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[810].

الذين آمنوا هم من أهل الكتاب الذين يُراد لهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمّد كما آمنوا من قبله بموسى وعيسى عليهم جميعا الصّلاة والسّلام، فإن آمنوا يضاعف لهم التواب (يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) الكفل الأول بسبب إيمانكم بموسى وعيسى والكفل الثاني بسبب إيمانكم بمحمّد عليهم الصّلاة والسّلام، وكذلك يدل معنى الكفلين من بين ما يدل عليه هو فوزكم في الدارين حيث طاعة الله واتباع الرّسُل دون تفريق بينهم في الحياة الدنيا ثم الفوز بالجنّة في الدار الآخرة.

---

[809] فصلت 35.

[810] الحديد 28، 29.

وقوله (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) نور الهداية واليقين والطاعة واتباع الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنه النور الذي يُمكن المؤمن من دخول الجنّة ليزداد المؤمن نورا على نور، وهذا النور كان بأسباب الإيمان والطاعة والمغفرة (وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) إي يغفر لكم من بيده أمر المغفرة فهو على كل شيء قدير.

وقوله: (لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) بطبيعة الحال الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء متى ما يشاء كيفما يشاء ولا أحد غيره يقدر على ذلك ولذا فهو ذو الفضل العظيم، وليعلم أهل الكتاب أن الله الذي انزل عليهم التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن على محمّد وأمته لتكون الرّسالة خاتمة وللناس كافة، وليعلموا أن في ذلك فضل عظيم فلا يضلوا ولا يشركوا بل عليهم أن يتبعوا السبيل الحقّ الذي جاء به محمّد نبيا ورسولا.

وقوله تعالى: (وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) كل مسلم بالحقّ لا يشكّ في أنّ الفضل بيد الله ولهذا يتوجّه إليه بالطاعة وطلب الرحمة وكل مؤمن على الحقّ يعلم أن الله يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء ويعلم أن الله هو ذو الفضل العظيم سبحانه لا إله إلا هو جلّ جلاله.

قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[811].

---

[811] الجمعة 1 . 4.

من فضل الله على عباده بعث محمّد عليه الصّلاة والسّلام في الأميين رسولا منهم، ومن فضله تعالى أن محمّد عليه الصّلاة والسّلام يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة نقول بحقّ أن هذا لهو الفضل العظيم فالذين كانوا في الضلال أصبحوا على الهداية مؤمنين بالله ورُسُله وكتبه، قال تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}812، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}813.

وعليه كلّ ما تقدم هو من فضل الله على عباده الذين أخصهم بالعناية والهداية (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

ولأنّه ذو الفضل؛ فهو يسأل بفضله فيجيب، وهو يؤتي فضله لمن يشاء كيفما يشاء كما أتاه لنبيه الكريم اليسع عليه الصّلاة السّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}814.

الْيَسَعَ نبي معظّم:

قال أبو إسحاق- أوحى الله تعالى إلى اليسع عليه السّلام وأيّده بما أيّد به عبده إلياس؛ فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظّمونه

812 البقرة 2.

813 النساء 136.

814 الأنعام 86.

وينتهون إلى أمره، وحكم الله تعالى قائم فيهم إلى أن فارقهم اليسع عليه السّلام815.

كان بنو إسرائيل في زمنه إِذْ قَاتَلُوا أَحَدًا مِنَ الْأَعْدَاءِ يَكُونُ مَعَهُمْ تَابُوتُ الْمِيثَاقِ الَّذِي كَانَ فِي قُبَّةِ الزَّمَانِ. وذلك تبرّكا به لما جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ السّكِّينَةِ وَالْبَقِيَّةِ ممّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ816.

فَلَمَّا انْقَطَعَ إِلْيَاسُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعَثَ اللَّهُ الْيَسَعَ، فَكَانَ فِيهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ قَبَضَهُ اللَّهُ وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ وَعِنْدَهُمُ التَّابُوتُ يَتَوَارَثُونَهُ، فِيهِ السَّكِينَةُ وَبَقِيَّةٌ ممّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَكَانُوا لَا يَلْقَاهُمْ عَدُوٌّ فَيُقَدِّمُونَ التَّابُوتَ إِلَّا هَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ، وَكَانَتِ السَّكِينَةُ شِبْهَ رَأْسِ هِرٍّ، فَإِذَا صَرَخَتْ فِي التَّابُوتِ بِصُرَاخِ هِرٍّ أَيْقَنُوا بِالنَّصْرِ وَجَاءَهُمُ الْفَتْحُ.

ثُمَّ خَلَّفَ فِيهَا مَلِكٌ يُقَالُ لَهُ إِيلَافُ، وَكَانَ اللَّهُ يَمْنَعُهُمْ وَيَحْمِيهِمْ، فَلَمَّا عَظُمَتْ أَحْدَاثُهُمْ نَزَلَ بِهِمْ عَدُوٌّ فَخَرَجُوا إِلَيْهِ وَأَخْرَجُوا التَّابُوتَ، فَاقْتَتَلُوا فَغَلَبَهُمْ عَدُوُّهُمْ عَلَى التَّابُوتِ وَأَخَذَهُ مِنْهُمْ وَانْهَزَمُوا، فَلَمَّا عَلِمَ مَلِكُهُمْ أَنَّ التَّابُوتَ أُخِذَ مَاتَ كَمَدًا، وَدَخَلَ الْعَدُوُّ أَرْضَهُمْ وَنَهَبَ وَسَبَى، وَعَادَ، فَمَكَثُوا عَلَى اضْطِرَابٍ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاخْتِلَافٍ، وَكَانُوا يَتَمَادَوْنَ أَحْيَانًا فِي غَيِّهِمْ فَيُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ، فَإِذَا رَاجَعُوا التَّوْبَةَ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُمْ شَرَّ عَدُوِّهِمْ، فَكَانَ هَذَا حَالَهُمْ مِنْ

815 نهاية الأرب في فنون الأدب، 14، ص 28.

816 قصص الأنبياء، 2، ص 252.

لَدُنْ تَوَفِّي يُوشَعَ بْنِ نُونٍ إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ أَشْمُوِيلَ وَمَلِكَهُمْ طَالُوتَ، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ التَّابُوتَ817.

وعليه؛ فإنّ لليسع فضل على بني إسرائيل بما فضله به أحكم الحاكمين وهو النبوّة؛ ولأنّه نبيا من الأخيار كان الخير فيه رحمة، ولهذا كان الخير في اليسع بحكم الله أحكم الحاكمين آية. فذلك هو حكم الله؛ ولذا فالمؤمن الحقّ يولي أمره إلى الله وهو متيقّن أنَّ حكمه فيه عدل؛ فلا اعتراض لحكمه ولا احتجاج بل تأييد وقبول والتزام كما هو حال اختيار اليسع نبيا عليه الصّلاة والسّلام، وكذلك كما هو حال نوح عليه السّلام لما نادى ربّه ليحكم في ابنه الذي كان يعتقد أنّه من أهله إلى أن حكم أحكم الحاكمين فيه، قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ ربّهُ فَقَالَ ربّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}818.

وهنا؛ فأحكم الحاكمين هو الذي في حكمه الخير للمتحاكمين فهو لا يظلم أحدا من خلقه فالذين لم يؤمنوا بما أُرسل به الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم والذين آمنوا بما أُنزل على الرّسُل هم أمام حكم أحكم الحاكمين متساوون؛ فالله سيحكم فيهم وهو خير الحاكمين، قال تعالى: {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}819.

ولأنّه أحكم الحاكمين وحكمه خير كان حكمه أنّ اليسع من الأخيار الكرام {وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ

---

817 الكامل في التاريخ، 1، ص 186.

818 هود 45.

819 الأعراف 87.

الْأَخْيَارِ}820 وهكذا كان حكمه لرسول الله محمّد أن يتبع ما يوحى إليه ويصبر حيث ما أحي إليه هو الحقّ الذي هم فيه مختلفون؛ فكان اتباع النبي محمّد عليه الصّلاة والسّلام للوحي وصبره حقّ حتى حكم الله بينه وبينهم أنّه خير الحاكمين، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}821.

ولأنّ الدين من عند الله والحكم به من الله تعالى فكيف يقبل بالتكذيب به وهو أحكم الحاكمين سبحانه، قال تعالى: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}822.

ولذا كلّما قيل: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

ليس لك بدّا إلا أن تقول بلا إنَّه أحكم الحاكمين.

ولأنّ الله هو أحكم الحاكمين؛ فهو يرى ما لا يرى المخلوق في أمره وأمر من حوله، فعندما بعث محمّد عليه الصّلاة والسّلام رسولا مصِّدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ليحكم بينهم بما أنزل الله وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنبيه محمّد أن لا يتَّبع أهواء المختلفين في أمرهم وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم الذي لا انحياز فيه إلا للحقّ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

820 ص 48.

821 يونس 109.

822 التين 7، 8.

وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}823.

ولأنّه أحكم الحاكمين وحكمه الحقّ بالمطلق فالحكم بما أنزل يعد اتباع وطاعة لأمره ونهيه ولذا فعلى الذين يلتزمون بما أنزل في أحكامهم بين النّاس هم من المستخلفين في الأرض بالحقّ فمن تبعهم كان منهم ومن ضل عمَّا يحكمون به وهو الحقّ فلعلى ذلك لازدياد ذنوبهم وفسقهم، قال تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ}824.

أمَّا الذين يحيدون عمَّا أنزله خير المنزلين في كتابه الحكيم فهؤلاء هم الذين على أحكام الجاهلية منتهجون أي هم الذين لا يريدون الإصلاح في الأرض وأعمارها بل هم للإفساد متخذون بظلمهم وإنكارهم للحكم الحقّ الذي فيه النّاس يتساوون أمام أمر أحكم الحاكمين جلّ جلاله، قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}825.

أحكم الحاكمين هو الذي يحكم بالحقّ ولذا فمن يحكم بالحقّ يكون من الذين استمد صفاته من صفات أحكم الحاكمين، قال تعالى: {قَالَ ربّ احْكُمْ بِالحقّ وَربّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}826.

---

[823] المائدة 48.

[824] المائدة 49.

[825] المائدة 50.

[826] الأنبياء 112.

أحكم الحاكمين هو الذي لا تأخذه العاطفة التي تجعله يميل عن الحقّ وإحقّاقه فهو الذي يحكم شدة على أصحابها أو شدة على الشدة الظالمة فيكسرها ويفك الشدة عن المظلومين، فالذين قالوا وهم يظنون أنهم قتلوا المسيح عيسى عليه الصّلاة والسّلام حكمهم فيه باطل فهو لم يُقتل ولم يُصلب بل رفعه أحكم الحاكمين إليه عدلا وحقّا، فالذين اتبعوه بالإيمان هم الذين حكم لهم أحكم الحاكمين بجعلهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}827.

وعليه فالذين لا خير فيهم هم السمَّاعون للكذب والآكلون للسحت فهؤلاء حكم أحكم الحاكمين فيهم بيّن فلا خوف أن تصدر ضدهم الإدانات الصريحة ولهم في الآخرة عذاب شديد، ولهذا أمر الله رسوله محمّد عليه الصّلاة والسّلام أن يحكم بينهم بالعدل وهو التأكيد على الحقّ الظاهر في التوراة بالنسبة لليهود والذين أمنوا منهم هم الذين يحكمون بالحقّ فإن أُخذ بحكمهم فحكمهم الذي هو من التوراة حقّ، قال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ

827 آل عمران 55 . 57.

يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرّبانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النّاس وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}828.

إذا من يحكم بحكم أحكم الحاكمين لا يمكن أن يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ومن لا يحكم بما أمر احكم الحاكمين فأولئك من الكافرين، ولذا قد جاء في التوراة كما نزل في الكتاب الحكيم الحكم العدل الذي منه:

ـ النفس بالنفس.

ـ العين بالعين.

ـ الأنف بالأنف.

ـ والأذن بالأذن.

ـ والسن بالسن.

ـ الجروح قصاص.

828 المائدة 42 ـ 45.

وعليه فمن لا يحكم بما أمر أحكم الحاكمين جلّ جلاله فهو من الظالمين مصداقا لقوله تعالى: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

ولأنّه أحكم الحاكمين فحكمه واحد (الحقّ) ولذا فما أنزله في التوراة هو الحقّ وكذلك ما أنزله في الإنجيل هو الحقّ وما أنزله في القرآن هو الحقّ، ولذا الله أحكم الحاكمين واحد وعدله الحقّ واحد سبحانه أنه أحكم الحاكمين، ومن لا يحكم بما أنزل الله في التوراة والإنجيل والقرآن هم الفاسقون، ولهذا أنزل الكتاب مصدّقا لما جاء في التوراة والإنجيل، قال تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحقّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحقّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاس لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[829].

ولأنّه أحكم الحاكمين جاء عدله مبدأ باعتباره الأول بذاته، وغاية باعتباره الآخر بذاته، ومصدرا باعتباره الأوّل والآخر، ولذا فالعدل أسم فعل في ذاته واسم صفة حسنة في ذاته وهو من حيث اللغة مصدر يشتق منه اسم الفاعل "العادل" وغيره من المشتقات،

---

[829] المائدة 47 . 50.

والعادل المطلق هو الله أحكم الحاكمين جلّ جلاله، ومن يتبع هذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حقّ، ولهذا تكون الإضافة إلى العدل الذي هو فعل من أفعال العدل المطلق وصفة كاملة له، به يتصف بالكمال والجمال، ولهذا فخلفاءه في الأرض هم المضافون إلى العدل الذي هو من عنده عزّ وجلّ.

ولأنّ العدل هو المرتكز للحكم جاء العدل اسم صفة حسنة من صفاته تعالى، وهو أصل العدل ومصدره الذي تستمد منه أفعال العدل فلو لم يكن العدل أصل لكل عدل ما كان العادلين من بعده مستخلفين فيها باستمدادهم صفاتهم من العدل أحكم الحاكمين.

والمضاف إلى العدل هو الخليفة: ولأنّ العدل صفة حسنة فلا يتصف به إلا عادلا مُحسنا، والعادل المحسن هو الخليفة الذي أخذ بصفات العدل التي تُرضي الله أحكم الحاكمين؛ قال تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}830. فالخليفة هنا هو المضاف في قوله ذوي عدل منكم، والعدل بصيغة المصدر صفة من أسماء الله الحسنى، ولأنه جلّ وعلا القادر على تحقّيق العدل المطلق في كافة الأماكن والأزمنة في آن واحد فلا تحدُّه حدود ولا تقيده قيود فقدرته مطلقة وعدله يحيط بملكه وملكوته، لذا فقد احتفظ لذاته باسم أحكم الحاكمين (العدل) مصدرا لا اشتقاقا، ولأنه أحكم الحاكمين فهو مصدر لا يظلم ولا يجور حيث لا تناقض فالعدل المطلق ليس

830 الطلاق، 2، 3.

عنده ظلم، وحتى يُبَسِّط لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظا تدل على العدل وتهدي إليه منها:

ـ الصراط المستقيم.

ـ القسط.

ـ الميزان.

ـ مثقال ذرة.

وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبيّنها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقّق الخلافة ولمن أراد أن يكون من الخلفاء لهذا الاسم.

إذن أحكم الحاكمين في ملكه هو الله عزّ وجلّ وهو العدل المطلق، والعادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل جلّ جلاله.

ولذا فالخليفة في الأرض هو من اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه كما اندمج داوود عليه الصّلاة والسّلام حاقا للحقّ ودامغا للباطل وعادلا بين النّاس في حكمه في قومه، ولنأخذ قصة داوود في العدل الذي جعله أحكم الحاكمين خليفة في الأرض وليحكم بين المتخاصمين نأخذ قصته وعدله مثالا للتحليل القصصي لإظهار مكامن القوّة التي يمكن أن يتخذها الخليفة في أحكامه عدلا.

وعليه فمن العدل:

أ ـ الحث عليه.

ب ـ العمل به في كل مكان وفي كل زمان.

ولأنّ العدل هو عدل أحكم الحاكمين فهو عدل واحد لا عدلان، ولذا فالعدل هو اسم صفة لأحكم الحاكمين لا يقتصر على مجال من مجالات الحياة بل يمتد ليشمُل التعامل الحسن في كل المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والثقافية والذوقية التي امتد التعامل بها في زمن داوود عليه الصّلاة والسّلام كما جاء في قوله تعالى: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالْحَقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[831].

الخطاب موجه إلى سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام لأجل أن يصبر على ما يقوله الكفرة والمشركين والضالين من أقاويل وصفوه فيها بالجنون، كما وصفوا غيره من الأنبياء من قبله، وداوود ليس ببعيد الذي صبر على ما قاله قومه فيه من أقاويل وافتراءات ظلما

---

[831] ص، 17 . 26.

وبهتانا، داوود ذي الأيد التي صنعت خير ما صنعت من لبوس حربٌ أوقت وحفظت المقاتلين في سبيل الله من ضربّات الكفرة والمشركين في زمانه وسلّم من ارتداها في سبيل الله مقاتلا ومجاهدا.

فقوله: (ذَا الْأَيْدِ) على احتمالات منها:

. ذا القوّة في البطش الشديد.

. ذا القوّة في العبادة طاعة لله تعالى.

. ذا القوّة في صناعة لبوس الحربّ.

ومع ما يمتلكه من قوّة وشدة فهو يعلم أن قوته من أحكم الحاكمين فيزداد قوّة في تعبده تعالى ولهذا وصف بأنه (أَوَّابٌ) أي كثير الطاعة والتعبد مستغفر الله في كل شيء حتى ولو كان مجرد ظن مصداقا لقوله تعالى: (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآبٍ).

ولأنّ داوود من الأنبياء المقربّين والمفضلين عليهم الصّلاة والسّلام سخَّر الله معه الجبال والطير تناصره بالدعاء والتسبيح الذي فيه الاستجابة من ذكر الله أحكم الحاكمين وله أن يستخدمها كيفما يشاء وهي طائعة له في سبيل إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ودمغه عدلا في الأرض، (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ).

ولأنّ مُلكه مؤسسا على العدل زاده الله قوّة مصداقا لقوله تعالى: (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) أي جعلناه ملكا متماسكا على القوّة وإحقّاق الحقّ عدلا بين النّاس، وقوله (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) آتى أحكم الحاكمين داوود الحكمة التي تؤدّي إلى حُسن

الفهم وحُسن التفهُّم ومُقدِرة للمعرفة استنباطا واستقراء واستنتاجا، إنها الحكمة التي بها تمكَّن داوود من الاختيار وحُسن التصرف في المواقف المختلفة والظروف مهما صعبت وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، أمَّا حُسن الخطاب فهو حُسن الفصل في القضايا والشكّاوى التي تُعرض عليه ليفصل فيها ويحكم بالعدل حيث اتصافه به عادلا، وفصل الخطاب مؤسس على معطيات منها:

. الاستماع (للمشتكي) تأسيسا لفصل الخطاب.

. الاستماع (للمشتكى فيه) تأسيسا لفصل الخطاب.

. دعوة الشهود من كلا الطرفين والاستماع لأقوالهم تأسيسا لفصل الخطاب.

. استشارة الآخرين بعد أن يستمعوا لكل طرف من أطراف القضية أو يطلعوا على حيثياتها المدونة.

. الاعتصام بالله تجنبا لأهواء النفس التي تميل في بعضٍ من الأمر.

. إنصاف المتخاصمين.

. إصدار الحكم (فصل الخطاب) بعد التبيُّن دون غفلة.

. أخذ الحقّ من الظالم وإعطاءه لمن أُخِذَ منه.

وقوله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ) أي هل بلغك الخبر المنبأ به الذي تضمَّن قصة الخصم الذين تسوَّروا المحراب أي دخلوا دون استئذان ودون علم مسبق بهم، وبطبيعة الحال من يدخل مُتسوِّرٍ ولم يدخل من الباب أمره يخيف ولهذا

تُوجِبُ الحيطة والحذر كما فعل داوود حيطة وحذرا تخوفا ممّا سيحدث وقد لا يحمد عقاباه ولهذا قال المتسوِّرون (تَسَوَّرُوا) جاءت على صيغة الجمع ولم تأت على صيغة المثنى ولهذا اعتمدنا في تحليلنا هذه الصيغة كما نزلت في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبدا، وحتى لا يتصرف داوود تصرفا بأسباب الحيطة وأخذ الحذر (قَالُوا لَا تَخَفْ) وهنا يأتي تأكيد الجمع بقوله: (قَالُوا) ولكن ماذا قالوا؟

قالوا : (قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) لسان حال الجمع قال: (لَا تَخَفْ) أي وكأن حال لسانهم يقول نحن غير معتدين ولا مفسدين ولا نريد أن نعتدي عليك بل نحن لثقتنا في عدلك جئنا لنَحتكِمَ إليك فأحكم بيننا بالعدل. قالوا: (خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) يُفهم من هذه الآية الكريمة الخصمان تعني: طرفان، ولا تعني اثنان، مصداقا لقوله (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ) فلو كان اثنان لقال بغى أحدنا على الآخر ولم يقل بعضنا على بعض، ولذلك فالبعض من البعض دائما جمعي وليس بمفرد، ولذا فالخصمان يجوز أن يكونا بنو قبيلة وبنو قبيلة أخرى، أو أسرة وأسرة أخرى أو جماعة وجماعة أخرى أو قوم وقوم آخرون، ولهذا لا يمكن أن يكون تبعيض البعض من البعض إلا جمعا.

ولأنّهم متخاصمون قالوا (بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ) أي اعتدى بعضنا على البعض، ولأن الاعتداء ليس بحقّ قالوا: (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ) يُفهم من هذه الآية الكريمة ميزة عظيمة ألا وهي: قبول الخصمين (الطرفين) الحكم بالحقّ، وهذا يدل على أن المتخاصمين من العباد المهتدين ولهذا فهم اهتدوا إلى داوود لثقتهم أنه يحكم بالعدل من جهة ولكرههم للظلم وحبهم لإظهار الحقّ من جهة أخرى.

وقوله تعالى: (وَلَا تُشْطِطْ) تأخذ احتمالات منها:

أ . لا ترفض طلبنا إليك واختيارنا لك حكما حتى وإن انزعجت من طريقة دخولنا عليك بأسباب الاختلاف التي يجوز هي التي أظهرتهم عن التأني والدخول من الباب كما هو المعتاد، واستعجلت بهم لتسوُّر المحراب سرعة واستعجالا كي لا يسبق أحدهما الآخر فيكون هو الطرف الوحيد المشتكي، ولذا فتسوُّرَ المحراب الذي يدل على العجلة جعلهما يدخلان على داوود في وقت واحد ممّا جعلهما (الطرفان المتخاصمان) يشتكيان معا في ذات الوقت الواحد.

ب . قبلناك حكما عادلا فلا تميل لأحدٍ على حساب الآخر.

ج . لا نبغي منك ظلما لأحدٍ منّا.

هـ . نريد منك إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل.

و . نريدك أنْ تهدينا الطريق المستقيم البيّن الذي لا يلاحقّه بعد حكمك بيننا شكّا ولا ظنا، (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) إلى العدل ولا تخالف بنا سواء الصراط.

وصلب القضية التي بشأنها تسوَّروا الخصمان المحراب استعجالا هو قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) كلمة أخي لا تقتصر على الأخ من الأب والأم بل عند العربّ تعني ممّا تعني:

. أخي في الدّم: من قرابة وعمومة يعود كلا من المتخاصمين إليها وفقا لما يؤل الآل إليه.

. أخي في النّسب: من قرابة الأهل مصاهرة فهي المكونة للعلاقات الاجتماعيّة والإنسانية.

. أخي في الدّين: الذين يدينون بما هداهم داوود إليه وهو الإسلام.

. وقد تتجاوز كلمة أخي إلى كلّ من يستوجب الاعتراف به وتقديره تقديرا عاليا.

.كلمة أخي تدل على من لا يكون عدوا.

وبناء على ما تقدم فإن كلمة أخي كما جاء ورودها في الآية الكريمة السابقة دالة على أنه لم يكن العدوي لي (أخي) أينما صُنِّفت أو اندرجت تحت النقاط السابقة الذكر.

وقوله تعالى: (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) مجموع النعاج مائة نعجة يملك البعض تسع وتسعون نعجة ويملك واحدا منهم نعجة واحدة، ونحن نقول نعاج ونعجة ولا نقول غير ذلك حيث لا يحقّ لنا التأويل فيما جاء نصا صريحا في القرآن الكريم، ولا نرى أن تحُمَّل المعاني اللغوية ما لم تُحمَّل. وقوله تعالى: (فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) أي لا تخف على نعجتك أتركها مع نعاجي ترعى وكن مطمئنا عليها حفظا والرعايةً.

وقوله تعالى: (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) السؤال مطلب يستوجب إجابة، والسؤال لا يتضمن الأخذ بغير حقّ، ولكن يدل على الأخذ بالحقّ، كأن تقول لمن يمتلك نعجة واحدة أتتركها مع غنمي اشتريها منك أي أتبيعها بعد أن عاشرت نعاجي الكثيرة وأنت لا تمتلك غيرها ألا يكون من الأفضل أن تتركها لي ترعى على حسابي اشتريها؟ يجوز هذا السؤال أن يترتب

عليه انزعاج من صاحب النعجة باعتباره لا يقبل ذلك وهو بين أمرين:

. أمر الفضل الذي به قبل صاحب النعاج أن تُترك النعجة ترعى دون مقابل مع نعاجه حُرة لمالكها.

. أمر السؤال الذي يلغي عودتها إلى صاحبها الأوّل إن قَبِل، ونحن نقول: إن قَبِلَ لأن المتخاصمين وفقا لما تقدم لا يطالبون إلا بالحقّ، وفي اعتقادنا تطوير هذا الأمر على مستوى القضية هو لأجل إظهار الحقّ وإن صغر، ولأجل عدم التسرع بإصدار الحكم قبل التبيُّن ولأجل أن يكون الحكم الحقّ قاعدة بين النّاس المستخلفين في الأرض وهو ما أقره أحكم الحاكمين جلّ جلاله.

ومع أنّ داوود كان محقّا في حكمه وفقا لِما سمعه من (صاحب النعجة) إلا أنّ اكتمال القضية لا يكون إلا بالاستماع للطرف المشتكى فيه، ولهذا جاء استغفار داوود مسرعا كما جاء حكمه السابق مسرعا، ونظر لحُسن النية وصفائها عند داوود وصدقه في إحقّاق الحقّ وحكمه بالعدل غفر الله له وقربّه منه مقامات عظام وجعله خليفة في الأرض ليحكم بين النّاس بالعدل، (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}832.

[832] ص، 17 . 26.

وعليه أقول العدل واحد لا يتعدد وإن تعددت مجالاته القيمية في الحياة التي منها:

مجال العدل الاجتماعي:

هذا المجال العدلي هو الذي جعل لداوود مكانة بين بني قومه الذين آمنوا به رسولا ونبيا كريما يقول الحقّ ويعمل على إحقّاقه ويتجنب الظلم ويتقي شره يخاف الله ويطيعه ويستغفره حتى ولو كان ظانا في أمر من الأمور التي يقدِمَ عليها مصداقا لقوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[833] ولذا فإن مجال العدل الاجتماعي مجال بنائي يكوّن الشخصية الاجتماعية المتفاعلة والمتعاونة كلما تم تشربّ هذه القيم بإرادة ومعرفة واعية، وإذا لم يتم ذلك بإرادة فإن السلوك المناقض للبناء قد يكون هو سلوك الصدارة، ولهذا فإن التفاعل الموجب يحقّ الحقّ والعدل ويقوي عاطفة الانتماء الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ويجعل الضمير (نحن) هو السائد بينهم بدلا للضمير (أنا) الذي في كثير من الأحيان يؤدّي إلى الصدام والفرقة والاختلاف الذي يستوجب الآتي:

. عدل.

. عادل.

. شرعة ومنهاجا.

---

[833] ص 24 . 26.

وعليه فالنظر في القضايا الاجتماعية التي تستوجب عدلا وعادلا وشِرعة ومنهاجا تتطلب الآتي:

. علائق قيمية طبيعية تستوجب العدل: كالعلاقة الأسرية والعلاقة العائلية والعلاقة القبلية وعلاقة الأمة التي تكوّن الذات العامة المشتركة للأفراد والجماعات، وتغرس في نفوسهم عاطفة الحب وروح الانتماء.

. علائق قيمية ضرورية تستوجب العدل: كالعلائق بين رفاق العمل، ورفاق الحرف والمهن، ورفاق التعليم والتعلم، وهذه العلائق قد تكون بين بني الأمة أو مع الآخرين، فعندما تكون بين أبناء الأمة أو الوطن تحتويها عاطفة الأصل والانتماء، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المهنة وعاطفتها المؤقتة.

. علائق قيمية اختيارية تستوجب العدل: كالعلاقة مع رفاق الانشطة الرياضية والفنية والمسرحية والموسيقية والثقافية، أو رفاق الحفلات والرحلات السياحية. أيضا عندما تكون هذه العلائق الاختيارية بين أفراد الأمة وجماعاتها فإن عاطفة الأصل والانتماء هي التي تسودها، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة الأنشطة المتنوعة وعاطفتها المؤقتة.

مجال العدل الإنتاجي:

الإنتاج سواء أكان إنتاجا ماديا (إنتاج السوق) الذي تترتب عليه قيم البيع والشراء، وارتفاع مستوى الدخل أو انخفاضه، أم أكان إنتاجا معرفيا (إنتاج المعلومة والفكرة) التي تثري ما سبق، وتدعم ما في الآن، وتسعى لصناعة المستقبل. ولذا فإن التقنية (مولود الفكرة) تتطور وتتنوع وتتجدد مع كل جديد، ففي زمن داوود عليه الصّلاة

والسّلام كانت التقنية قيمة عالية في تفادي ضربّات المقاتلين وحافظة للذين يقاتلون في سبيل الله كما فعل داوود بالعلم الذي علّمه له الله تعالى وهو العلم الذي لم يؤت منه الإنسان إلا قليلا، وإلا هل يظن البعض أن ما وصل إليه العقل الإنساني هو أعلى مرتبة علمية من الذي آتاه الله تعالى من آيات لداوود عليه الصّلاة والسّلام؟، قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}834.

في خماسي تحليل القيم الذي قدمناه إضافة جديدة للقراء والذي سجلت براءته الفكرية باسمنا835، يعتبر هذا المجال العلائقي مجالا لتحقّيق المنفعة القابلة للقياس بالإنتاج الذي يتطلب إدارة ملاحقّة (تلاحقّ المنتجين لتمدهم بالخدمة التي تمكنهم من زيادة الإنتاج)، وإدارة تتفهم ظروفهم ومتطلباتهم كما تتفهم احتياجات المستهلكين، ولذا فالحكم في هذا المجال القيمي يتطلب مستشارين متخصصين في المهن والحرف والقياس الكمي الذي به يُحسن إصدار الأحكام العادلة.

إنّ مبدأ المنفعة جعل الإنسان في حالة منافسة مع الآلة بدلا من منافسته للآخر من بني جنسه، ولذا أصبحت الآلة تحل محل الإنسان غير القادر على المنافسة في العملية الإنتاجية، فإذا كان الجهد المبذول يقل قيميا عن العائد منه لابد وأن تكون الخسارة هي المبعدة عن ميادين المنافسة الحرة.

---

834 الأنبياء 80.

835 عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، 135، ص 2003.

ولذا فإنّ تحليل مجال العلائق القيمية الإنتاجية يمكّن العادلين في أحكامهم من التعرف على حالات المنتجين بحقّ من حيث الجهد، الإنتاج، والإشباع والمنفعة، وفقا للآتي:

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج يؤدّي للإشباع ويحقّق منفعة.

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج ولا يؤدّي للإشباع لا يحقّق منفعة.

. جهد يؤدّي إلى الإنتاج، يؤدّي إلى الزائد عن الإشباع، يحقّق الفائض عن المنفعة.

. جهد لا يؤدّي إلى الإنتاج لا يؤدّي للإشباع ولا يحقّق منفعة.

. لا جهد يؤدّي إلى الإنتاج لا إشباع ولا منفعة.

وعليه فمن العدل أن يكون الإنتاج العام ملكا عاما، وتوزيعه حقّ عام وفقا للحاجة والجهد المبذول، ووفقا لحقّوق القُصَّرُ على من لهم حقّ عليهم، مع مراعاة الحقّوق العامة والخاصة والواجبات والمسؤوليات على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي.

مجال العدل السياسي:

مكانة داوود عليه الصّلاة والسّلام التي استمدها ممّا آتاه الله من حُكم ومُلك وحكمة وعلم جعلته بين النّاس الذين آمنوا به رسولا ونبيا كريما محقّا للحقّ وزاهق للباطل، وجعلته ملجأ لهم في كل أمر يحتكمون إليه ونفوسهم مطمئنة، ولذلك في المجال العدل السياسي تكمن عناصر القوّة الداعمة للإرادة والقامعة لها في وقتٍ واحدٍ، وهذا ما يجعل السلوك البشري في حالة تماثل مع الفعل أو في حالة تناقض معه، ممّا يؤدّي إلى التفاعل والمشاركة والوحدة، أو

يؤدّي إلى الرفض والتمرد والصدام، أو أن يؤدّي إلى الخنوع والإذعان والنفاق السياسي، ولذا ففي كل الحالات الأمر يستوجب عدلا وعادلا وشِرعة ومنهاجا لأجل إحقّاق الحقّ بين النّاس ولا يُظلم أحدا وهذا الأمر هو الذي يجعل حكم أحكم الحاكمين هو السائد بين النّاس المستخلفين فيها.

ولذلك تتباين اختيارات النّاس من مجتمع لآخر ومن موضوع لآخر، فما يراه البعض مناسبا أو مفضَّلا في اختياراتهم قد لا يراه البعض الآخر كذلك أو أنهم يرون ما هو أفضل، ولذا فمن العدل أن لا يجبر الأفراد على ما لا يرغبون، وإن أجبروا فلا مفر من الصدام والخصام الذي يُفرِّق بين المرء وزوجه.

ونظرا لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات فإنه بالضرورة أن يكون لكل فرد من الرغبات التي من العدل أن تُحترم ويقدَّر أصحابها، ولا يفرض عليهم مالا يرغبون أو ما لا يفضِّلون، ومن العدل أن تراعى قدرات الأفراد وميولهم وحاجاتهم المتنوعة والمتطورة.

ولأنّ هذا المجال على صلة بالقرار وأساليب اختياره، وبالتنفيذ وطرق اعتماده فإنه بلا شكّ ذو صلة بالإرادة التي تتميز من خلالها كل شخصية وكل جماعة ومجتمع ممّا يستوجب التعرُّف على القيم الأخلاقية التي يمكن الاستئناس إليها ومراعاتها قبل استصدار الأحكام لكي يكون العدل قيمة بين النّاس في كل ما يختلفون فيه مع مراعاة الآتي:

. روابط اجتماعية طبيعية، تؤدّي إلى مجتمع الذاتية، تحقّق الشخصية العاطفية.

. روابط منفعية تؤدّي إلى مجتمع الأنا تحقّق الشخصية الفردية (الشخصانية).

. روابط فكرية، تؤدّي إلى مجتمع الفكرة، تحقّق الشخصية الموضوعية (العقلية).

. روابط سياسية تؤدّي إلى مجتمع الاختراق تحقّق الشخصية الانسحابية.

. روابط إنسانية تؤدّي إلى المجتمع الإنساني تحقّق الشخصية الاقترانية (المنطقية).

مجال العدل النفسي:

رضا المتخاصمين بالعدل وعدم رغبتهم في ظلم بعضهم للآخر إحقّاقا للحقّ هو الذي دفعهم إلى داوود عليه الصّلاة والسّلام ليحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون فهو بعدله لا يحكم في شيء إلا بعد مراعاته لمجموع القيم النفسية التي تؤثر في علائق أخرى وتتأثر بها، ولذا فمن أراد أن يحكم بالعدل بين النّاس فعليه ألا يغفل عن معرفة اتجاهات الأفراد والجماعات والمجتمعات وميولهم ومعتقداتهم والقيم التي يتمسكون بها أو التي يحيدون عنها ممّا يجعلهم يتخذون مواقف وأدوارا متباينة تختلف من وقت لآخر.

وللحكم بالعدل في هذا المجال ينبغي أن يستعين العادل بمن يعرفون علم الخفايا استقراء واستنباطا وفهما وتفهُّما حتى معرفة المتفائلين من اليائسين ومعرفة المتفاعلين من المنطويين.

إنّ معرفة علم الخفايا يُمكّن الحاكم العادل من معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الأفعال المرتكبة، ولذا فهو علم معرفة الباطن

(الجوهر)، الذي يتطلب تحليل شخصية المبحوث تحليلا نفسيا غير مباشر، فالسلوك الظاهر قد لا يُعبِّر عن حقّيقة الكامن، ولذا يلتجئ المحتكم إليه أو الباحث إلى الاستعانة بذوي الخبرة في هذا المجال النفسي قبل أن يَقدِم على استصدار الحكم، لأجل معرفة الحقّيقة هي كما هي ممّا يجعل المتخصصين يلجئون إلى استخدام الأساليب الإسقاطية في دراسة بعض المواضيع المتعلقة بالشخصية دون تسرع في إصدار الحكم.

إنّ النفس البشرية تقوى وتضعف بالكلمة أو بالفعل أو بالسلوك، وتتأرجح بين الخيال الممكن والخيال غير الممكن تارة وبين المتوقّع وغير المتوقّع تارة أخرى، عندما تضعف تضطربّ، وعندما تقوى تطمئن؛ مثل هذه الشخصية معايير اختياراتها القيمية في بعض الأحيان تتمركز على الأفعال الأنانية، وفي بعض الأحيان الأخرى تتمركز على الذاتية أو الموضوعية، وفي حين آخر تتشتت الذات بين الميول إلى الأنانية أو الميول إلى الموضوعية، وهذا يعني أن مجال العلائق القيمية النفسية قد تندمج فيه مكوِّنات الشخصية ممّا يجعل عناصر الذاتية جزاء لا يتجزأ من عناصر الأنانية أو عناصر الموضوعية.

إنّ القيم التي يحتويها مجال العلائق النفسية تنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير التي يتمركز عليها التفكير الإنساني، حيث الكل يسعون إلى نيل الاعتراف والتقدير وعلى جميع المستويات، مستوى الحاكم ومستوى المشارك ومستوى المحكوم، ومستوى الحر ومستوى العبد، فالعبد كغيره من البشر يبحث عن قيمة الاعتراف والتقدير، فيجدَّ في عمله وطاعته لسيده لأجل أن يعترف له سيده بأنه مخلصا ممّا يزيده إخلاصا في الطاعة لينال التقدير على ما يقدمه من طاعة

وإخلاص، والابن الذي يطيع والديه في غير معصية الله أحكم الحاكمين يريد أن ينال منهما الاعتراف والتقدير لكي يستمر في هذه الطاعة، وهكذا الحاكم العدل يسعي إلى أن ينال الاعتراف والتقدير ممن اختاروه حكما بينهم وأن يكون في طاعة الله أحكم الحاكمين.

وعليه العادل في حكمه بين النّاس هو من لا يغفل عن معرفة السلوك البشري بما يحقّق لهم وله الرضا والتقدير والعرفان وفقا لما يأتي:

. سلوك يعترف بالحاجة ويقدّرها، يحقّق الرضاء ويؤدّي إلى إثبات الذات.

. سلوك لا يعترف بالحاجة ولا يقدّرها، يحقّق الاضطراب ويؤدّي إلى الانسحابية.

. سلوك يعترف بالزائد عن الحاجة ويقدِّره، يحقّق الرضا ويوصف بالعقلية.

. سلوك لا يتدخل فيما لا يعنيه، يحقّق الرضا ويوصف بالمنطقية.

. سلوك لا يُفعل إلا لمصلحة، يحقّق الرضا ويوصف بالشخصانية.

وعليه فالعدل: هو المحقّق للاتزان النفسي والوجداني والبدني وذلك بمراعاة ما يجب والأخذ به ومراعاة ما لا يجب والابتعاد عنه، وذلك لأن كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، وفي المجال النفسي تطمئن النفس برجوعها إلى احكم الحاكمين العادل المطلق

مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى ربّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}836، ورضا النفس لا يتحقّق إلا بالعدل، ولذلك فمن يظلم العباد يشقى في الدارين، ومن يعدل بما يحقّق له الاتزان النفسي والبدني يتحقّق له الرضا بعمله الصالح في الأرض ويفوز بالجنّة، ولذا فإن العادل المطلق يخاطب النفس المطمئنة مباشرة بقوله (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ) ثم يأمرها بالرجوع إلى بارئها جلّ جلاله فتطيعه عدلا، وقوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}837.

تسوية النفس اعتدالها، وسوَّاها عدلها، وبعدله لها اطمأنت، وبالاطمئنان ألهمها الله فجورها وتقواها، حتى أنها تبيَّنت أمرها ورشدت بمعرفة ما يجب فتزكت وعرفت ما لا يجب فانتهت عنه، وبهذا فهي النفس العادلة التي تحيد عن الشيء وتبتعد عنه اتباعا لأمر العادل المطلق وهداية بما جاء به عزّ وجلّ، لأجل أن تأخذ بما أمر أحكم الحاكمين كما أخذ داوود عليه الصّلاة والسّلام.

مجال العدل الذوقي:

العدل هو أحكم الحاكمين وهو اسم صفة لله تعالى فيه صفات الجمال تتعدد مودة ومحبة وذوقا وكل الفضائل الرائعة التي يرتضيها الله مصدر قيم بين العباد، ففي عدله الحقّ وفي عدله المحبة والمودة والتقدير والاعتراف واللَّطافة والعزّة والكرامة والرحمة وكل شيء جميل يتبادر إلى الذهن، وكل هذه الصفات الحسان تجسدت في أقوال وأفعال وأعمال داوود عليه الصّلاة والسّلام أي بعد أن استمد

836 الفجر، 27 . 29.

837 الشمس، 7 . 10.

داوود صفاته من صفات خالقه أحكم الحاكمين كان على الجمال واللّطافة التي حببته إلى العباد في زمانه حتى اتخذوه مثال وحكما عادلا بينهم. قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}838، آيات عظيمة مملوءة بالجمال الرفيع في الخطاب والعطاء الكريم الذي أعطي لداوود عليه الصّلاة والسّلام.

قيم الجمال تتعدد من شخص لآخر ولذا فهي لا تقتصر على النظر إلى المشاهد فقط بل تتعداه إلى الإحساس بقيمة الجمال المجرد (الذي يكمن في الجميل)، ولهذا الذوق رفعة في الحس تؤدّي إلى سمو عقلي ومعرفي يُمكّن الإنسان من الاطلاع على الكامن والإحساس به مثل كمون النغمة في المعزوفة وكمون الصور البلاغية في المقطوعة الشعرية وكمون السيناريو في النص وكمون القصة في اللوحة الفنية وكمون النشوة في السعادة وكمون الإعجاز في آيات الخالق جلّ جلاله.

وعليه فإنّ مجال العلائق القيمية الذوقية قيمه تتمّم بعضها البعض في تفطين العقل الإنساني من الغياب إلى الحضور ومن المشاهد إلى المجرد {من النظر إلى المخلوق إلى النظر إلى الكيفية التي خلق بها وخلق عليها) مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}839. وردت

---

838 ص 17 . 20.

839 الغاشية، 17 . 21.

تساؤلات أربّع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الاستغراب ما يلفت إلى الانتباه وهي:

. لِم هؤلاء لا ينظرون إلى الكيفية التي بها خُلقت الإبل؟

. لِمَ لا ينظرون إلى الكيفية التي بها رفعت السماء؟،

. لِم لا ينظرون إلى الكيفية التي بها نصبت الجبال؟

. لِمَ لا ينظرون إلى الكيفية التي بها بُسطت الأرض؟

أي لم هؤلاء يُقصِرون نظرهم على المشاهد فقط الذي تراه أبصارهم، ولا يمدون تفكيرهم وعقولهم إلى معرفة الكيفية التي بها تمت هذه المعجزات؟ ممّا جعل الخلفاء يمدون تفكيرهم من المشاهد إلى المجرد حتى آمنوا واتقوا وأدركوا أن ورائها خالق عظيم قادر على الفعل كيف يشاء متى ما شاء سبحانه لا إله إلا هو الذي جعل داوود خليفة في الأرض ليحكم بين النّاس بالحقّ ذوقا ورفعة، قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}840.

ولذا فإنّ للذّوق أثر على السلوك والفعل حيث يجعل الإنسان في حالة بهجة وإيمان وتفاؤل وعطاء أو في حالة راحة وتعجُّب واستبصار أو في حالة تقربّ وخضوع وترويح، والذوق كمحقّق للرفعة الحسية والروحية يتطلب التذكُّر والتفكُّر والتأمُّل، وعليه لكي تحكم بالعدل عليك بعدم الإغفال عن مراعاة كل ما من شأنه أن يحقّق رفعة ذوقية تُرضي الخالق والمخلوق تعالى.

مجال العدل الثقافي:

---

[840] ص 26.

الثقافة وعي بما يجري في الظرف الآن ومعرفة تُمكِّن من استقراء المستقبل في ضوء ما جرى عبر التاريخ من قصص في الحياة البشرية والإنسانية والأخلاقية ذات الفضائل والقيم العالية، ولذا فباستقراء التاريخ لا يمكن لعاقل أو متعلم أو مثقف أن يغفل عن تجربّة داوود في ممّارسته العدل الذي به تمكّن من إحقّاق الحقّ مصداقا لقوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحقّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ ربّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفي وَحُسْنَ مَآَبٍ}841.

ولأنّ لكلّ مجتمع ثقافة وخصوصية فمن العدل أن لا يتم إطغاء ثقافة على أخرى إلا بالحقّ، ولذا فإن قيم هذا المجال العلائقي هي دائما في حالة حركة وامتداد قيمي حيث أنها تتأثر بالمزيد المعرفي الذي يثريها ويجعلها قادرة على أن تثري السلوك المصاحب لها في كل ظرف، ولهذا فأنْ تفاعل الإنسان مع القيم الثقافية تجعله في حالة تميّز كلما تمكّن معرفةِ وسلوكا، ومع أنّ الإلمام بالقيم الثقافية يفتح آفاق واسعة أمام امتداد التفكير الإنساني إلا أنّه قد يشكّل عائقا أمام سرعة الامتداد غير الواعية التي كانت قبل المزيد المعرفي، وذلك لأنّ المزيد المعرفي يؤدّي إلى الإحجام عن السلوكيات غير الموضوعية (التي كانت تُفعل على حساب الآخرين)، فبالثقافة

---

[841] ص 21 . 25.

العادلة تفك القيود وبها توضع قيودا (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)، والإلمام بمجال قيم العدل الثقافية يؤدّي إلى حُسن الفعل ورفعة السلوك واستيعاب الآخر بإرادة كما هو لا كما ينبغي أن يكون علية.

مجال العدل الثقافي مجال امتدادي تمتد فيه القدرات والملكات العقلية الإنسانية من حالة السكون إلى حالة الحركة الواعية التي تُمكِّن الإنسان من التمييز والتفضيل وتُمكِّنه من الممّارسة السلوكية عندما تتطابق المفاهيم مع الأفعال المرغوبة التي تؤدّي إلى ظهور الأنموذج وتبرز الاتجاهات المعرفية والأفكار الخاصّة والعامّة (المنغلقة والمنفتحة)، فتبرز الشخصية على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الإنساني.

بناء على ما تقدّم فإنّ العدل المطلق هو لله أحكم الحاكمين، أمّا العادل النسبي فهو الخليفة الحاكم بما انزل أحكم الحاكمين في كتابه العزيز، والسبب أن العدل المطلق لا يتحقّق على يد بشر، فهو صفة إلهية لا تقارن بقول عادل ولا فعل عادل ولا سلوك عادل، فالعادل هو الفاعل بما يرى ويسمع، ولأنّه كذلك فهو لا يمكن أن يرى أو يستمع بالمطلق، ولهذا كانت النسبية متلازمة في جميع أحكامه وأفعاله وأقواله وسلوكياته، والملك لله وحده والعدل لله وحده، والصفات الحسنى بالمطلق لله وحده وبالنسبية للعادل المستخلف في الأرض. ولأنه أحكم الحاكمين خلق الذكر والأنثى عدلا {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}842. وقوله تعالى: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى}843. ولأنّه أحكم

[842] الذاريات، 49.

[843] النجم 45.

الحاكمين جعل الحقّ في مواجهة الباطل حتى يدمغه فيزهق، ولأنّه أحكم الحاكمين خلق الليل والنهار والأشجار والثمار والجنّة والنّار، والرحمة والاستغفار، ولأنه أحكم الحاكمين جعلنا مستخلفين في الأرض ولأنه أحكم الحاكمين يعلم الغيب بعدله فهو العالم بالغيب وما تخفي الصدور، وهو على كل شيء قدير وهو الذي يعلم بالمطلق ما لا نعلم ويحكم به عدلا ونحن لا نعلم إلا ما هو ممكنا ونحكم به إيمانا أنّه أحكم الحاكمين جلّ جلاله.

والحمد لله ربّ العالمين